السنة الرابعة والستون

آذار – نيسان ١٩٧٠

فتوحات المكية

للشيخ محيي الدين بن العربي الحاتمي

حقّق نصّها وعارضه بأصوله وعلّق حواشيه وقدّم له

الدكتور عثمان اسماعيل يحيى

الباحث العلمي بالمركز القومي للبحث العلمي في باريس

كتاب الفتوحات المكية ، للصوفي الأندلسي الشهير ، المدفون بمدينة دمشق ، الشيخ محيي الدين بن العربي (= ابن عربي) الحاتمي ، – أثرٌ فريد لا في الآداب الصوفية للاسلام بخاصة ، بل في الآداب الروحية للانسانية بعامة . انه احدى تلك القمم الرفيعة للروح البشرية في تطوّرها المبدع نحو الحق المطلق ؛ ولا عجب أن احتفل به المسلمون ، على اختلاف فِرَقهم ومذاهبهم ، في شتّى الأعصار والأمصار . وقلّما تخلو خزانة من دور الكتب الأهلية أو الوطنية ، ان في الشرق او في الغرب ، من نسخ عديدة له . والمكتبة السليمانية باسطنبول تضمّ وحدها اكثر من مائة مخطوط لهذا الكنز

الفكري الثمين ؛ وبعض هذه المخطوطات هو في منتهى الأهمية من الناحية الفنية أو التاريخية .

ليس قصدنا في هذا التصدير العاجل لخطبة الفتوحات المكية : أن نُلِمّ بالقضايا الفلسفية لهذه الموسوعة الحافلة الغريبة . أو أن نستعرض المشاكل الدينية التي أثارتها من خلال صفحاتها التي تربو على الآلاف . غرضنا الآن بالحريّ محدود وبسيط . وهدفنا بالتالي متواضع وقريب : ١) كيف حققنا نصّ خطبة الفتوحات المكية ؛ ٢) ما هي الموضوعات الأساسية لهذه الخطبة . في خطوطها العامة الكبرى ؟

١) تحقيق نص خطبة الفتوحات :

كانت عمدتنا في تحقيق نصّ خطبة الفتوحات المكية ثلاثة أصول رئيسية . ذات أهمية متفاوتة من الوجهة العلمية والتاريخية . الأصل الأول والأساسي هو مخطوط دار الآثار الاسلامية بمدينة اسطنبول : (*Islam Eserleri*, ancienne Cote: *Eskaf Muzesi*, Istanbul). وهذا المخطوط ؛ الذي هو ذو خطورة بالغة ؛ يحتوي على الكتاب بأسره ؛ في سبعة وثلاثين مجلداً ؛ بأرقام متسلسلة تبدأ من ١٨٤٥ حتى ١٨٨١ . وهو — أعني هذا المخطوط — حسن التجليد ؛ جيد الورق ؛ بقلم ابن عربي ؛ ويحتوي على عدد طيّب من السماعات والإجازات والقراءات ؛ أثناء حياة الشيخ وبعد وفاته . وبعض السماعات مذيل بتوقيع المؤلف المسمع . وهذه النسخة مكتوبة بخط أندلسي متقن (ما عدا السماعات والإجازات والقراءات فانها بأقلام مختلفة مشرقية ؛ ومما يجب التنويه به في هذا المقام : أن خط الشيخ ابن عربي في توقيعة على صحة السماعات أو في الإجازات يختلف عن خطّه في الفتوحات : فهو هنا بقلم أندلسي ؛ وهناك بقلم مشرقي ؛ نسخي أو نستعليق) .

وأبعاد هذه النسخة ٢٤ سم÷١٨ سم ؛ مسطرتها ١٧ سطراً ؛ السطر يحتوي على تسع كلمات تقريباً ؛ مرقمة من جديد (على الطريقة الاوربية) . وهي بقلم بين الدقة والغلظة ؛ واضح ، جيد ، إلاّ أن أحرف الكلمات مهملة أحياناً[1] . والنسخة مكتوبة بحبر بنّي على ورق أسمر مُقَوّى ؛ وهي في حالة حسنة من حيث الصيانة . تاريخ نهاية تحريرها ثابت في آخر المجلد السابع والثلاثين : بكرة يوم الاربعاء ، الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول ، سنة ست وثلاثين وست مائة (٦٣٦) . وأقدم تاريخ سماع لها هو

١) (وحرف القاف يكتب أحياناً على الطريقة المغربية وأحياناً على الطريقة المشرقية وفي الغالب يكتب مهملاً غير معجم) .

المذكور في آخر الجزء الثاني من السفر الأول للكتاب: سابع ربيع الاول عام ثلاث وثلاثين وست مائة (٦٣٣). ومن ثمّ يمكن أن يستنتج أنّ بدء تحرير هذه النسخة كان عام ٦٣٣ أو الذي قبله. واستغرقت مدة كتابتها أربع سنوات أو خمس. قبل وفاة الشيخ بعامين. ويصرّح الشيخ في خاتمة الكتاب بأن هذه النسخة هي الثانية للفتوحات المكية التي بخط يده: وفيها زيادات لا توجد في النسخة الاولى التي كان بدأ بها في مكة عام ٥٩٩ وأتمّها بدمشق بعد ثلاثين سنة. — ورمز هذا الأصل: K.

الأصل الثاني الذي اعتمدنا عليه في تحقيق رواية خطبة الفتوحات المكية: هو مخطوط مكتبة بيازيد العمومية في اسطنبول أيضاً. ويحتوي هذا المخطوط على الكتاب جميعه، وهو في أربعة مجلدات ضخمة، أرقامها بالتسلسل: ٣٧٤٣–٣٧٤٦. وهذه النسخة بكاملها مكتوبة بقلم خطّاط واحد: وهو يصرّح بأنه نقل الكتاب عن أصل المصنف الذي هو بخط يده: المنتهي عام تسع وعشرين وست مائة (٦٢٩): الذي هو عبارة عن النسخة الاولى والرواية الاولى للفتوحات المكية.

وهذا الأصل الثاني للفتوحات، أتمّه ناسخه عام ثلاث وثمانين وست مائة (٦٨٣): ولا شك أنه كان بدأ به قبل ذلك بعدة سنوات، نظراً للعناية الفائقة المبذولة في النسخ والتصحيح والمعارضة بالأصل: ولضخامة حجم الكتاب بصورة خاصة. والنسخة مكتوبة بخط نسخي واضح: مضبوطة بعض كلماتها أحياناً، عليها تصحيح وتعليق بأقلام مختلفة، معارضة بالاصل الأمّ. هي بقلم وسط بين الدقة والغلظة، بحبر أسود كاب من أثر القدم: على ورق أسمر مُقَوّى، حسنة التجليد: من غير عنوان بالأصل، وناسخها مجهول. وأبعاد هذه النسخة ٢٨ سم + ٢٠ سم: ومسطرتها ٢٧ سطراً، وينتظم السطر ١٧ كلمة تقريباً، مرقومة بالأصل. — ورمز هذا الاصل: B.

أمّا الأصل الثالث والأخير فهو طبعة القاهرة للفتوحات المكية عام ١٣٢٩ هجرية. وهذه الطبعة في أربعة مجلدات كبيرة، تم نشرها بمطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر، على نفقة الحاج قدا محمد الكشميري وشركاه. ويصرّح الناشر بأن طبع الكتاب كان على «النسخة المقابلة على نسخة المؤلف، الموجودة بمدينة قونية». ثم يضيف ما يلي: «وقام بهذا المهمّ جماعة من العلماء بأمر المغفور له الأمير عبد القادر الجزايرلي (الجزائري)— رحم الله الجميع وأثابهم المكان الرفيع! —».

وبهذا يكن في الأمر من شيء . فهذه الطبعة للفتوحات المكية هي نشرة تجارية ، وليست بعلمية . — ورمز هذا الأصل : C .

٥

انّ عنايتنا الشديدة أثناء القيام بعملية المعارضة والمقابلة بين هذه الأصول جميعاً ، انجبت قبل كل شيء عن الأصلين الأول والثاني ، واستغرقت جهد طاقتنا فيهما . وكان يحفزنا الى ذلك دافع علمي ذو ضرورة مطلقة . ليس فقط من أجل إثبات الرواية الصحيحة لخطبة الفتوحات المكية (ولسائر الكتاب في المستقبل) ، بل من أجل إثبات النص التام القطعي لهذا الأثر الفكري الممتاز . وإقامته على أسس علمية نقدية متينة . ولنوضّح ذلك فيما يأتي .

إنّ مخطوطيْ دار الآثار الاسلامية باسطنبول (= الأصل الأول) ومكتبة بيازيد العمومية (= الأصل الثاني) : مع اعترافنا بأهميتها التاريخية والعلمية ؛ ما كان في ميسور كل واحد منهما بانفراده أن يعطينا أو يقدم لنا الضمان الوافي للنص الكامل والنهائي لكتاب الفتوحات المكية . فنسخة دار الآثار الاسلامية مثلاً (التي هي الرواية الثانية للفتوحات) : إذا كانت ، على حدّ تصريح الشيخ الخاتمي في خاتمتها ، تحتوي على زيادات لا توجد نظائرها في النص الأول للكتاب ، — فهي أيضاً ، في الوقت نفسه ، على حدّ تصريح المؤلّف ذاته ، تحتوي على تغيير في بعض جملها ونقص في بعض أجزائها . ومن ثَمّة كانت الضرورة مطلقة للحصول على النسخة الاولى والرواية الاولى للفتوحات المكية ، حتى يتمّ لنا بها : مع النسخة الثانية والرواية الثانية . النص الكامل والقطعي للكتاب . وهذا ما تيسّر لنا بالفعل بفضل العثور على مخطوط بيازيد : الاصل الثاني الذي كان عمدتنا في تحقيق خطبة الفتوحات المكية .

وبطبيعة الحال ، لقد اتخذنا مخطوط دار الآثار الاسلامية باسطنبول الأساس الأول والأصل الأمّ لإثبات نص خطبة الفتوحات المكية وتحقيقه ، (ولإثبات نص الكتاب وتحقيقه بأسره لدى نشره في المستقبل ، ان شاء الله !) وهذه النسخة كانت أولا ملكاً للصوفي الفيلسوف الكبير صدر الدين ابن اسحق القونوي ، تلميذ الشيخ الأكبر وربيبه ؛ وهي مهداة إليه من قبل أستاذه . وقد وقف صدر الدين هذه النسخة مع جميع كتبه على الزاوية التي أنشأها قريباً من داره بمدينة قونية ، والتي ضمت ايضاً رفاته بعد

حياته . ونجد صكّ هذه الوقفية مسجلاً على الغلاف الداخلي لكل سفر من أسفار الكتاب . بقلم كاتب الشيخ صدر الدين القونوي .

وقد عارضنا نصّ مخطوط دار الآثار الاسلامية بأصل بيازيد الخطي وأصل القاهرة الطبعي . وأثبتنا : أسفل كل صحيفة من المتن : اختلاف روايات هذه الأصول . ونظرًا لأهمية الأصل الأول والثاني : لم نقتصر على ذكر الخلاف اللفظي بينهما فحسب : بل ذكرنا ايضاً الخلاف في صورة الاملاء عندهما : باستثناء شكل الحروف المعجمة التي أهملت في الأصل الاول : او شكل القاف الذي يكتب أحياناً على الطريقة المغربية وأحياناً على الطريقة المشرقية : وفي الغالب مهملاً .

ثم جعلنا النصّ اختتى لخطبة الفتوحات المكية ذا فقرات مرقومة متسلسلة . ووضعنا لكل بحث مستقل عن غيره عنواناً في وسط السطر : يكشف عن طبيعته وينبئ عن أغراضه . وحرصنا على أن تكون الآيات القرآنية داخل هلالين مزهرين : والأحاديث النبوية والآثار والأخبار ونقول العلماء ضمن الحواصر . أمّا الزيادات على النص من جانبنا : لتفسيره أو توضيحه . أو تنقيحه : فهي بين هلالين عاريين . وأشرنا الى أرقام ورقات الأصل الأمّ — نسخة دار الآثار الاسلامية باسطنبول — في جوف قوسين قائمين .

وقد اصطنعنا في قسم تحقيق روايات النص : الجزء الأسفل من كل صفحة : بعض الرموز او العلامات : هذا حلّها :

\+ علامة الزيادة في روايات الاصول (أحدها أو كلها) :

— علامة النقص في روايات الاصول (أحدها أو كلها) :

... علامة الجملة أو الجمل المحذوفة : الموجودة بتمامها في المتن :

∴ علامة اتفاق الأصول جميعاً على رواية المتن :

⟵ علامة القلب في رواية احد الأصول : مثلاً : والأزهار والنبات B K : ⟵ (أي أن الرواية في C : والنبات والأزهار) .

K رمز مخطوط دار الآثار الاسلامية باسطنبول :

B رمز مخطوط مكتبة بيازيد العمومية باسطنبول :

C رمز طبعة القاهرة للفتوحات المكية عام ١٣٢٩ .

أمّا رموز المتن أو علاماته فهذا حلّها أيضاً :

﴿ ﴾ الهلالان المزهران : ما بينهما خاص بالآيات القرآنية ؛

« » الحواصر : ما بينها خاص بالأحاديث والآثار ونقول العلماء ؛

( ) الهلالان العاريان : ما بينهما إضافة من الناشر على المتن ؛

[ ] القوسان القائمان : ما بينهما يشير الى ورقات الأصل الأمّ ؛

= المعادلة : تشير الى ان الجملة التي تليها في حكم ما قبلها من جهة المعنى ؛

: الافصاح : ما بعد هاتين النقطتين يفصح عمّا قبلها ويفسّره ؛

. النقطة : علامة نهاية الجملة المستقلّة ؛

؛ النقطة والفاصلة : علامة نهاية الجملة غير المستقلّة ؛

، الفاصلة المفردة : علامة عطف الجملة غير المستقلة على ما قبلها ؛

! علامة التعجّب ؛

؟ علامة الاستفهام .

وأخيراً كرّسنا للتعليقات على النصّ جزءًا مستقلاً ألحقناه في آخر هذه الدراسة وذيّلنا به متن خطبة الفتوحات المكية . وكان غرضنا في هذا القسم الخاص تفسير بعض الكلمات الفنية أو اللغوية الواردة في المتن ، وتوضيح بعض الجوانب الفكرية والمذهبية التي يعبّر عنها النصّ أو يشير اليها . كما أولينا عناية خاصة هنا بتحقيق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنقول العلمية وضبط الاعلام وتوثيقها .

٢) الموضوعات الأساسية لخطبة الفتوحات المكية :

خطبة الفتوحات في صورتها الحاضرة مكونة من شطرين منفصلين تماماً ، ولا توجد بينهما أية علاقة منطقية أو موضوعية . الشطر الأول يستغرق الفقرات الأولى حتى نهاية الفقرة الرابعة والثلاثين ؛ والشطر الثاني يمتد من الفقرة الخامسة والثلاثين حتى آخر الخطبة . وقد لاحظ المؤلف نفسه هذا الصدع أو الانشقاق في هيكل بنيان الخطبة وتصميمها الكياني . (انظر الفقرة ذات الرقم ٣٤) .

ومهما يكن في الأمر من شيء ؛ فان الشطر الأول من هذه الخطبة يعالج باسلوب رمزي وأدبي ثلاثة موضوعات كبرى هي في صميم مذهب الشيخ الخاتمي ؛ وتفكيره الديني والصوفي . هذه الموضوعات هي الحقيقة الوجودية . الحقيقة المحمدية . نشوء الكون وظهور الكائنات . وقد اصطنع المصنف لهذا الجزء الخاص من خطبته عدة عناوين فرعية . ذات صلة وثيقة بنظريته العامة في المعرفة : مكاشفة قلبية في حضرة غيبية (ف ٩) ؛ المشهد النوعي العلي (ف ٣٤) ؛ الحمد المقدس (عينه) .

١ ــ الحقيقة الوجودية

في نظر الشيخ الأكبر . الحقيقة الوجودية ذات وجهين متقابلين ومتكاملين ؛ لا يوجد أحدهما منفصلاً عن الآخر . وبالتالي لا يُعْقَل الواحد منهما بدون الآخر . الوجه الاول ظاهر مرئي ؛ وهو عالم الخلق ؛ عالم الامكان والحدوث ؛ والكثرة والتغيّر ؛ والتعارض والتخالف . الوجه الثاني باطن غير مرئي ؛ وهو عالم الحق ؛ عالم الوحدة والوجوب ؛ والأزلية والأبدية ؛ والاطلاق واللانهائية ؛ والديمومة والسرمدية .

وهذه الثنائية أو الازدواج في صعيد الحقيقة الوجودية ؛ من حيث وجهاها : ــ هو ظلّ للثنائية أو الازدواج القائمين في مستوى الحقيقة الالهية من حيث مظهراها . اذ الألوهية أيضاً ، في وجودها وكمالها المطلقين ، ذات وجهين متقابلين ومتكاملين ؛ ولا يمكن بتاتاً تصور الألوهية بدونهما في آن معاً . الوجه الأول هو رمز للألوهية كما هي في ذاتها وطبيعتها ووجودها . وهذا الجانب الالهي أخص سماته الوحدةُ والقداسة والأزلية والسرمدية . أمّا الوجه الثاني فهو رمز الالوهية كما هي في أسمائها وصفاتها وأفعالها . وهذا الجانب الالهي يتصف بالكثرة والتعدد واللانهائية .

إن نضوج الاختبار الفكري للعقل الانساني ، وكمال ذوقه الروحي ؛ إنّ في صعيد الحقيقة الوجودية أو في مستوى الحقيقة الالهية ؛ ــ هما في هذا الادراك الشامل والوعي العميق للوحدة في الكثرة ، وللكثرة في الوحدة ؛ للبساطة في اللانهائية ، وللانهائية في البساطة ؛ للاطلاق في التقييد ، وللتقييد في الاطلاق . وذلك كله من غير تناقض ولا شذوذ ولا اضطراب . بل يتيقظ تامة للروح البشري ؛ أثناء اللحظات الخالدة لتطوره المبدع نحو سماء الخلود والسرمدية .

في مستوى حقيقة الالهية . وحدة الذات لا تتناقض بتاتاً مع كثرة الاحاد وتعدد الصفات . بل على الضد من ذلك . تلك الكثرة وذلك التعدد يكشفان عن جوهر الوحدة الالهية في معناها السامي المطلق . فالكثرة . في ذلك الوضع الاقدس . ليست مادية ولا في ذي مادة . ليست عددية ولا في ذي عدد . انها كثرة كيفية . معنوية . حقيقية ؛ تعبّر عن اتحاد الذات الاحدية وكنوزها الغنية اللامتناهية .

وفي صعيد حقيقة الوجودية . وحدة عالم الخلق لا تتنافى أبداً مع كثرة عالم الخلق . بل على الضد من ذلك ؛ إن كثرة عالم الخلق . بالنسبة الى أجناسه وأنواعه وصوره وأفراده . تدل دلالة واضحة على تسامي وحدة عالم الحق في جنبه الأبدي المطلق ؛ عبر المظاهر الخارجية وتجلي الكونية .

وفي الواقع . إن وحدة الحقيقة الوجودية . أو بتعبير ادق وحدة الوجود . التي تنتظم الحق والخلق معاً . ليست وحدة قائمة في طبيعة كلٍّ منهما . ولا هي ثابتة في ماهيتيهما . ولا منخفضة في جوهريهما : ان طبيعة الحق هي الوجوب . وجوهره الوحدة . وماهيته الاطلاق واللانهائية . في حين أن عالم الخلق طبيعته هي الامكان . وجوهره الكثرة (العددية) ؛ وماهيته التقيد والجزئية .

وإذن ؛ فالوحدة القائمة في صعيد الوجود بين الحق والخلق ؛ هي وحدة ايجاد ؛ لا وحدة موجودات . هي وحدة « كُنْ ! » لا وحدة الكون . هي وحدة الفعل الالهي الخلاق الذي تتحقق به جميع الأشياء ؛ ابتداءً من العقل الكلي حتى المادة العمياء . إنّ سائر ما في عالم الخلق ؛ من كائنات منظورة وغير منظورة ؛ هي مظهر للحقيقة الوجودية الواحدة ؛ وأثر من آثار الوجود الواحد .

ثم إن هذا الوجود الواحد ؛ الذي هو بمعنى الايجاد الواحد ؛ ينتظم الاشياء الحادثة والممكنة كلها ؛ ويحيط بها من شتى أقطارها ؛ إنه كل شيء فيها . ظاهراً وباطناً ؛ كلا وجزءا ؛ حقيقة وعيناً ؛ ماهيةً وجوهراً . اذ لا شيء في دائرة الموجودات لا تنفذ فيه أشعة الإيجاد .

ومرّةً أخرى أيضاً ؛ إن هذا الوجود الواحد ؛ الذي هو بمعنى الايجاد الواحد ؛ يتميّز تماماً ؛ من حيث طبيعته وماهيته وجوهره ؛ عن سائر الموجودات الحادثة المخلوقة ؛ من حيث طبيعتها وماهيتها وجوهرها . انه واجب

ضروري . وهي ممكنة حادثة . انه خالق ازلي . وهي مخلوقة فانية . انه واحد أبدي . وهي كثيرة متعددة متغيرة . الخ ...

ب ـ الحقيقة المحمدية

هذه الفكرة عند الشيخ الحاتمي هي تماماً نظير فكرة المبدع الاول (Protoktiotos) عند الاسماعيليين . والنور المحمدي عند الإماميين : كما هي على صلات وثيقة بعقيدة الكلمة (Le Verbe) لدى المسيحيين . ونظرية « اللوغوس : Logos » لدى فيلون الاسكندري . ومع ذلك : وعلى الرغم من تعدد المصادر الاسلامية والأجنبية التي أستمد منها شيخنا بذور فكرته . فانه استطاع أن يتمثلها جميعاً . ويقيمها على أسس متينة من المنطق : ويصوغها اخيراً في صورة علمية تمتاز بالجمال والأصالة والعمق.

في نظر الشيخ الأكبر . الحقيقة المحمدية لها ثلاثة اعتبارات نسبية . وبالتالي لها ثلاث وظائف رئيسية . تقوم باداتها متميزة : الحقيقة المحمدية بالنسبة الى الذات المُطْلَقة وغيب الغيوب Θεότητος — ووظيفتها ثمة ذاتية وجودية صرف (fonction ontologique) — : الحقيقة المحمدية بالنسبة الى العوالم الخارجية : المرئية وغير المرئية — ووظيفتها هناك كونية (F. Cosmologique) — : وأخيراً : الحقيقة المحمدية بالنسبة الى الجنس البشري ومصيره في الأبد — ووظيفتها هنا روحية : خلاصية : بعثية (F. rédemptrice et eschatologique) .

فالحقيقة المحمدية : بالنظر الى الذات المُطْلَقة وغيب الغيوب : هي التعيّن الاول : والتجلي الأكمل الأشمل في حضرة الوجود المُطْلَق . تنعكس فيها وعليها جميع كمالات الألوهية من حيث هي عالمة ومعلومة وعلم : ومن حيث مُحِبّة ومحبوبة ومَحَبّة . هي اسم الله الأعظم : أي الرمز الذي يكشف عن كنوز الذات وأمجادها اللانهائية . وقد أحبّت هذه الذات المُطْلَقة لنيض غناها ومزيد كمالها ، ان تُعرَف وتُحَبّ وتُعبَد . فكانت الحقيقة المحمدية وسيلة هذه المعرفة : وأداة هذه المحبة : وباب عبادة الخلق . إنها صلة الوصل بين الذات المُطْلَقة التي لا تدركها العقول ولا تتجاسر نحوها الخواطر (*Abscontitum*) وبين الاله المعبود المحبوب (*Deus revelatus*) . إذ هي : في الحقيقة : المظهر السامي لهذا الاله المعبود المعلوم المحبوب : بفضل تجليه الأتم فيها : وان كانت هي بالنظر الى طبيعتها وذاتها مخلوقة ومألوهة له .

ومن جهة أخرى : الحقيقة المحمدية ، بالنسبة الى العوالم الخارجية وما فيها من أشياء وكائنات ، هي العلة المباشرة في وجودها وتطورها وبقائها . هي القانون المسيطر على كل شيء . والعقل الساري في كل شيء . والنظام الذي به قوام كل شيء . الحقيقة المحمدية ، في نظر الشيخ الأكبر ، تجمع سائر وظائف مبدأ السببية كما هي في الفلسفة الارسطية : من الفاعلية والصورية والمادية والغائية . ويميز ابن عربي ، كما ميز قبله المفكرون الاسماعيليون ، بين مبدأ السببية الذي يطلقه على الحقيقة المحمدية (وان شئت على العقل الكلي) ؛ وبين مبدأ المُسبَّبية الذي يعتبره بحق العمل الخلاق للذات المُطلقة . ومن هنا استطاع الشيخ الأكبر أن يسمو بفكرة الالوهية ، كما سما بها من قبل مفكرو الاسماعيلية ، الى أقصى حدود التنزيه ، وأن يبعد عن عقيدة التوحيد كل شائبة من شوائب التعدد أو الاشراك .

واخيراً ، اذا كانت الحقيقة المحمدية بالنسبة الى الألوهية مظهر تجليها الأكمل وعنوان وجودها الأتم ؛ واذا كانت بالنسبة الى العوالم الكونية الخارجية مبدأ نشوئها ونموها وبقائها ؛ فهي ايضاً ، بالنسبة الى النوع الانساني العلة المباشرة في تطوره الروحي ومصيره الأبدي (= نظرية الانسان الكامل) . ان الحقيقة المحمدية ، عند الشيخ الأكبر ، لها وظيفتان رئيسيتان بالقياس الى التاريخ الروحي للبشرية : انها مصدر النبوة والرسالة ، وينبوع الولاية والقداسة . وفي هذه القيم العظمى — وفيها وحدها — يتحقق كمال البشرية ، أي خلاصها وخلودها السعيد .

عن طريق النبوة والرسالة يعلن الله ارادته السماوية أمام الضمير الانساني ، في صورة شريعة منزّلة . وعن طريق الولاية والقداسة يظهر الله هذه الارادة السماوية ذاتها في صورة ، حية ، ماثلة . وذروة كمال الانسان وغاية حياته ان تتحد ارادته مع ارادة السماء ، وتقرّ عينُه برؤية هدية الله الكبرى الى البشر : في أشخاص الأولياء والقديسين .

قلنا من قبل : إن فكرة الشيخ الأكبر في الحقيقة المحمدية ذات صلات وثيقة بعقيدة « الكلمة » عند المسيحيين ، وبنظرية « اللوغوس » عند فيلون الاسكندري . وهذا واضح جداً من خلال استعراضنا السريع لها في السطور المتقدمة . ومع ذلك ، فهناك فروق أساسية بينها وبين نظائرها في المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، لا مناص من الالماع بها في هذا المقام .

« الكلمة » في العقيدة المسيحية الرسمية : هي أقنوم إلاهي : إنها تؤلف ، مع أقنومي الآب والروح القدس ، وحدة الحقيقة الالاهية في كيانها وتساميها . ومن جهة أخرى ، « الكلمة » تجسّدت في صورة انسانية تاريخية ، هي شخص يسوع المسيح . أما عند ابن عربي فالحقيقة المحمدية — كما رأينا — هي تجلّ الاهي ، فهي مُبْدَعة مخلوقة ، لا تتحد مع الالوهية لا في ذاتها ولا في طبيعتها . وبالتالي ، الحقيقة المحمدية ليست الاهاً ، بل مألوهاً . ثم ان ظهورها على مسرح التاريخ في صور الأنبياء والأولياء ، لا يعتبر في نظر الشيخ الأكبر تجسّداً لها ، بل تجلّياً خارجياً ، ليس مقصوراً على نبي دون نبي ، أو ولي دون ولي . فجميع الانبياء والاولياء ، من اوّلهم الى آخرهم ، هم نماذج حقيقية حية للحقيقة المحمدية ، وصور واقعية تاريخية عنها .

أما الفارق الأساسي ، في رأينا ، بين نظرية « اللوغوس » الفيلونية والحقيقة المحمدية ، فهو ان الأولى ليس لها وظيفة او مهمة خلاصية بعثية ، بالنسبة الى الانسان ومصيره الروحي ، كما هو شأن الحقيقة المحمدية عند الشيخ الأكبر (وكما هو الحال ايضاً في المسيحية بخصوص تجسد الكلمة) . فيلون اليهودي لا يعتبر أنبياء بني اسرائيل ولا أولياءهم ، مثلاً ، نماذج أو صوراً حية على الأرض للوغوس في السماء . هذا ، مع اقراره بأن «لوغوس» هو ابن الله وانموذج العالم . اي ان وظيفة اللوغوس ومهمته عند فيلون ، مقصورة على جانبين اثنين فقط : الجانب الوجودي ، والجانب الكوني .

ج — نشوء الكون وظهور الكائنات

هذا هو الموضوع الثالث للشطر الاول من خطبة الفتوحات ، كما نوهنا بذلك من قبل . وقد عرض الشيخ في هذا الجزء من خطبته ، بصورة مفصلة لقصة ميلاد العالم وخلقه ، كما هي واردة في الآثار الدينية الاسلامية وغير الاسلامية . ومما تجب ملاحظته في هذا الصدد ، أننا لسنا هنا تجاه حقائق علمية ، فلكية أو كونية . بل بالحريّ ، أمام رموز ومثل تعبر عن أفكار غيبية دينية ، مستعينة لأدائها بطائفة من المعارف الانسانية ، السائدة في تلك العصور .

ومن جهة اخرى ، أتاحت قصة ميلاد العالم ، أو نشوء الكون وظهور الموجودات ، التي كرّس لها الشيخ الأكبر هذا الجزء الخاص من خطبته ،

الفرصة المناسبة لأن يعرض من خلال سطورها بتفصيل تطبيق نظريته في الحقيقة المحمدية من ناحيتها الكوسمولوجية ؛ أي من حيث أثرها في الكون والحياة والوجود . ومن هنا ، يصح لنا أن نعتبر هذا البند الثالث من خطبة الفتوحات بمثابة الامتداد والتطور للبند الثاني الذي سبقه .

د ــ رسالة الى الشيخ عبد العزيز المهدوي

هذا الجزء الخاص من خطبة الفتوحات المكية ، يؤلف الشطر الثاني منها الذي لا صلة له البتة بالشطر الأول . كما نوهنا بذلك من قبل . ويبدأ هذا الجزء من الفقرة الخامسة والثلاثين (٣٥) وينتهي في آخر الخطبة . وهو ، بدوره ، مركب من قسمين متميزين من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب ، في آن معاً . فالقسم الاول هو عبارة عن قصيدة شعرية طويلة ؛ والقسم الثاني مصاغ بشكل خطاب شخصي ، وجّهه ابن عربي وهو في مكة الى شيخه المهدوي بتونس .

وقد احتوت القصيدة الشعرية على طائفة من الموضوعات المختلفة : التاريخية والفكرية ؛ مما لها علاقة مباشرة بحياة شيخنا ومذهبه . استهل ابن عربي قصيدته بذكر حجته الاولى ودخوله بطريق الاخوة في مكة . ثم تطرق لعرض فكرة الانسان الكامل وموقف الملائكة منه ؛ فالمأساة الانسانية ؛ ثم يلي هذا إلماع بارتساماته (ses impressions) إثر زيارته الأولى لتونس ولقائه الشيخ المهدوي وأتباعه . ثم يخصّص الجزء الأخير من هذه القصيدة لبيان الحقيقة الوجودية ووصف نهاية المطاف في الحياة الروحية . ــ وجميع هذه الأنماط الفكرية والذكريات التاريخية ، التي يتألف منها هيكل هذه القصيدة ، مصاغة ببلغة أدبية رائعة ، ذات نفس شعري أصيل وأسلوب رمزي ساحر .

أمّا الخطاب النثري الذي يلي هذه القصيدة ، وبه تتم خطبة الفتوحات ، فهو مخصص مع شيء من التفصيل ، لذكريات ابن عربي عن زيارته الأولى والثانية لمدينة تونس ، ولقائه الشيخ المهدوي وأتباعه هناك ، ثم يختم هذا الخطاب فيذكر كيف انه عقد العزم على تحرير كتاب الفتوحات المكية ، ولماذا أقدم على ذلك ، منذ وطأت قدماه الاراضي المقدسة في المشرق ، آخر عام ٥٩٨ للهجرة .

باريس ــ تشرين اول ١٩٦٩ . عثمان يحيى

نصّ خطبة الفتوحات المكية

(١ ــ تأملات حول الحقيقة الوجودية)

(١) الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم[1] وعَدَمِه[2]. وأوقف وجودها على توجّه كلمه[3]. لتتحقّق بذلك سرّ حدوثها وقِدَمِها[4] من قدَمِه[5]. ونقف

٢ الأشياء C : الاشيا K : الاشيآ B ؛ ٤ لتحقق B K : لتحقق) ؛ بذلك C K : بذلك B .

١ «الحمد ... عن عدم» . ــ في نظر الشيخ . الأشياء موجَدة عن عدم ؛ لا من عدم : ومن ثَمَّ : لا يكون العدم مبدأ وجود الأشياء أو مصدرها (وهذا اعتبار فاسد من الوجهة النظرية المحضة) ، بل هو حالة من أحوالها ومظهر من مظاهرها . وإيجاد الأشياء : على هذا النحو : يكون معناه : انتقال الممكن من طور الكمون إلى طور الظهور. ويسمي الشيخ الأكبر الطور الأول بالوجود العلمي أو الغيبي للممكنات، والطور الثاني بالوجود العيني لها .

٢ «وعدمه» . ــ أي عدم العدم . وهو الوجود العلمي للأشياء في حضرة العلم الالهي : الذي يسبق وجودها العين على مسرح الكون . وهذا الوجود العلمي أو الغيبي للممكنات . يسميه ابن عربي أيضاً : العيْن الثابتة او شيئية الثبوت (في مقابل شيئية الوجود) . وهذه الفكرة من أسس مذهبه العام في وحدة الوجود . يراجع تفصيل ذلك كله في آخر بحث للاستاذ الكبير المرحوم ابو العلا عفيفي : «نظرية الأعيان الثابتة عند ابن عربي وصلتها بالمعدومات الممكنة في المذهب الاعتزالي» (السجل التذكاري محي الدين ابن عربي ، ص ص ٢١٣ــ٢٢٨ : القاهرة ١٩٦٩) .

٣ «واوقف ... كلمه» . ــ ليس في العربية القديمة «أوقف» إلاّ حرف واحد : أوقفت عن الأمر الذي كنت فيه ، أي أقلعت عنه . وروى عن ابي عمرو والكسائي أنه يقال للواقف : ما أوقفك هنا ؟ أيْ أيّ شيء صيّرك الى الوقوف ومنعك عن السير ؟ (انظر لسان العرب وتاج العروس ومعجم مقاييس اللغة ، مادة : وقف) . ــ هذا ، وتوقف وجود الأشياء على توجّه الكلم الآلهية إليها ، هو من الأفكار الرئيسية في القرآن (يراجع ٢/١١٨؛ ٣/٤٧؛ ٦/٧٣ الخ) وفي العهد القديم ايضاً (انظر مثلاً سفر التكوين ، الفصل الاول) . والصوفية المتأخرون من أتباع ابن عربي : يعرّفون «الكلمة» بأنها : الحقيقة او الماهية أو العين الثابتة ، مقترنة بالوجود بحكم ما تقتضيه من اللوازم والتوابع ، حتى أفادت معنى الخلقية والموجودية . ويميّزون بين : كلمة الحضرة ، والكلمة الغيبية المعنوية ، والكلمة الوجودية . (انظر لطائف الإعلام ، مخطوط جامعة اسطنبول ، رقم ٢٣٥٥/١٤٣ ب ــ ١٤٤ ب ، والفتوحات المكية ٢/١٢٩ ، ٣٩٠ ، ط . القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

٤ «سرّ حدوثها وقدمها» . ــ الأشياء حادثة لأنها ممكنة في حد ذاتها ، وبالتالي هي

عند هذا التحقيق على ما أعلمنا به من صدق قِدَمِه[1].

(٢) فَظَهَرَ — سبحانه ! — وَظَهَرَ وأَظْهَرَ[2]. وما بَطَنَ. ولكنه

---

١ تمة : (نسبت هذه الكلمة مع الكاف والنون في أصل K و B) || ٢ سبحانه C K : سبحه B ولكنه C : ولاكن B K .

موجودة بإيجاد الله لها. وفي الوقت نفسه. الأشياء قديمة : لأنها معلومة لله. وبالتالي فها وجود في حضرة العلم الإلهي القديم. وهذا الوجود للأشياء في العلم الإلهي القديم هو « عينها الثابتة ». أي حقيقتها الأزلية التي هي أسمى مظاهر وجودها.

٥ « من قِدَمِه ». — قِدَم الله ثابت له من حيث ذاته. أما قِدَم الممكن فهو ثابت له من حيث غيره. أي من حيث هو متعلَّق العلم الإلهي القديم. وهذا الفرق بين قِدَم الله وقِدَم الأشياء الممكنة : هو بعينه الفرق بين الوجوب الثابت لله والوجوب الثابت للأشياء : فالله واجب بذاته. والأشياء واجبة بالغير.

١ « من صِدْقِ قِدَمِه ». — صيغة أو صورة أدبية جيلة للتعبير عن أصالة القِدَم الإلهي بإزاء قِدَم الممكن. وصِدْق القِدَم. هو من إضافة الصفة للموصوف : أي القِدَم الصِّدْق : وهذا وارد في القرآن (٢/١٠) : وبخصوص المعنى الصوفي لهذه الكلمة : قبل ابن عربي. يراجع كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذي : ص ص ١٦٩ : ٣٣٨ : ٣٣٩.٣٤٢.٣٤٣.٣٤٤ (بيروت. المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٥) ؛ وانظر كتاب التجليات الإلهية لابن عربي ؛ تجلي السبحات المحرقة ؛ وتعليقات ابن سودكين على هذا التجلي ؛ وكشف الغايات (مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٤١/٤٨٠١ ألف) ؛ والمدامع المشرقة (نفس المخطوط ورقة رقم ١٥٤ ب).

٢ « فظهر ... وأظهر ». — يمكن فهم هذه الجملة الغريبة : من الوجهة اللغوية والصوفية : على وجهين : أن تكون « ظهر » الأولى بمعنى الظهور : الذي هو عبارة عن تجليات الله بأفعاله أو بصفاته في الأشياء ؛ و « ظهر » الثانية بمعنى الغلبة والاقتدار الذي هو عبارة عن ظهور الله : في تجليه : على جميع الأشياء. وفي هذه الحالة : يكون معنى قول الشيخ الأكبر : « فظهر — سبحانه ! — وظهر » : أي تجلى الحق بأفعاله أو بصفاته عبر الممكنات الموجودة ؛ وبتجليه فيها غلب ظهوره على ظهورها ، عَيْناً في تجليه النُّطْقي : وحُكْماً في تجليه الخَلْقي. الوجه الثاني : ان تكون « ظهر » الثانية بمعنى زال (يقال في اللغة : ظهر عنه العار : أي زال). وفي هذه الحالة : تكون « ظهر » الثانية مناقضة تماماً لـ « ظهر » الأولى. ويكون معنى الجملة : ظهر — سبحانه ! — على مسرح الكون بأفعاله أو بصفاته : وهو في الحقيقة ما ظهر ! لأن الظهور لا يتم إلاّ من حيث الذات ، وذات الحق لا يمكن ظهورها لغير ذاته. وهذا الوجه أقرب إلى مذهب ابن عربي في طبيعة الحقيقة الوجودية وكونها جامعة للأضداد ؛ وهو ينسجم مع الجملة التالية مباشرة : « وما بطن ولكنه بطن. .. »

بَطَنَ وأبْطَنَ[1]! وأثبت له الاسمَ الأوّلَ وجودُ عين العبد ؛ وقد كان ثبت . وأثبت له الاسم الآخرَ تقديرُ الفناء والفقد ؛ وقد كان قبل ذلك ثبت[2].

(٣) فلولا العصر والمُعاصِر . والجاهل والخابر . ما عرف أحد معنى اسمه الأوّل والآخر . ولا الباطن والظاهر[3] . وإن كانت أسماؤه الحسنى على هذا الطريق الأسنى ، ولكن بينها تباينٌ في المنازل ؛ يتبين ذلك عند ما تتخذ وسائل لحلول النوازل . فليس عبد الحليم هو عبد الكريم ؛ وليس عبد الغفور هو عبد الشكور[4]. فكل عبد له اسمٌ هو ربّه ؛ وهو جسم

٢ الآخر C B : الاخر K || الفناء C : الفنا K : انفناء B || ذاك C K : ذلك B || ثبت C K : ثبت B || ٣ والخابر K C : (طمس في B) || ما عرف C K : ما عرفن B || ٤ والآخر C B : والاخر K || اسماؤه C : اسماوه K : اسماؤه B || ٥ ولكن C : ولاكن B K || ذلك C K : ذلك B || ٦ وسائل C : وسايل B K

١ «وما بطن ... وأبطن» . — ما بطن الحق تعالى ! — أي ما يَعْلَمُ (راجع لسان العرب وتاج العروس، المعاني المتعددة لِبَطَنَ : وما ذكرنا : هو المناسب لهذا المقام) . لأن الله ظاهر بأفعاله أو بصفاته على مسرح الكون : حُكْماً في التجلّي الخَلْقي ، وعَيْناً في التجلّي اللُطْفي . — «ولكنه بَطَنَ» أي خَفِيَ : لأن ذاته ، في الحقيقة لا تظهر لغيره مطلقاً . — «وأبْطَنَ» غيرَه : عَيْناً في تَجَلّيه اللُطْفي وحُكْماً في تجلّيه الخَلْقي . كما «أظْهَرَ» غيره أيضاً : حُكْماً في تجلّيه اللُطْفي ، وعيناً في تجلّيه الخَلْقي .

٢ «وأثبت له ... ذاك ثبت» . — أوّلية الحق وآخريته تطلقان عليه باعتبارين متميزين تماماً : من حيث هو هو ، أي باعتبار تجلّيه الذاتي : المقدس عن كلّ نسبة ؛ ومن حيث تجلّيه الخارجي في مظاهر الكون والكائنات ، اي باعتبار نسبته إليها وإضافتها إليه . فقول الشيخ : إن وجود عَيْن العبد (أي الكائن) أثبت للحق الاسم الأول ، كما ان تقدير فنائه أثبت للحق الاسم الآخر ، — يريد بذلك أولية الحق وآخريته من حيث تجلّيه الخارجي . وقوله إثر ذلك مباشرة : «وقد كان له ثبت» ، يريد بذلك الأولية والآخرية الثابتين للحق من حيث تجليه الذاتي ؛ لأن كل نعت أو كمال يوصف به الله في تجلّيه الخارجي ، هو ثابت له أزلاً وأبداً في تجليه الذاتي .

٣ «فلولا العصر ... والظاهر» . — الأول والآخر والظاهر والباطن ، من الأسماء الالهية الواردة في القرآن مرة واحدة (٥٧/٣) . وهي تدل على آفاق الوجود الالهي في تجلّيه الخارجي زماناً (= الأول والآخر) ومكاناً (= الظاهر والباطن) . وهذه الأسماء الالهية : في تجليها عبر الأشياء ، مقترنة لدينا بفكرتي الزمان والمكان . فلولا الزمان لما أدركنا حقيقة الأولية والآخرية بالنسبة إلى الله ؛ وكذلك لولا المكان لما تحققنا معنى الظهور والبطون الالهيين .

٤ «وإن كانت ... عبد الشكور» . — الأسماء الالهية واحدة من حيث الذات ؛

ذلك الاسمُ قلبُه[1].

(٤) فهو العليم [ورقة ٣ ألف] — سبحانه ! — الذي علّم وعَلَّم ؛ والحاكم الذي حَكَم وحَكَّم ؛ والقاهر الذي قَهَر وأقهر ؛ والقادر الذي قَدَّر وكَسَّب ولم يتقدّر. (هو) الباقي الذي لم تتم به صفة البقاء[2] ؛

١ ذلك C K : ذلك B ‖ ٢ سبحانه C : سبحنه B K ‖ ؛ وهو يقدر : (ضبطت بضم الياء وكسر الدال — من فعل أقدر المتعدي — في اصل B) ‖ البقاء C : ابد K : ابقاء B .

كثيرة من حيث الصفات . فلأنّ الذات الالهية واحدة ، توحّدت فيها جميع الأسماء (المتماثلة والمتقابلة والمختلفة) . ولأن الصفات الالهية كثيرة تنوعت وتعددت لديها جميع الأسماء . إلاّ أن كثرة الصفات ، وبالتالي كثرة الأسماء ، ليست من طبيعة الكمّ أو العدد ، بل هي من طبيعة التكيف . فلا يلزم عن كثرة الصفات والاسماء تعدّد في حقيقة الألوهية . أي تعارض مع وحدتها السامية . وكل اسم إلاهي يختزل على جميع معاني الاسماء ، من حيث دلالته على التراث ؛ ثم يتميّز عن غيره من الأسماء من حيث دلالته الخاصة على الصفة التي هو مقوّمها ومشخّصها .

١ « فكل عبد ... قلبه » . — اتحاد الجسم بالروح هو الذي يؤلّف الكيان الانساني ؛ واتحاد الرب بالعبد هو الذي يؤلّف الحقيقة الوجودية . فالحقيقة الوجودية وحدة لا انفصام فيها بين الرب والعبد ؛ والحقيقة الانسانية وحدة لا انفصال فيها بين الجسم والقلب . وإذا كان يستحيل علينا تصوّر انسان من غير جسم أو قلب ، كذلك يستحيل علينا تصوّر الحقيقة وجودية من غير ربّ أو عبد . — بيد أنّ اتحاد الرب بالعبد لا يمسّ كمال الربوبية : لأن الألوهية ، في ذاتها ، من طبيعتها الاطلاق ، أي عدم التقيد بحدود الزمان أو المكان أو المادة . ثم إن اتحاد الرب بالعبد يظهر في دائرتين مختلفتين : في دائرة الخلق (وهذا هو التجلي الخَلْقي العام) وفي دائرة النعمة والمنّة (وهذا هو التجلي اللُطْفي الخاص) . وعن الاتحاد الأول ، يتحقّق وجود الانسان في المستوى الطبيعي ؛ وعن الاتحاد الثاني ، يتحقّق كمال وجود الانسان المطلق ، أي وجوده في المستوى الالهي .

٢ « فهو العليم ... صفة البقاء » . — العلْم من الصفات والأسماء الالهية الواردة في القرآن بكثرة (انظر المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته ، مادة : علّم ومشتقاتها) . و « العليم » اسم الهي مذكور في القرآن مرارًا ، ويدل على المبالغة في صفة العلم على جهة الدوام والبقاء ، في مقابل « العلاّم » الدالّ على المبالغة في صفة العلم على جهة الكثرة . — والحَكَمُ نسب الى الله في القرآن كفعل (« والله يحكم لا معقب له » ١٣/٤١ ؛ « ان الله يحكم بينهم » ٣/٣٩ الخ) ؛ ولم يرد فيه : الله حاكمٌ ، ولكن : الله « خير الحاكمين » ٧/٨٦؛١٠/١٠٩ ؛ ١٢/٨٠ ؛ كما ورد فيه أيضاً : الله « أحكم الحاكمين » ١١/٤٥ . — وجاء في القرآن : « وهو » (اي الله) « القاهر فوق عباده » (٦/١٨؛٦١) ؛ كما جاء مرارًا : الله الواحد القهّار (٢/٣٩؛١٣/١٨؛١٤/٤٨؛٣٨/٦٥؛٤/٣٩) . — أما القدرة فمنسوبة إلى الله في القرآن من حيث هي فعل له أو صفة

والمقدّس في المشاهدة ، عن المزاجية والتلقاء ، بل العبد في ذلك الموطن الأنزه لاحق بالتنزيه ، لا أنه — سبحانه وتعالى ! — في ذلك المقام الأنزه يلحقه التشبيه ، فتزول من العبد ، في تلك الحضرة ، الجهاتُ ، وينعدم عند قيام النظرة به ، منه الالتفاتُ[1] .

(٥) أحمده حمد مَن علم أنه — سبحانه ! — علا في صفاته وتَعَلَّى ، وجَلَّ في ذاته وتجلّى ، وأن حجاب العزّة دون سُبُحاته مُسْدَل ، وباب

١ في المشاهدة K (تصحيح بقلم الأصل على الهامش) : عند المشاهدة C B || والتلقاء C : والتلقا K : والتلقاه B || ٢ سبحانه وتعالى C : سبحنه وتعالى B K || ذلك C K : ذلك B || المقام الأنزه K (تصحيح على الهامش بقلم الأصل) : المقام الأنوه C B || ٣ تلك CK : تلك B || وينعدم C K : وينعدم B || ٤ سبحانه C : سبحنه K : — B || وجل C K : وجلا B || وجل C K : وجلا B || ٦ سبحانه C K : سبحنه B .

أو اسم ، على صيغة الفعل المجرّد او المزيد ، اللازم أو المتعدّي (انظر المرشد إلى آيات القرآن ... مادة قدر ومشتقاتها) . — وأخيرًا : صفة البقاء لم ترد في القرآن منسوبة إلى الله مباشرةً ، بل جاء فيه : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » ٥٥/٢٧ ؛ و « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » ١٦/٩٦ ؛ كما جاء فيه أيضاً : « والله خير وأبقى » ٢٠/٧٣ ؛ « ورزق ربك خير وابقى » ٢٠/١٣١ ؛ « وما عند الله خير وأبقى » ٢٨/٦٠ ؛ ٤٢/٣٦ . — وهذه الصفات الخمسة ، التي يذكرها الشيخ هنا ، هي صفات نفسية لله (على حدّ تعبير القدماء) ، أي هي نعوت وشؤون تشخّص الذات الالهية من حيث هي نفسها : العلم والبقاء ؛ ومن حيث صلتها بالكون : الحكم والقهر والقدرة . وهذا التعداد للصفات يختلف عما هو مألوف في علم الكلام ، وخاصة لدى الأشاعرة ، إذ الصفات النفسية هي : الحياة والعلم والكلام والقدرة والارادة والسمع والبصر . — ثم إن قول الشيخ في نص الفقرة : « والقادر الذي قدّر وكسّب » يومئ إلى التوفيق بين رأي المعتزلة والأشعرية : فالقدرة الالهية هي التي خلقت القدرة في العبد (رأي المعتزلة) وهي التي أعانته على اكتساب الفعل (رأي الاشاعرة) . وقوله اخيرًا : « ولم يَقْدِر » (بفتح الياء وكسر الدال) أي لم يدخل ، وتخطيط يازيد يضبط الكلمة : « لم يُقْدِر » (بضم الياء وكسر الدال) أي لم يعجز .

١ . « والمقدّس في المشاهدة ... الالتفات » . — الرؤية الالهية ثابتة في القرآن (٧٥/ ٢٢—٢٣) وفي السنة (انظر كتاب الشريعة لأبي بكر الآجري ، ص ص ٢٥١—٢٥٩ ط القاهرة ١٩٥٠ ؛ وكتاب الشرح والابانة لابن بطة العكبري ص ٥١ ، ط. المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٨) ؛ ولا يلزم عنها ، كما يقول المعتزلة ، تحديد الله في الزمان والمكان والمادة ، لأن الوجود الالهي من طبيعته الاطلاق التام : أي الوجود لا بشرط شيء ، لا الوجود بشرط لا شيء كما هو شأن الكلّيّ (L'Universel) . — وبخصوص المذاهب أو الآراء الاسلامية المختلفة في هذه المسألة الهامة ، انظر التعليقات القيمة على الترجمة الفرنسية لكتاب « الشرح والابانة » للمقدم ، لاستاذنا الكبير هنري لاوست ،

الوقوف على معرفة ذاته متقبّل[1]. إن خاطب عبده فهو المسمع السميع؛ وإن دُعِيَ ما أمرَ بفعله فهو المطاع المطيع[2]! ولما حيّرتني هذه الحقيقة: أنشدت على حكم الطريقة الخليقة[3]:

الرَّبُّ حَقٌّ وَالْعَبْدُ حَقٌّ ... يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنَ الْمُكَلَّفُ؟
إِنْ قُلْتُ عَبْدٌ فَذَاكَ مَيْتٌ ... أَوْ قُلْتُ رَبٌّ أَنَّى يُكَلَّفُ؟

٣ الحقيقة K : لحقيقة C B ؛ ٤ فذاك C K : فذاك B .

ص ص ٥٠/٣، ٨٩، ١٠٢/٤، ١٠٤، ٣/١٠٧، ٥ . والمصادر العديدة الملحقة ببنده التعليقات .

١ « أنه — سبحانه ! — ... ذاته متقبل » . — هذا الجزء من الفقرة يرسم الخطة الآتية كما هي في صفاتها وفي ذاتها : فالصفات الآتية ليست هي عالية (= علا في صفاته) . أي سامية بمفاهيمها ومعانيها فحسب . بل هي أيضاً فوق كل إدراك عقلي لها . من حيث طبيعتها أو حقيقتها (= وعلى) ؛ وفكرنا القاصر لا يتأمل منها إلا جانباً ضئيلاً في مظاهر الكون والوجود . وكذلك الشأن بالقياس الى الذات الآتية . بل بالأحرى أن تكون كذلك : انها جليلة من حيث هي في نفسها (= وجلّ في ذاته) ؛ وهي فوق كل إجلال وتعظيم صادرين عن الانسان (= وجلى) . — و « حجاب العزّة » الوارد هنا هو تعبير رمزي لفكرة Θεὸς ἄγνωστος : ويذكرنا بقول الاسماعيليين : « يا من لا تتجاسر نجوه الخواطر ! » انظر *Sympathie et Théopathie chez les «Fidèles d'Amour» en Islam*, par H. Corbin, pp. 2-5-213, in *Eranos-Jairbuch* XXIV, 1956.

٢ « إن خاطب ... المطيع » . — هذا في موطن الحب (= التجلّي اللُّطفي الخاص) حيث تتوحّد الأشياء في حضرته : لا في صعيد الخلق (التجلّي الخَلقي العام) حيث يتمايز المخلوق عن خالقه . وبَدَهي . ان « العبد » : في مستوى الحب الالهي : ليس هو انساناً عادياً أو بالعادة ، بل هو انسان كامل بالنعمة ؛ فيه تتمثّل الوحدة الوجودية اللانهائية . حيث كان المظهر الجميل للروح الكلّي : والمرآة الصافية لأنوار الحقيقة المحمدية . وهناك : وهناك فقط : يخاطب الحق نفسه بنفسه في نفسه ؛ وإذ ذاك ؛ وإذ ذاك فحسب : يكون هو المُسمِع السميع : وهو المطاع المطيع ، وهو المحب المحبوب !

٣ « ولما حيرتني هذه الحقيقة » . — هذه هي حيرة الحب ، جامعة المتناقضات ومفرقة المؤتلفات ! البعد فيها عين القرب ؛ والقرب عين البعد ؛ والجحيم لديها هو النعيم ؛ ونعيمها هو العذاب المقيم . حقاً إن حيرة الحب : هذه النعمة العظمى من جانب الرب . لا يُلقّاها إلا الذين ... ولا يُلقّاها إلا كلّ ذي حظ عظيم !

٤ « الرب حق ... أنى يكلّف » . — الحقيقة الوجودية لها جانبان : غَيْبيّ موجب ؛ وهذا هو جانب « الرب » ؛ وظاهري مُوجَب ، وهذا هو جانب « العبد » . وهما ، معاً ، يؤلّفان شطريْ الحقيقة الوجودية : التي لا ثانية فيها من حيث الإيجاد ؛ ومن ثَمَّ كان كلّ منهما — أعني الرب والعبد — في مستواه الخاص ، حقاً . وحقّية الرب ،

(٦) فهو — سبحانه ! — يطبع نفسه : إذا شاء . بخلقه ؛ ويتصف نفسه مما تعيّن عليه : من واجب حقّه . فليس إلاّ أشباح خالية [ورقة ٣ ب] . على عروشها خاوية . وفي ترجيع الصدى . سرّ ما أشرنا اليه لمن اهتدى[1] !

---

١ سبحانه C : سبحنه B K ؛ شاء C : شا K : شآء B ٢ خالية C K : طبعه B ؛ ٣ خاوية C K : خويه B ترجيع C K : رجع B ؛ الصدى C K : الصدا B ‖ ٤ اهتدى C : اهتدا K : اهتدّ B

كما لاحظنا . فيمتنها غيبية إيجابية ؛ وحقية العبد . ظاهرية مُوجَبيّة (إن صح هذا التعبير) . بناءً على هذا : لا يوجد تعارض ؛ أو تزاحم بين حقّية الرب وحقّية العبد في سُلّم القيم ؛ لانهما ليستا من طبيعة واحدة ولا من مستوى واحد . والرب . بما يخص الكائن الانساني ؛ في الحقيقة الوجودية : تدبيران ؛ والعبد : تسمّ : عَبْدان . فالتدبير الأول الرباني . تظهر آثاره في خلق الانسان وتكوينه ونموّه الطبيعيين ؛ والتدبير الثاني . تظهر آثاره في توصيل « كلمته » إليه . وإضفاء رداء القداسة عليه : اي في اختصاصه بالنبوة والرسالة والولاية . أمّا العبد . ففي طوره الأول : أي في صعيد الخَلْق والطبيعة : كمالُه المكتسبُ بعرق الجبين هو إنساني محض . محدودٌ بقابلية قواه وملكاته . ومدى فعاليّته فيما حوله : من مؤثرات اجتماعية وأدبية . بيد أنه في طوره الثاني : أي في مستوى الولاية والقداسة . هو رب إنساني وإنسان رباني : إنه حق عَيْناً : في ظاهر خَلْق حكْماً ؛ وهو خَلْق حكماً . في باطن حق حكماً وعَيْناً !

١ « فهو — سبحانه — ! — ... لمن اهتدى » . — تحمل هذه الفقرة : ذات الصبغة البيانية الرائعة ؛ في مضمونها وفي دلالتها البعيدة : فكرة من أجمل أفكار الشيخ الأكبر وأخطرها في آن واحد . إنها تصور . بأسلوب أخّاذ ؛ تنزيهه بالغناء والخلاص ؛ وهما نظريتان أجنبيتان عن تعاليم الاسلام الساذجة ، في مظهرها التقليدي المألوف ؛ ونجدهما بوضوح في بعض الديانات الوضعية أو السماوية ؛ نذكر من بينها خاصةً التعاليم الهندية والمسيحية . إلاّ أن شيخنا في إبرازه الضمني لهذه الفكرة الجميلة ، يعرضها بشكل مبتكر ؛ وعلى نحو يمتاز بالعمق والإصالة . فالخلاص في نظره ، لا يتحقق بتجسد الألوهية ؛ لدى فترة معينة من التاريخ الزمني ، بصورة أو شخصية بشرية محددة . كما أنه لا يكون بوساطة تناسخ الروح في أطوار الوجود المختلفة والمتعددة . بل الخلاص ؛ في صورته النهائية ؛ يحصل بإطاعة الله — إذا شاء ... — بخلقه وبخلقه ؛ ويحصل ايضاً بإنصاف الله — إذا أراد ... — نفسه بنفسه مما تعيّن عليه من واجب حقه . ولكن كيف يصبح الله مطيعاً ؛ أي كيف ينزل الى هذه الدرجة من الصغار ؛ وهو المطاع الذي إلى ذاته المقدسة تقدّم واجبات الطاعة والتعظيم ؟ وكيف يكون مُحِقّاً (= يقع تحت طائلة القانون ...) وهو المُحِق وصاحب الحق المطلق ؟ هذه هي عُقدة العُقَد في مذهب الشيخ الأكبر ؛ بل في جميع التعاليم ذات « الفكرة الخلاصية » . ومهما يكن في الأمر من شيء ؛ فقد رأينا في الفقرة السابقة أن الانسان الكامل — وهو في آن واحد ، مبدأ

(٧) وأشكره شكر من تحقّق أن بالتكليف ظهر الاسم المعبود ؛ وبوجود حقيقته « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » ظهرت حقيقة الجود . وإلاّ فإذا جعلت الجنة جزاءًا لما عملت . فأين الجود الالهي الذي عقلت؟ فأنت عن العلم بأنك لذاتك موهوب ؛ وعن العلم بأصل نفسك محجوب . فإذا كان ما تطلب به الجزاء ليس لك . فكيف ترى عملك ؟[1]

---

٣ جزاء : جزا K : جزّه B : جزاه C ؛ الاهي : الالهي K : الالاهي B : الاهي C ؛ : بانك : بانك C K : بانك B ؛ لذاتك C K : لذاتك B ؛ نفسك C K : نفسك B ؛ : الجزاء C : الجزا K : الجزّه B ؛ لك C K : لك B ؛ ترى C : ترا K : ترى B . عملت C K : عملك B .

غيبي principe métaphysique وتاريخي — هو المفسّر التام لوحدة الحقيقة الوجودية . ومرآة الصافية التي تسطع على وجهها أنوار الألوهية في تنزلها . وآمال البشرية في ترقيها . وفي الواقع . إذا كانت الحقيقة الوجودية واحدة . فهذه الوحدة . بكل دقة . هي بالقوة في كل شيء . وبالفعل في الانسان الكامل فقط . فليه . وفيه وحده . يطيع الله نفسه — إذا شاء — بخلقه ؛ وفيه . وفيه وحده . ينصف نفسه مما تعيّن عليه من واجب حقه . وحده طبيعة الحب ؛ إن في صورتها البشرية . أو في صورتها الإلهية . بل هي في صورتها الالهية أشد وأبقى !

١ « وأشكره ... ترى عملك » . — ألمع الشيخ الأكبر ؛ ولم يتعمّق ؛ من خلال هذه الفقرة بثلاثة أفكار رئيسية : بفكرة التكليف وفكرة الجود الالهي وأخيراً بفكرة الجزاء . فالتكليف عنده : لأنه يستلزم الخضوع ويتطلّبه ؛ هو الذي أظهر الاسم الالهي المعبود . ولكن ؛ من المكلّفين مَنْ يخضع للأمر ؛ وهؤلاء هم عبيد التكليف وأرقاؤه ؛ ومنهم من يخضع للآمر ؛ وهؤلاء هم الأحرار العتقاء . وكذلك العابدون : منهم من يعبد الله خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه ؛ وهؤلاء هم الزهاد ؛ ومنهم من يعبده حباً في ذاته ؛ وهؤلاء هم الأولياء العرفاء . — ويرى الشيخ أن الصيغة الدينية الشهيرة : « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » ؛ كما تدل على نفي الحول والقوة عما سوى الله ؛ تظهر في الوقت نفسه حقيقة الجود الالهي وتكشف عن معناه . وهذا واضح تماماً . فإنه اذا تلاشت قوة كل كائن مخلوق أمام قوة الخلق الأعظم ؛ واذا امّحى حول كل ممكن إزاء حول واجب الوجود بالذات ؛ وكل ما يبرز في مجالي الكون من مظاهر الخلق والابداع هو تعبير عن الجود الالهي ؛ بل هو الجود نفسه . — ومن معاني « الحول » لغةً : الحيلة ؛ وهو المناسب هذا المقام . بناءً على هذا ؛ تكون القوة في جميع أحوالها وأطوارها ؛ الطبيعية والمستنبطة بالحيلة والتفكر ؛ بيد الله وحده . — وينشأ عن تفسير الجود الالهي على هذا النحو ؛ أن تنتفي فكرة الجزاء ؛ أي الثواب على العمل بالعمل ؛ في نظر الشيخ الأكبر . فالمثوبة على الخير الذي يقوم به الانسان ؛ هو تفضل إلاهي محض ، لا يبرره جهد المرء وحده . ويقدّم الشيخ بين يدي فكرته هذه برهانين اثنين ؛ لا يخلوان من طرافة : أولا ؛ الانسان موهوب لذاته ؛ أي لا يستحق من ذاته ولا لذاته الوجود ؛ ثانياً ؛ هو محجوب عن العلم

(٨) فاترك الأشياء وخالقها . والمرزوقات ورازقها . فهو الواجب – سبحانه ! – الذي لا يسأل . والملك الذي عزّ سلطانه وجلّ ؛ اللطيف بعباده . الخبير . الذي ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1] .

(٢ – تأملات حول الحقيقة المحمدية)

(٩) والصلاة على سرّ العالم ونكته . ومطلب العالم وبغيته : السيد

١ دترك CK : فاترك B || الاشياء : الاشيا K : الأشيآء B || ١–٢ فهو ... سبحانه (سبحنه K) K : فهو سبحنه الواجب B : فهو سبحانه الواجب C || ٢ والملك CK : والملك B || ٣ شيء : شى K : شيء B : شوء C || ٦ والصلاة C : والصلوه K : والصلوة B .

بأحوال نفسه ، أي لا يدري لماذا وجد وعلام وجد وكيف وجد ؟ ويتدهي أن من كانت ذاته ليست له . وهو في الوقت عينه جاهل بأحوال نفسه . أن يكون ما يطلب به المثوبة ليس في الحقيقة له .

١ « فاترك الأشياء ... السميع البصير » . – « اترك الأشياء وخالقها » أي دعها معه . ولا تخلّها عنه مطلقاً ولو لحظة واحدة . إذ معيّة الله للموجودات هي سبب ايجادها وسبب إبقائها ، في آن واحد . وهذه المعيّة ، تارة تظهر في مرتبة الوجود (وهذا هو حكم التجلّي الخلقي العام) ؛ وتارة تظهر في مرتبة كمال الوجود (وهذا هو حكم التجلّي النُطقي الخاص) . – « ليس كمثله شيء ... » سورة الشورى (رقم ٤٢) آية رقم ١١ . ومن المناسب أن يلاحظ ، في هذا المقام ، كيف يفهم ابن عربي وأتباعه هذه الآية : « ليس كمثله شيء » = ظاهرياً . هو نصّ في التنزيه ؛ وباطنياً هو نصّ في التشبيه : لان الكاف والمثل المدرجين هنا ، يؤمنان بالتشبيه ويشعران به .

– « وهو السميع البصير » = ظاهرياً ، هذا نص في التشبيه ؛ وباطنياً هذا نص في التنزيه : لان « هو » – ضمير فصل – رمز الذات المنزهة عن كل شيء ؛ المتعالية فوق كل شيء . – « السميع » = الله ليس فقط متصفاً بصفة السمع : بل هو السميع في كل سامع : حكماً في طور التجلّي الخلقي العام . وعيناً في طور التجلّي النُطقي الخاص (في الانسان الكامل) . – « البصير » = الله ليس فقط متصفاً بصفة البصر ، بل هو البصير في كل مُبصر : حكماً في طور التجلّي الخلقي العام ؛ وعيناً في طور التجلّي النُطقي الخاص (في الانسان الكامل) . – انظر فصوص الحكم لابن عربي ، الفص ، الثالث ، فص نوحي ، وكتاب التجليات الالهية له ايضاً : تجلي سبحان التوحيد ، رقم ٥٩ ؛ ومخطوط كشف الغايات ، لمؤلف مجهول ، مكتبة باريز الوطنية ، رقم ٦٨/٤٨٠١ ألف ، ٩٠ ب ؛ وتعليقات ابن سودكين على التجليات ، مخطوط الفاتح ، رقم ٢١/٥٣٢٢ ألف – ٢١ ب ؛ وكتاب نقد النقود لحيدر الآملي ص ٦٦٣ (ط. المعهد الفرنسي ، طهران ١٩٦٩) .

الصادق . المُدْلِج إلى ربّه الطارق . المُخترَق به السبع الطرائق . ليُريَهُ مِن آياتِه ما أودعَ من الآيات والخلائق . فيما أبدعَ من الخلائق . الذي شاهدته عند إنشائي هذه الخطبة . في عالم حقائق المثال[٢] . في حضرة الجلال[٣] . مكاشفة قلبية . في حضرة غيبية[١] .

---

١ الصادق C : الصديق K : (طمس في B) || ٢ اسرى C : اسرا K : أسري B || به ... : — ب B || الآيات CB : الايات K || واخلائق C : واختايق BK || الخلائق C : الخلايق BK || ٣ الذي شاهدته عند C K : (طمس في B) || الثاني C : الثاني B : الشي K || هذه C K : هذه B || حقائق C : حقيق BK || ؛ مكاشفة ... غيبية ... : (كتبت هذه الجملة في أسفل BK بالقلم العريض وعلى سطر مستقل بمفرده مما يشعر بأنها جملة لا يأتي من الكلام) .

---

١ « والصلاة على ... حضرة غيبية » . — هذه الصفات والخصائص المعنوية المنسوبة الى النبي محمد . في هذه الفقرة . هي مطلقة عليه من حيث كونه . في نظر الشيخ الأكبر . إنساناً كاملاً . أي مظهراً من مظاهر الروح الكلي أو العقل الأول (= الحقيقة المحمدية) في تجليه المطرد عبر الزمان : في أشخاص الأنبياء والأولياء . بعض هذه الصفات والخصائص تدل مباشرة على شؤون الروح الكلّي كما هو في طبيعته الأصلية : أي بقطع النظر عن كل علاقة خارجية له في صورة الانسان الكامل : سرّ العالَم . نكتة العالم . وطلب العالم . بغية العالم . والبعض الآخر . ذو دلالة تاريخية معينة : إمّا على شخصية النبي الذاتية : السيد الصادق ؛ أو على أحواله الروحية : المُدلِج إلى ربه (اي السائر ليلاً اليه) ؛ الطارق (اي كوكب الصبح ؛ وانظر القرآن سورة الطارق ٨٦/١-٣) ؛ المخترق به السبع الطرائق (اشارة الى ظاهرة الاسراء والمعراج للنبي محمد ؛ قبيل هجرته الى المدينة) .

٢ « عالم حقائق المثال » هو إحدى الحضرات الوجودية الخمسة ؛ تظهر فيه الأشياء بين الروحية المحضة والمادية الصرفة : تتجسّد فيه الأرواح وتتحرّض الأجساد ؛ انه عالم حقيقي ؛ وسط بين عالم الغيب والشهادة . وهناك ما يسمّى ، في عرف الصوفية المتأخرين ؛ بعالم المثال المطلق او المنفصل : وهو هذا ؛ وعالم المثال المتصل أو المقيد : وهو عالم المخيلة الانسانية ؛ الذي هو أيضاً وسط بين الفكر والحس بالقياس الى الانسان. انظر فصوص الحكم لابن عربي وتعليقات عفيفي ٢/٧٤-٧٥ : ٧٧ : ١٠٥ ؛ وتعليقاتنا على كتاب « كشف الغايات » ؛ مجلة المشرق ، عدد تموز — تشرين اول ١٩٦٦ : ص ٥٠٤ وعدد كانون الثاني — شباط ١٩٦٧ ص ٥٣ . وبخصوص الجذور الفلسفية التاريخية لهذه الفكرة الهامة : ومظاهرها عند الفلاسفة المسلمين ؛ انظر « *Mundus imaginalis ou l'imagination et l'imaginal* de H. Corbin, in « *Cahiers Internationaux de symbolisme* », n° 6, 1964, pp. 3-26.

٣ « في حضرة الجلال » . — يقول الشيخ الأكبر في مقدمة كتابه : « الجلال والجمال » : « ان الجلال والجمال مما اعتنى بهما المحققون العالمون بالله من أهل التصوف . وكل واحد

(١٠) [1]ونحن شهدنا ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ في ذلك العالم، سيداً معصوم [ورقة ٤ ألف] المقاصد، محفوظ المشاهد، منصوراً، مؤيداً. ـ وجميع الرسل بين يديه مصطفون. وأمته «التي هي خير أمة» عليه ملتفون؛ وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافون. والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صافون.[1]

١ في ... العلم ... : (ولكن في أصلي B K هذه الجملة ثابتة على الهامش بقلم الأصل) || ذلك C K : ذلك B || ٢ مؤيداً C B : موبداً K || ؛ وملائكة C : وملايكه K : وملئكة B || ؛ وملائكة C : وملايكه K : والملايكه C : والملائكة C : والملايكه K : والمليكة B .

(منهم) نطق فيها بما يرجع الى حاله. وان أكثرهم جعلوا الانس بالجمال مربوطاً؛ والهيبة بالجلال منوطة. وليس الأمر كما قالوه. وهو أيضاً كما قالوه بوجه ما. وذلك ان الجلال والجمال وصفان لله ـ تعالى ! ـ والهية والانس وصفان للانسان. فاذا شاهدت حقائق العارفين الجلال هابت وانقبضت؛ واذا شاهدت الجمال أنست وانبسطت. فجعلوا الجلال للقبض. والجمال للراحة. وحكموا في ذلك بما وجدوه في أنفسهم. وأريد ـ إن شاء الله ! أن أبين عن هاتين الحقيقتين (...) إن الجلال (...) معنى يرجع منه إليه (أي من الله إلى الله) ؛ وهو الذي منعنا من المعرفة به (...). والجمال (هو) معنى يرجع منه (أي من الله) إلينا. وهو الذي أعطانا هذه المعرفة التي عندنا به؛ والتنزيلات والمشاهدات والأحوال. وله فينا آثاران : الهية والأنس. وذلك لأن هذا الجمال علواً ودنواً، فالعلو نسبه جلال الجمال؛ وفيه يتكلم العارفون؛ وهو الذي يتجلى لهم (...)؛. وانظر ايضاً لطائف الأعلام؛ مخطوط جامعة أسطنبول ٥٥٢٣/٦٢ الف ـ ٦٣ الف. ـ هذا؛ وتفسير الجلال والجمال على هذا النحو يذكرنا من بعيد بنظرية انباذقليس (Empédocle) في الحب والنهر؛ كما عرفها الاسلاميون ونقلوها عنه؛ راجع كتاب الملل والنحل للشهرستاني ٢/٢٦١؛ ط. كرتون (Cureton).

١ «ونحن شهدنا ... صافون». ـ «خير أمة» اشارة إلى الآية رقم ١١٠ من سورة آل عمران (٣). ـ «وملائكة التسخير»؛ هؤلاء طبقة خاصة من الملائكة؛ منوط بهم أمر الله المنزل بين السماء والأرض، رأسهم القلم الأعلى؛ سلطان عالم التدوين والتسطير (فتوحات ٢/٢٥٠ـ٢٥٢ ورسالة في الأرواح لابن عربي، مخطوط الظاهرية رقم ٥٤٣٣/ ٢٤١ ب ـ ٢٤٢ الف)؛ وهذه الطبقة من الملائكة تقابل العقول العشرة في فلسفة ابن سينا. ـ «والملائكة المولدة من الأعمال»؛ يقول الشيخ في فتوحاته المكية: «لله ملائكة في الأرض سياحون فيها؛ يتبعون مجالس الذكر. فاذا وجدوا مجلس ذكر نادى بعضهم بعضاً: هلموا إلى بغيتكم ! وهم الملائكة الذين خلقهم من أنفاس بني آدم» (٢/٢٥٦). وفي موضع آخر: «ولقد رأيته ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ في مبشرة وهو يقول: يا ساكني هذا البيت؛ لا تمنعوا أحداً طاف به وصلى (...) فان الله سيخلق له من صلاته ملكاً يستغفر له» (٢/٢٥٤). وأصل هذه الفكرة حديث أبي هريرة؛ المتفق عليه: ان لله ملائكة سياحين في الدنيا، سوى ملائكة الخلق (هل هم ملائكة التسخير ؟) إذا رأوا

(١١) [1]والصدّيق على يمينه الأنفس ؛ والفاروق[2] على يساره الأقدس ؛ وختمٌ[3] بين يديه قد جثّى . يخبره بحديث الأنثى ؛ وعليّ — صلّى الله عليه وسلّم ! — يترجم عن الختم بلسانه ؛ وذو النورين مشتمل بردائه حيائه. مقبلٌ على شانه[1] .

---

٣ بردائه C : برداه K ؛ بردة B . حيائه C : حيائه K : حيبه B

مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً : ألا هلموا إلى بغيتكم ! . (الاحياء للغزالي ٢/٣٤ . القاهرة : مطبعة الاستقامة . بدون تاريخ) . — هذا . وللفظتي « حافّون » و « صافّون » الواردتين في هذه الفقرة . مما من اوصاف الملائكة في القرآن ٣٩/٧٥ (حافين) و ٣٧/١٦٥ (صافون) .

١ « والصديق على يمينه ... مقبل على شانه » . — « الصدّيق » هو نعت الخليفة الأول . أبي بكر ؛ وبخصوص أصل هذه التسمية والخلاف بين أهل السنة والشيعة في اطلاقها على أبي بكر . يراجع كتاب « منهاج السنة » لابن تيمية ٢/١٧٤ . القاهرة ١٣٢١ ؛ ويراجع في المصادر الاستشراقية : *Essai sur Ibn Taimiya*, p. 220, le Caire, 1939 (P.I.F.A.O.) de H. Laoust ; E.I. I, دائرة المعارف الاسلامية (2) 112 ; IV, 148.

٢ « الفاروق » : نعت الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ؛ وبخصوص هذه التسمية ايضاً . والخلاف بين أهل السنة والشيعة في اطلاقها على الخليفة عمر : يراجع . *Essai sur Ibn Taimiya*. 210-212 ; E.I. دائرة المعارف الاسلامية III, 1050-1052.

٣ « والختم » : هو على ما يبدو هنا عيسى بن مريم ؛ إذ هو . في نظر الشيخ الاكبر : خاتم الولاية العامة . انظر تفصيل هذه المسألة العامّة وخلاف الشيعة فيها . في كتاب « نص النصوص في شرح الفصوص » لحيدر الآملي : مخطوط جار الله : اسطنبول . رقم ١٤٧٠/٣٦ ب—٥٨ ب ؛ وكتاب « جامع الأسرار ومنبع الأنوار » لنفس المؤلف : ص ص ٣٩٥—٤٤٢ : المعهد الفرنسي بطهران ١٩٦٩ . — « بحديث الأنثى » : هل المراد بالأنثى هنا مريم العذراء ، التي اصطفاها الله وفضّلها على نساء العالمين : بأن أرسل اليها الروح ليهبها الروح ؟ أو المراد بالانثى هنا فاطمة البتول ، « أم أبيها » و « أصل الإمامة » ؟ على كل حال ، كلتاهما مثل الأنثى الأكمل ؛ لأنهما حجتان لله على الناس وآيتان باقيتان أبد الآبدين . « وعلي (...) يترجم عن الختم بلسانه . المعروف عند الشيعة ان الامام علي هو ختم الولاية العامة المطلقة ؛ والمهدي القائم آخر الزمان هو خاتم الولاية الخاصة . والشيخ الأكبر يصرّح هنا بأن علياً ليس هو الختم ولكن ترجمانه ؛ كما يصرّح ايضاً في غير موضع من الفتوحات بأن عيسى بن مريم هو ختم الولاية العامة (٢/٩ : ٤٩ : ٥٠ : ٣/٤٠٠ : ٤/٧٦ : ١٩٥) . — يراجع تفصيل ذلك كله ومناقشته في كتابيّ نص النصوص وجامع الأسرار المتقدمين ؛ نفس المواضع المذكورة سابقاً . — ويلاحظ في هذا المقام أن ابن عربي حين ذكر أبا بكر وعمر وعيسى بن مريم لم يذكرهم إلاّ بألقابهم الخاصة ؛ دون التصريح بأسمائهم ؛ في حين أنه لما تعرّض لذكر علي

(١٢) [1]فالتفت السيد الأعلى : والمورد العذب الأحلى : والنور الأكشف الأجلى . فرآني وراء الختم . لاشتراك بيني وبينه في الحكم . فقال له السيد : هذا عديلك وابنك وخليلك ! انصب له منبر الطَّرْفاء بين يديَّ . ثم أشار إليَّ : أن قم — يا محمد ! — عليه ، فأثن على مَن أرسلني وعليَّ . فإن

١ الأعز CB : الاعلا K || الأحل CB : الاحلا K || الأحلى CB : الاجلا K ؛ ٢ فرآني C : فرأني B : فرآني K || وراء C : وراء K : ورا B || لاشتراك CK : لاشتراك B || ٣ عديلك ... وخليلك CK : عديلك وابنك وخليلك B || انصب C : انصرفا K : انصرفا B .

ذكره باسمه ووظيفته : «يترجم عن الختم» كما أنه أردف ذكر اسمه بالصيغة الدينية «صلى الله عليه وسلم» المستعملة عند الشيعة . — «وذو النورين» : هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان . انظر اصل هذه التسمية في المراجع الاستشراقية : *Essai sur Ibn Taimiya*, pp. 212-213 ; *E.I.* (دائرة المعارف الاسلامية) III, 1077-1080. — هذا . وتأخير عثمان في الذكر عن عليّ يشعر بأفضلية الخليفة الرابع على الخليفة الثالث : وترجيحه عليه من جهة استحقاق الخلافة ، عند ابن عربي . وهذه مسألة مختلف فيها بين علماء اهل السنة ؛ والمشهور لديهم أن الأفضلية بين الخلفاء الأربعة يتبع ترتيبهم الزمني : ابو بكر فعمر فعثمان فعلي . يراجع ذلك في كتاب «الشرح والابانة» لابن بطة العكبري ص ٦١ (نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٥٨) ويراجع خاصة تعليق الأستاذ الكبير هنري لاووست على الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب : ص ص ١١٥—١١٦ .

١ «فالتفت السيد ... الملأ الأعلى وحده» . — المورد العذب والنور الأكشف : وصفان رئيسيان للعقل الأول (= الحقيقة المحمدية) يتجلى أثرهما في الحياة المادية وفي الحياة الروحية ، اذ هما المصدران المباشران لكل ذي حياة وكل ذي وجود ، إن في عالم المادة أو في عالم الروح . — «لاشتراك بيني وبينه في الحكم» : أي في حكم الولاية . إذ يعتبر ابن عربي نفسه خاتم الولاية الخاصة ، كما أن المسيح هو خاتم الولاية العامة : انظر الفتوحات المكية ١/١٥١ (ضمناً) ، ١٨٥ (ضمناً) ؛ ٢٤٤ (صراحة) ؛ ٣١٨—٣١٩ (صراحة) ؛ ٦٧٧ (صراحة) ؛ ٧٢٣ (صراحة) ؛ ٢/٤١ (ضمناً) ؛ ٤٩ (ضمناً) ؛ ٣/٤١-٨٤ ، ٣٢٩-٥١٤ ؛ ٤/٧٦ : ٤٤٢ . — «هذا عديلك» : ابن عربي عديل المسيح لكونه خاتم الولاية الخاصة ، كما ان المسيح خاتم الولاية العامة ؛ — «وابنك وحبيبك» يقول ابن عربي في الفتوحات ، بشأن الصلة بينه وبين المسيح : «وكان له (اي لعيسى ابن مريم) نظر الينا في دخولنا في هذا الطريق التي نحن اليوم عليها» (١/١٥٥ ص ص. ٢٦—٢٧) ؛ — «كنتُ كثير الاجتماع به (أي بعيسى بن مريم) في الوقائع ، وعلى يده تبتُ ، ودعا لي بالثبات على الدين في الحياة الدنيا والآخرة ، ودعاني بالحبيب ، وأمرني بالزهد» (٢/٤٩ ص ص ٣٢—٣٣) . — «منبر الطَّرْفاء» : الطرفاء شجر ، الواحدة منها تسمى طَرْفَة (وقال سيبويه : الطرفاء واحد وجمع) . والطَّرْفة شجيرة تنبت في المستنقعات وقريباً من الشواطئ ؛ ذات اوراق خضر داكنة ، صغيرة جداً ؛

فيك شعرة منّي[1]. لا صبر لها عنّي. هي السلطانة في ذاتيتك. فلا ترجع إليّ إلاّ بكينونتك. ولا بدّ لها من الرجوع إلى النقاء. فإنها ليست من عالم الشقاء. فما كان منّي. بعد بعلي. شيء في شيء إلاّ سعيد. وكان ممّن شكر في الملأ الأعلى وحمد.

(١٣) فنصب الختم المنير. في ذلك المشهد الأخضر. وعلى جبهة منبر مكتوب بالنور الأزرق: هذا هو المقام المحمدي الأطهر[2]! من

١ بيت C K : فيك B ؛ ذاتيتك C K : ذاتيتك B ٢ بكينونتك C K : بكينيتك B ؛ النقاء C : النقاء K : النقاء B ؛ ٣ النقاء C : نقاء K : النقاء B ؛ شيء : شيء K : شيء B : شيء C ؛ النلا C : النلا K : النلاء B ؛ الأعلى C : الأعلى B : الاعلا K ؛ ٤ ذلك C : ذلك B K.

وقشرها يستعمل في العلاج الطبّي ؛ وثمرها مرّ الصحراء (انظر لسان العرب وتاج العروس : مادة ط. ر. ف.) وباسم هذه الشجرة سمي الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد.

١ «فإنّ فيك شعرةً منّي» : انظر الفتوحات المكية ١/٢٣٠ ؛ وفي كتاب التجليات الإلهية (تجلّي النور الأخضر. رقم ٧٢) يعتبر ابن عربي نفسه بأنّه «الصهر المكرّم» ؛ وفي كتاب عنقاء مغرب. فصل عنوانه : «نكاح عقد وعرس شهد» يقرر أيضاً هذه الصلة المادية بينه وبين النبي محمد (وانظر أيضاً كشف الغايات. المنشور في مجلة المشرق : عدد أيار — حزيران ١٩٦٧ ص ٢٩٩). ومهما يكن في الأمر. فان «الشعرة النبوية» هنا في الفتوحات المكية : «والنكاح المعقود والعرس المشهود» في كتاب عنقاء مغرب : جميع هذا : في نظرنا : هو رمز للتعبير عن فكرة «الزواج المحمدية». أي الصلات المعنوية والمادية للعقل الأول (= الحقيقة المحمدية). المنتشرة في عالمي الآفاق والأنفس : والتي هي مصدر الكون والوجود والمعرفة والشهود. يراجع تفصيل ذلك كله والمصادر التاريخية والفلسفية لهذه المسألة الهامة : عند الشيعة وغير الشيعة في دائرة المعارف الاسلامية : مقالة النور المحمدي : المجلد الثالث. ص ص ١٠٢٧—١٠٢٨ (النص الفرنسي).

٢ «فنصب الختم ... وعرفنا ما عرف». — «المقام المحمدي الأطهر» : أعلى المقامات ؛ مقام الابعاد التام ؛ يفنى فيه من لم يكن ويبقى من لم يزل ؛ إنه مقام رؤية العين في الأين بلا أين ؛ أي رؤية الحق في المظهر ؛ حالة رؤيته منزهاً عن المظهر (عن لطايف الأعلام ؛ بتصرّف ؛ مخطوط جامعة اسطنبول ٢٣٥٥/٢٣ الف — ٢٣ ب). — «من رآني فيه فقد رآه». في العوالم الشيعية ؛ بوجه عام ؛ الولاية المحمدية تتعلق مباشرة بمقام النبوة الباطنة (= مقام الولاية) لا بمقام النبوة الظاهرة (= مقام الرسالة ، رسالة التشريع) وهذه الوراثة هي خاصة بالائمة الأطهار أصالة ؛ وبالكمّل من المؤمنين تبعاً. والصوفية متفقون مع الشيعة بفكرة وراثة المقام المحمدي من حيث ولايته لا من حيث رسالته ؛ ولكنهم لا يميزون بين الوراثة الأصلية والتبعية. ومن المهم أن يلاحظ ان المقام المحمدي والعلم الإلهي ؛ عند الشيعة والصوفية ؛ يتقابلان ويكمّلان المقام الانساني والعلم

رَقِيَ فيه فقد وَرِثَه. وأرسله الحق حافظاً لحرمة الشريعة وبعثه ــ. ووُهِبتُ في ذلك الوقت مواهب الحِكَم. حتى كأنني «أوتيت جوامع الكلم». فشكرت الله ــ عزّ وجلّ! ــ وصعدت أعلاه. وجَعَلْتُ في موضع وقوفه ــ صلّى الله عليه وسلّم! ــ وسُتواه. وبُسط لي على الدرجة التي أنا فيها كُمّ قميص أبيض: فوقفت عليه. حتى لا أباشر الموضع الذي باشره ــ صلّى الله عليه وسلّم! ــ بقَدَمَيْه. تنزيهاً له وتشريفاً. وتنبيهاً لنا وتعريفاً: أن المقام الذي شاهده من ربه. لا يُشاهده الوَرَثَةُ إلاّ من وراء ثوبه[2]. ولولا ذلك لكشفنا ما كَشَف. وعَرَّفنا ما عَرَّف.

٢ ذلك C : ذلك B K || كأني C : كاني K : كأني B || ؛ الدرجة C B : (الجيم مهملة في K) || ٥ قميص C B : (الياء ساقطة في K) || أبيض C B : (الياء مهملة في K والياء ساقطة) || ٦ تنزيها C B : تنزها K || وتنبيها C B : وتنبيا K || ٨ وراء C : وراه B K || ذلك C : ذلك B K.

الكسبي: عند الفلاسفة وأهل النظر. فهناك إذن مقام نبوي وعلم إرثي. أساسها الايمان والايقان (او الاسلام والايمان والاحسان عند الصوفية)؛ كما ان هناك أيضاً مقاماً إنسانياً (أو كمالاً انسانياً) وعلماً كسبياً، أساسها الجد والاجتهاد والتحصيل. يراجع تفصيل ذلك في كتاب «جامع الاسرار ومنبع الانوار» لحيدر الآملي. ط. المعهد الفرنسي بطهران ١٩٦٩؛ ص ص ٤٧٢–٥٨٦؛ وتاريخ الفلسفة الاسلامية لهنري كربن. ص ص ٧٦–١١٥ (ترجمة عربية: بيروت ١٩٦٦، النص الفرنسي: ٥٣–٩٢؛ باريز ١٩٦٤)؛ يراجع كذلك: *De la philosophie prophétique en Islam Shi'ite*, par H. Corbin, in *Eranos-Jahrbuch*, XXXI, pp. 80-97.

١ «أوتيت جوامع الكلم»: من خصائص النبي محمد؛ انظر كتاب الشريعة للآجري: ص ٤٩٨ (ط. القاهرة ١٩٥٠)؛ والفتوحات المكية ٢/٥٨: ٨٧؛ وكشف الغايات: مجلة المشرق، تموز–تشرين اول ١٩٦٦ ص ص ٤٣٣–٤٥٥؛ وجامع الأسرار: ص ص ٢٩٤: ٣٥٦. ــ «كم قميص أبيض أبيضُ»: ورد في القرآن أن «قميص» يوسف حين ذهب به إخوته فألقوه على وجه أبيه يعقوب: ارتد بصيرًا (سورة يوسف ١٢/٩٢–٩٥). ــ «فوقفت عليه ... يقلعيه»: يقارن هذا النص بما جاء في كتاب بدو الشأن للحكيم الترمذي «إذ رأيت فيما يرى النائم كأني أرى رسول الله (...) دخل المسجد (...) فأدخل على أثره. فالزم اقتفاء أثره (...) وأضع خطاي على ذلك الموضع الذي يخطو (...) فرقي المنبر، فرقيت على أثره (...) حتى إذا استوى إلى أعلاها درجة قعد عليها. فقعدت عند الدرجة الثانية» (ختم الأولياء: ص ١٦؛ نشر المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٥). ــ

٢ «من وراء ثوبه»: الثوب أو الرداء: في عرف الصوفية، رمز للظهور بصفات الحق بالحق. وهناك ما يسمونه بالثوب الذاتي، والثوب السابغ: وثوب ظاهر الوجود،

(١٤) [1]ألا ترى مَن تَقفو أثره لتعلم خبَرَه؟ (فأنت) لا تشاهد من طريق سلوكه ما شَهِد منه ؛ ولا تعرف كيف تخبر بسلب الأوصاف عنه . فإنه شاهدَ . مثلاً ، تراباً مستوياً لا صفة له ؛ فمشى عليه . وأنت . على إثره : لا تشاهد إلاّ أثرَ قدَميه . — وهنا سرّ خفيّ . إن بحثت عليه وصلت إليه : وهو من أجل أنّه إمام ؛ وقد حصل له الأمام ؛ لا يشاهد أثرًا ولا يعرفه . فقد كشفت ما لا يكشفه — . وهذا المقام قد ظهر في إنكار موسى[2] — صلّى الله على سيدنا وعليه ! — على الخضر[1] .

=

١ تعلم C K : تعرف B ‖ = لا يشاهد C K : لا يشهد B ‖ ٧ صلى ... وعليه C K : صلى الله عليه وسلم B ‖ على الخضر C K : وعلى الخضر B .

والثوب الذي لا يرى : والثوب المعار ؛ يراجع كشف الغايات ؛ المنشور بمجلة المشرق — عامي ١٩٦٦ — ١٩٦٧ — ف ف ١٩ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ٢٨٩ ، ٣٢٩ ، ٣٩٣ ؛ وبخصوص رؤية الرداء . يراجع كذلك نفس الكتاب ف ١٠٥ ؛ ورسالة إعلام الشهود ؛ مؤلف مجهول ؛ مخطوط دار الكتب الوطنية بباريز ؛ رقم ٣٣٨/٤٨٠١ ألف — ٣٣٩ ألف ؛ والفتوحات المكية ١/٦٤ ، ٢/١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٩ ، ٤/٤٤ ؛ ولطايف الإعلام . مخطوط جامعة اسطنبول ؛ رقم ٨٢/٢٣٥٥ ب .

١ «ألا ترى من تقفو ... على الخضر» . — الفكرة المعروضة في هذه الفقرة ؛ على نحو واقعي وتجريبي ؛ أساسها نظرية الشيخ العامة في التمييز بين الحق والأمر . وبالتالي التمييز بين العبادة الذاتية والعبادة الشرعية . وقد أوضح هذه النظرية في كتابه «التجليات الالهية» بأسلوب رمزي خاص . فلنستمع اليه : «لله رجال كشف عن قلوبهم فلاحظوا جلاله المطلق . فأعطاهم بذاته ما يستحقه من الآداب والاجلال . فهم القائمون بحق الله لا بأمره . وهو مقام جليل لا يناله إلاّ الأفراد من الرجال (...) فهؤلاء (أي الأفراد) خصائص الله ؛ قاموا بعبادة الله على حق الله . وهم الخارجون عن الأمر . — ولله عبيد قائمون بأمر الله ، كالملائكة المسخّرة الذين يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ وكالمؤمنين الذين ما حصل لهم هذا المقام (اي مقام تجلّي الحق) . فهم القائمون بأمر الله: وهم القائمون بحقوق العبودية . وهاؤلاك (أي اهل تجلّي الحق) هم القائمون بحقوق الربوبية. فهؤلاء (أي عبيد الأمر) محتاجون إلى أمر يتصرّفهم . وهاؤلاك (اي رجال الحق) يتصرّفون بالذات تصرّف الخاصية» (تجلي الحق والأمر ، رقم ٥٣) ؛ وانظر كشف الغايات ؛ المنشور بمجلة المشرق ؛ عدد آذار — نيسان ١٩٦٧ ص ص ١٧٩—١٨٣ ؛ وانظر تعليقات ابن سودكين على التجليات ؛ المنشور في نفس المجلة ونفس العدد ونفس الصفحات ؛ يراجع أيضاً كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذي ، ص ص ١١٧—١٤١ (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٥) .

٢ «وهذا المقام قد ظهر في إنكار موسى (...) على الخضر» : انظر سورة الكهف ١٨/٥٩—٨١ .

(١٥) [1]قال العبد : فلما وقفت ذلك الموقف الأسنى : بين يدَيّ من كان من ربه في ليلة إسرائه «قاب قوسين أو أدنى»: قمت مقنّعاً[2] خجلاً: ثم أُيّدت بروح القدس فانتحت مرتجلاً [ورقة ٥ ألف] :

يـا مُنْزِلَ الآيات والأنباء[3] أَنْزِلْ عَلَيَّ مَعَالِمَ الأَسْمَاءِ

١ قال العبد B : — CK || ذلك C : ذلك BK || ٢ اسرائه C : اسرآه K : الاسرآء B || ٣ الآيت CB : الايات K || والأنباء C : والانبآء BK : الاسمآء C : الاسمآء BK .

١ «قال العبد ... بغير شراء». — «قابَ قَوْسَيْنِ»: تعبير قرآني (سورة النجم ٨/٥٣) ؛ وهو بالمعنى أو التأويل الصوفي : ملتقى طرفي الامكان والوجوب في دائرة الوجود : طرف الامكان في ترقيه ، وطرف الوجوب في تدليه ؛ — ملتقى ولقاء يجمع بَيْنَهما ويرفع بَيْنَهما ... «أو أدنى» : تعبير قرآني أيضاً (سورة النجم ٨/٥٣) ؛ وبالتأويل الصوفي هو استغراق طرف الامكان في طرف الوجوب في مستوى الشهود ؛ فيه يفنى الثاني ويبقى الباقي . انظر لطايف الاعلام : مخطوط جامعة اسطنبول ٢٣٥٥/ ١٣٨ ألف ؛ وجامع الاسرار لحيدر الآملي ص ص ١١٨ : ٢٨٧ : ٣٩٣ : ٢٩٤ . ٦٠٥ (نشر المعهد الفرنسي : طهران ١٩٦٩) ؛ ونقد النقود ، للآملي ايضاً : ص ٦٩٤ (نشر المعهد الفرنسي بطهران ١٩٦٩) ؛ وانظر أيضاً ملاحظات الاستاذ الكبير . الطيب الذكر ، المأسوف عليه استاذنا لويز ماسينيون ، حول هذا الموضوع ، في كتابه الخالد : *al-Hallaj, martyr mystique de l'Islam*, pp. 849-853, Paris, 1922.

٢ «قمت مُقْنِعاً» : أي خاشعاً ، مطرق الرأس ، وهي في القرآن ، جمعاً (١٤/٤٣) .

٣ «يا منزل الآيات والأنباء» . — ورد في القرآن إنزال الآيات (٢/٩٩؛ ٢٤/١ . ٣٤ : ٤٦ الخ) . ولكن لم يرد فيه إنزال الأنباء ، بل : «ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك» (٣/٤٤ ؛ ١٢/١٠٢) و «تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك» (١١/٤٩) . ومهما يكن في الأمر ، فان إنزال الآيات والأنباء يدل على معنى خاص وكيفية خاصة في توصيل الوحي والعلم الالهيين الى من هما موجهان اليه . وهذا المعنى وتلك الكيفية هي بكل دقة الفرق بين مدلول : أوحى الله آياته ، أو علّم آياته ، فالوحي والتعليم هما من قبيل الظواهر والأحداث المعنوية ؛ أما الإنزال او التنزيل فهما من قبيل الظواهر والأحداث المادية الحسية المكانية . — «معالم الأسماء» : المعالم : جمع مَعْلَم : هي الآثار او العلامات التي يستدل بها في الطريق على الطريق . فمعالم الأسماء هي ما يهتدي بها السائر في طريق الحق الى الحق من آثار أفقية او نفسية او غيبية . وجماع هذه المعالم ، أي سبيل السبل الى الحق ، هو الصراط المستقيم : الذي بدايته الحق ، ونهايته الحق ، وفيما بينهما الحق . وهذا الصراط الخاص ، جماع معالم الأسماء الالهية كلها ، هو تاريخياً وواقعياً احدى الربانيّ ، المحفوظ في الوحي المنزّل ، المجسّد في شخص رسوله المرسل ، المرئي بعين القلب والايمان ، في كل مكان وزمان .

حَتَّى أَكُونَ لِحَمْدِ ذَاتِكَ جَامِعًا بِمَحَامِدِ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ[1]

ثم أشرت إليه – صلى الله عليه وسلم ! –

وَيَكُونُ هٰذَا السَّيِّدُ العَلَمُ الَّذِي جَرَّدْتَهُ مِن دَوْرَةِ الخُلَفَاءِ[2]

---

١ ذاتك C : ذاتك K ؛ السرا وضرا C : السرا والضرا BK || ٣ الخلفا C : خلفا BK (الحمد لله ك K).

---

١ «حتى أكون لحمد ذاتك ... والضراء» . – الحمد في عرف الصوفية هو تعريف من كل حامد لكل محمود بنعوت الكمال بأيّ لسان . وحمد الذات . المتحقق به هو المتحقق بحمد الحامد ؛ وهو حمد الحق نفسه بالانسان الكامل ؛ وحمد الانسان الكامل نفسه بالحق . حالة وقوع قلبه موقع تمانع الأضداد وتنزهه عن التأثر بها مطلقاً . تماماً كالذات المطلقة التي لا تقيدها كثرة الأسماء ولا تعدد الصفات . فالانسان الكامل . في تحققه بحمد الذات . الذي هو حمد الحامد . يكون في غاية الصحو : يرى كل كمال ظهر من الحق وشؤونه . ومن الحق في أحوالهم وأخلاقهم وتصرفاتهم ؛ بنفس ظهوره فيما ظهر فيه حامداً ومعرِّفاً للذات التي لها السوائية بأحدية جمعيها الى الكل . (انظر كشف الغايات . المنشور بمجلة المشرق . عدد تموز – تشرين اول ١٩٦٦ ؛ ص ٤٨٢) .

٢ «ويكون ... الخلفاء» . – العَلَم : العلامة والجبل والراية . والنبي محمد ؛ في الفكر الاسلامي عموماً . هو عَلَم النبوّة . أي : رايتها وعلامتها وقمة جبلها . لأن به ختمت دائرتها : محمد خاتم النبيين . هذه هي عقيدة المسلمين كلهم . ولكن الشيعة والصوفية يرون ان ختم دائرة النبوة بمحمد إنما هو خاص بجانبها التشريعي الظاهر لا بجانبها الروحي الباطن (= الولاية) ؛ بناءً على هذا . النبوة الباطنية الروحية (= الولاية) هي مستمرة في شخص الأئمة والأولياء إلى يوم القيامة . يراجع تفصيل ذلك في كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذي ؛ ص ص ٣٢٧ – ٤٢٢ ؛ وكشف المحجوب للهجويري ، ص ص ٢١٠ – ٢٤١ (الترجمة الانكليزية) ؛ وبهجة النظائف لعمار البدليسي ؛ مخطوط برلين ٢٨٤٢/ ٤١ ب – ٤٤ الف ؛ وفواتح الجمال وفواتح الجلال لنجم الدين كبري ، ص ص ٨٢– ٨٧ (تحقيق فريتز ماير : المانيا ١٩٥٧) ؛ والفتوحات المكية لابن عربي ٢/٣ : ٢٤– ٢٥ ؛ ولطائف الأعلام ؛ مخطوط جامعة اسطنبول ١٦٨/٢٣٥٥ الف . اما التحليل النقدي لهذه الفكرة فيراجع في : *Face de Dieu et Face de l'Homme*, in *Eranos-Jahrbuch*, XXXVI, pp. 165-228, de H. Corbin. – هذا ؛ و «دورة الخلفاء» هي دورة الأنبياء المؤيدين بالكتاب والملك والسيف ؛ ودونهم أولوا العزم من الأنبياء ، وهم المؤيدون بالملك والكتاب لا السيف ؛ ودون هؤلاء الرسل ، وهم الأنبياء المأمورون بتبليغ الوحي الالهي الى غيرهم . يراجع كتاب كشف الغايات ؛ المنشور بمجلة المشرق ؛ عدد كانون الثاني – شباط ١٩٦٧ ، ص ص ٣٢–٣٣ .

وَجَعَلْتَـهُ الأَصـلَ الكريمَ[1] وَآدَمٌ ما بينَ «طينـةِ خَلْقِهِ وإنـاءِ»[2]
وَنَقَلْتَه حتى استدارَ زَمانُهُ[3] وَعَطَفْتَ آخِرَهُ عَلى الإبـداءِ
وَأَقَمْتَه عبدًا ذليلًا خاضعًا دَهْرًا يُناجيكم بِغارِ حِراءِ[4]

١ وآدم CB : وادم K || والله C : والآ BK || ٢ آخره CB : اخره K || الابداء C : الابدآ BK || ٣ حراء C : حرآء BK .

١ «وجعلته الأصل الكريم» : الأصل الكريم والأصل الشامل والأصل الجامع أسماء متعددة ومسمّاها واحد وهو العقل الكلّي (= الحقيقة المحمدية). وهي له خصائص ونعوت من حيث هو ؛ أي العقل الكلّي. مصدر كل نسبة الهية ؛ ومبدأ كل صفة خارجية. وليس بعد حضرة العقل الكلّي إلاّ حضرة الغيب المطلق وحضرة غيب الغيوب. لطائف الاعلام (بتصرف) مخطوط جامعة اسطنبول : ٢١/٢٣٥٥ ألف.

٢ «وآدم ما بين طينة خلقه والماء» : اشارة الى حديث : «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» . انظر روايات الحديث العديدة في كتاب الشريعة للآجري : ص ص ٤١٦–٤٢٥ ؛ القاهرة ١٩٥٠ ؛ ونقد هذه الروايات في رسالة حقيقة مذاهب الاتحاديين لابن تيمية : ص ص ٦٣–٦٥ : المنار (بلا تاريخ). أما ما يخص معاني كلمة «طينة» و «طين» من الوجهة الفلسفية : فيراجع بحث الأستاذ الكبير جورج قايده (G. Vajda) *Sa'adyā Commentateur du Livre de la Création*, p. 33, Annuaire E.P.H.E. (V° Section), 1959-1960.

٣ «ونقلته حتى استدار زمانه» : إشارة إلى حديث «إن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله (...) قبل أن يخلق آدم (...) فلما خلق الله آدم (...) ألقى ذلك النور في صلبه (...) ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من أبوي». انظر كتاب الشريعة : المقدم : ص ٤٣٠ . هذا ما يخص بنقل النبي من الأصلاب قبل ولادته . أما قول الشيخ : «حتى استدار زمانه» فإشارة ايضاً إلى حديث : «ان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات» وهو جزء من خطبة الوداع ؛ وبخصوص هذه الخطبة ومصادرها ونقد هذه المصادر : يراجع : *L'Allocution de Mahomet lors du pèlerinage d'adieu*, par R. Blachère, dans *Mélanges Louis Massignon*, Damas, 1956, tome I, pp. 223-249.

٤ «وأقمته عبداً (...) يناجيكم بغار حراء» : كهف صغير في جبل حِرَاء (أو حَرَا) على بعد ثلاثة أميال عربية عن مكة : من الجهة الشمالية الشرقية ، في مقابل جبل ثَبِير. وكان من عادة محمد : قبل رسالته ، أن يمضي فيه شهراً كل سنة ، يقضيه في التحنّث والتأمل . انظر دائرة المعارف الاسلامية : المجلد الثالث (الطبعة الثانية ، النص الفرنسي) ص ٤٧٨ ، والمصادر الملحقة بالمقالة .

حَتَّى أَتَاهُ مُبَشِّرٌ مِنْ عِنْدِكُمْ ... جِبْرِيلُ الْمَخْصُوصُ بِالْإِنْبَاءِ
قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ ! أَنْتَ مُحَمَّدٌ ... سِرُّ الْوِجَادِ وَخَاتَمُ الْأُمَنَاءِ
- يَا سَيِّدِي ! حَقًّا أَقُولُ ؟ فَقَالَ لِي : ... صِدْقًا نَطَقْتَ فَأَنْتَ ظِلُّ رِدَائِي
فَاحْمَدْ ! وَزِدْ فِي حَمْدِ رَبِّكَ جَاهِدًا ... لَقَدْ وُهِبْتَ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ
وَانْثُرْ لَنَا مِنْ شَأْنِ رَبِّكَ مَا انْجَلَى ... بِنُوَادِكَ الْمَحْفُوظِ فِي الْعَلْيَاءِ
مِنْ كُلِّ حَقٍّ قَائِمٍ بِحَقِيقَةٍ ... يَأْتِيكَ مَسْلُوكًا بِغَيْرِ مِرَاءِ

(٣ - تأملات في ظهور الكون والكائنات)

(١٦) ثم شرعت في الكلام ، بلسان العلاّم . فقلت . وأشرت إليه - صلى الله عليه وسلم ! - حَمِدتُ مَنْ أنزل عليك « الكتاب المكنون : الذي لا يَمَسُّهُ إلاّ المطهرون » . المنزل بحسن شيمك . وتنزيهك عن

١ الانباء C : الانبا BK || ٢ عليك C : عليك BK || النبأ B : النبا K : النبا C || ٣ رداني C : ردائي B : ردائي K || ٤ فاحمد CK : فاحمد B || الاشياء C : الاشيا BK || ٥ شأن B : شان K || ربك C : ربك BK || ما انجلى C : ما انجلا B : ما انجلا K || لنوادك C : لنوادك K : لنوادك B || العلياء C : العلماء BK || ٦ قائم C : قايم BK || بأتيك C : يأتيك B || شراء C : شرا BK || ٨ بشان C K : بالشان B || ٩ صلى ... وسلم K : صلى الله عليه B : صلى الله وسلم عليه C || عليك C : عليك BK || ١٠ شيمك C : شيمك BK || وتنزيهك C : وتنزيك BK .

١ « حتى أتاه (...) جبريل المخصوص بالانباء » : جبريل أو جبرائيل : وبالعبرية : جبرئيل Gabri'el : بخصوص معاني اسمه وطبيعة وظيفته في العهد القديم والآثار الإسلامية ، يراجع دائرة المعارف الاسلامية (النص الفرنسي ، الطبعة الثانية) المجلد الثاني ، ص ص ٣٧٢-٣٧٣ ، والمصادر العديدة المذيلة بالمقالة .

٢ « من كل حق قائم بحقيقة » : اشارة إلى حديث حارثة : « ان لكل حق حقيقة » أنظر كتاب الأربعين للسلمي ، ص ٥٦ (حيدرباد) وكتاب الرياضة للحكيم الترمذي ، ص ٦٩ ؛ وكتاب بيان الفرق بين الصدر والقلب للترمذي ايضاً ، ص ٦٤ (القاهرة ١٩٥٨) ؛ وكتاب اللمع للسراج ، ص ١٣ (ليدن ١٩١٤) .

٣ « ثم شرعت ... فتبصر ويتبرون » . - « الكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون » إشارة الى آيتي ٧٧ و ٧٨ من سورة الواقعة . و « الكتاب المكنون » هو « نسخة الجمع والتفصيل من حيث حقائقها الثابتة في عرصة غيب العلم » ؛ وهو ايضاً « القلب الانساني الظاهر بسعته غير المتناهية بما ارتسم في وجهه الأعلى عند محاذاته شطر الغيب » (كشف الغايات شرح التجليات ، مخطوط مكتبة باريز الوطنية ، ٤٨٠١ A/٣ الف - ٣ ب ، ٢٠ ب) .

الآفات وتقديسك. فقال في سورة «نون»: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. نٓ. وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ[٢]. [ورقة ٥ ب] فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾[١].

(١٧) [٣]ثم غمس قلم الارادة في مداد العلم: وخط بيمين القدرة،

---

١ الآفات CB: الافات K || وتقديسك C: وتقديسك BK || سورة BC: سورة K ||
١-٢ بسم ... الرحيم CB: — K (ولكن ثلثة فيه على الهامش بقلم جديد) || ٢ نٓ BK: ن C || ربك C: ربك BK || ٣ لك C: لك BK || وانك C: وانك BK.

---

١ «بسم الله ... نٓ. والقلم ... فستبصر ويبصرون» سورة ٦٨/١-٥. وعند الصوفية نٓ رمز العلم الالهي الاجمالي؛ والقلم رمز العلم الالهي التفصيلي. والعلم الالهي الاجمالي هو حضرة الاجمال؛ اي مرتبة الوحدة التي لا تميز ولا مغايرة فيها لمنافاة الوحدة لذلك. والعلم الالهي التفصيلي هو حضرة التفصيل؛ اي مرتبة الوحدانية التي تستدعي المغايرة والغيرية؛ اذ التفصيل لا يتم الا بها. انظر لطايف الاعلام؛ مخطوط جامعة اسطنبول ٢٣٥٥/١٧٣ ب وكشف الغايات؛ مخطوط باريز ٤٨٠١/٧ ب.

٢ «خُلُق عظيم»: «الخلق العظيم هو أكمل ما يمكن ان يتصف به الانسان من مكارم الأخلاق؛ ولهذا لما جمعها الله في نبينا — صلى الله عليه وسلم! — قال — تعالى! —: ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾. قال الجنيد: ٦ سمي خُلُقه — صلى الله عليه وسلم! — عظيماً لانه لم يكن له همة سوى الله — تعال! —٣. وقال الواسطي: ٦ انما كان خُلُقه (...) عظيماً لأنه جاد بالكونين عوضاً عن الحق٣. وقيل: ٦ لأنه (...) عاشر بخُلُقه وباينهم بقلبه. ولهذا قالوا: اتصوف الخُلُق مع الخَلْق والصدق مع الحق٣. وقيل: ٦ إن عظم خُلُقه (...) حيث صغرت الأكوان في عينه لمشاهدة المكوِّن٣. وقال الحسين بن منصور: ٦ لأنه لم يؤثر فيه جفا الخَلْق لمطالعته الحق٣. وقيل: ٦ لأنه تخلق باخلاق الله، فلم يخرج عن اختياره لدخوله تحت الحكم لفناء الرسم٣. وقيل: ٦ انما كان خُلُقه عظيماً لأنه تخلق بعظيم وهو القرآن المجيد، كما قالت عائشة — رضي الله عنها! — حين سئلت عن خُلُقه (...)٣ فقالت: ٦ كان خُلُقه القرآن٣» (لطايف الاعلام، مخطوط جامعة اسطنبول ٢٣٥٥ / ٧٦ الف — ٧٦ ب. وراجع أيضاً ما يخص بفكرة الخُلُق، من الناحية الصوفية، كتاب التجليات الالهية لابن عربي، تجلي رقم ٢٩ = والفتوحات المكية ٢/٣٣؛ ٢/٢٤١-٢٤٤؛ ومنازل السائرين للهروي، باب رقم ٩٥؛ وكشف الغايات، مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٤٨٠١/A ٦٠ ب؛ وتعليقات ابن سودكين على التجليات، مخطوط الفاتح ٥٣٢٢/د ١ ب.

٣ «ثم غمس قلم ... المشركين» — عرض الشيخ في هذه الفقرة، بأسلوبه الرمزي المألوف: للوسائل أو الحقائق المقدسة التي تمّ بها طبيعة الايجاد في عالمي الامكان والابداع، وهي: المشيئة والعلم والارادة والقدرة، التي هي في الحقيقة وجوه الذات الالهية

في اللوح المحفوظ المصون . كلّ ما كان وما هو كائن وسيكون وما لا يكون ؛ مما لو شاء — وهو لا يشاء — أن يكون لكان كيف يكون : من قَدَرِه المعلوم الموزون . وعلمه الكريم المخزون . [1]فهو سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ[1] . — « ذلك الله الواحد الأحد . فتعالى عمّا أشرك به المشركون » .

(١٨) [2]فكان أول اسم كتبه ذلك القلم الأسمى . دون غيره من الأسماء : إني أريد أن أخلق من أجلك — يا محمد ! — العالَم الذي هو ملكك. فأخلق جوهرة المآ . فخلقتها دون حجاب العزة[3] الأحمى . وأنا على ما كنت

١ كائن C : كاين BK || ٢ شاء C : شآء BK || لا يشاء C : لا يشآء BK || ٣ سبحان C : سبحن BK || ربك C : ربك BK || ٤ العزة C B : العزه K || ذلك C : ذلك B K || فتعالى C : فتعآلى B : فتعلى K || ٥ اشرك C : اشرك B K || ٦ ذلك C : ذلك B K || الأسمى C : الاسمى B : الاسما K || الاسما C : الاسمآ B K || ٧ اجلك C : اجلك BK || ملكك C : ملكك B K || ٨ المآ : المآء B K : الما C || الأحمى C : الاحمي B : الاحما K .

المسامية . وفي نظر الشيخ : أعلا هذه الخلائق الالهية واكثرها شمولاً هي المشيئة . ويسميها عرش الذات : أي باطن الذات ومرتبة الاحدية وغيب الغيوب . ثم يلي المشيئة العلم : وهو ظاهر الذات ومرتبة الوحدة والغيب المطلق . ويصطنع الشيخ لهذه الحقيقة ورتبة المداد أو النون اللذين هما مجلس العلم الاجمالي ؛ ثم يلي العلم الارادة ؛ وهي مبدأ الوجود ومرتبة الوحدانية ؛ ورمزها القلم الذي هو مجلس العلم التفصيلي . ثم تلي الارادة القدرة ؛ وهي مظهر الوجود ومبدأ الكثرة ؛ ورمزها اللوح الذي هو محل التدوين والتسطير .

١ « فسبحان ربك ... عما يصفون » : سورة رقم ١٨٠/٣٧ . هذا ، ولفظ « رب العزة » الوارد في هذه الآية يقارن بـ « حجاب العزة » الوارد في الفقرة الخامسة المتقدمة . — « ذلك الله ... المشركون » : مجرد اقتباس من سورة رقم ١٩٠/٧ وسورة رقم ١٨/١٠ الخ .

٢ « فكان اول اسم ... وذوات الأعراض » . — العالم خلق من أجل محمد ؛ وهو ملكه : هذا نمط للمناقب المنسوبة الى نبي الاسلام عند المسلمين ؛ يراجع في ذلك كتاب الشريعة للآجري : ص ص ٤٠٣—٤١٦ ؛ ٤٦١ ؛ ٤٦٤—٤٨٠ (القاهرة ١٩٥٠) ؛ وكتاب الشرح والابانة لابن بطة العكبري : ص ص ٦٠—٦١ ؛ وتعليقات الترجمة الفرنسية للكتاب ، ص ص ١١٠—١١٣ (دمشق ١٩٥٨) . أما الدراسات النقدية لاصول هذه الفكرة ومصادرها الاسلامية الاجنبية : فتراجع في : *E.I.* III, 666-67 (sous *Mujizât*), 788-89 (sous *Karâmât*). 857-58 (sous *Nabi*).

— *Essai sur Ibn Taimiya*, de H. Laoust, 179-203, le Caire (P.I.F.A.O.).1939.

٣ « حجاب العزة » : انظر ما تقدم التعليق على الفقرة الخامسة . — « وأنا على ما كنت ... ولا شيء معي » : اشارة الى حديث : « كان الله ولا شيء معه » وهو في صحيح البخاري : باب التوحيد وبدء الخلق ؛ ومسند ابن حنبل ٣٤١/٢ ؛ وهو أحد مسائل الحكيم الترمذي

عليه – ولا شيء معي – في عَمَاء[1]. فخلق الماء[2] – سبحانه! – بَرَدَة جامدة، كالجوهرة في الاستدارة والبياض، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام وذوات الأعراض.

(١٩) [3]ثم خلق العرش «واستوى عليه [ورقة ٦ ألف] اسم الرحمن».

١ ولا شيء: ولا شي K: ولا شيء B: ولا شيء C || عما C K: عمى B || الله C: الله K: الماء B || سبحانه C: سبحه B K || ؛ واستوى C: واستوا K: واستوي B || اسم K (بعد التصحيح) C: اسمه B (وكذلك K قبل التصحيح) || الرحمن C: الرحمان B K.

في كتابه: ختم الأولياء (السؤال ـ رقم ٢٣) ويرد الحديث كثيرًا في الفتوحات المكية.

١ «في عَمَاء». – سئل النبي أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: كان في عماء. وعند الصوفية المتأخرين: حضرة العماء هو النفس الرحماني والتعيّن الثاني والبرزخية الحائلة بكثرتها النسبية بين الوحدة والكثرة الحقيقيتين. والعماء هو الغيم الرقيق الذي يحول بين الناظر وبين الشمس (لطائف الأعلام ـ مخطوط جامعة اسطنبول ٥٥٢٣/١٢٥ ألف)؛ وانظر الفتوحات المكية ٤٢٩/٣؛ وشفاء السائل لابن خلدون ـ فهرس الاصطلاحات (ط. بيروت).

٢ «فخلق الماء». – يرى صاحب كشف الغايات أن الماء ـ في المراتب الكونية التفصيلية، هو مداد التدوين والتسطير. وهو منبثق من حقيقة نقطة نون الرحمن؛ التي هي حقيقة حاقّ وَسَطُ طَرَفَيْه العماء؛ التي منها انشقاق النشآت الكونية وما فيها (مجلة المشرق؛ عدد تموز – تشرين اول ١٩٦٦ ص ٤٣٠). – «بَرَدَة جامدة»: البَرَدَة: واحدة البَرَد وهو ماء الغمام يتجمّد في الهواء ويثلج على الارض.

٣ «ثم خلق العرش ... أكثر الأشياء». – يعرف الشيخ الأكبر العرش بانه «سرير ذو أركان أربعة ووجوه اربعة هي قوائمه الاصلية التي لو استقل بها لثبت عليه: اذ انه في كل وجه من الوجوه الاربعة التي له: قوائم كثيرة على السواء» (فتوحات ٤٣١/٢). وعند الجرجاني: «العرش هو الجسم بجميع الأجسام، سمي به لارتفاعه أو لتشبيه بسرير الملك في تمكنه عليه عند الحكم لنزول أحكام قضائه وقدره منه؛ لا صورة ولا جسم ثمّة» (تعريفات ١٠٠) أما الكرمي فهو حضرة الاحية مخصوصة هي مورد تجلّ الاحي مخصوص (كشف الغايات: مجلة المشرق، عدد ايار – حزيران ١٩٦٧ ص ٣٠٩). والقدمان اللتان تدليتا الى الكرسي هما قَدَم الصِّدْق وقَدَم الجَبَّار. والقَدَم بالمعنى الصوفي: هي الأسرار الوجودية الظاهرة من الغيب الذاتي أولا، ثم في صور الارواح المنفوخة في التسوية ثانيا؛ في الصور المقامة في احسن تقويم ثالثا واخيرا. وقَدَم الصِّدْق هي الأسرار الوجودية: المجتمعة على الأصل الشامل، المختصة بالهداية. وقدم الجَبَّار هي الأسرار الوجودية: المجتمعة على الأصل الشامل، المختصة بالضلال (المصدر السابق، عدد تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٦٦ ص ٧٢٨).

هذا؛ والابحاث النظرية والكلامية الخاصة بالعرش والكرسي والقدمين والاستواء

ونصب الكرسي وتَدَلَّت إليه القدمان . فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة : فذابت حياءً ؛ وتحلّلت أجزاؤها فسالت ماءً : « وكان عرشه على الماء » : قبل وجود الأرض والسماء . وليس في الوجود : إذ ذاك : إلاّ حقائق المستوى عليه : والمستوي : والاستواء . فأرسل النَّفَسَ ؛ فتموّج الماء من زَعزَعِه وأزْبَد . وصَوّت بحمد الحمد المحمود الحقّ : عندما ضرب بساحل العرش ؛ فاهتز الساق وقال له : أنا أحمد ! فخجل الماء : ورجع القَهْقَرى . يريد تَبَجّحَه ؛ وتركَ زَبَدَه بالساحل الذي أنتجه : فهو مخضة ذلك الماء : الحاوي على أكثر الأشياء[1] .

---

١ تلك C K : تلك B || ٢ حياءً : حياء C : حيا K : حيآء B || أجزاؤها C : اجزاوها K : اجزآؤها B || ماءً : ماء C : ما K : مآء B || الماء C : الما K : المآء B || ٣ والسماء C K : والسمآء B || ذاك C K : ذاك B || حقائق C : حقايق K B || ٤ والاستواء C K : والاستوآء B || الماء C : الما K : المآء B || ٥ بحمد الحمد المحمود C K : بحمد المحمود B || ٦ الماء C K : المآء B || القهقرى : C القهقرا K : القهقري B || ٧ وتركَ C K : وترك B || مخضة C B : مخضه K || الماء CK : المآء B || ٨ الأشياء C : الاشيا K : الأشيآء B .

تراجع في الرسالة العرشية (= عرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات) لابن تيمية ، مطبعة المنار بمصر ١٣٤٩ هـ ؛ وطبقات الحنابلة لابن الفرّاء ١/٢٨ : ٢٩ ، القاهرة ١٩٥٢ (الناشر حامد الفقي) ؛ وكتاب الشريعة للآجري ص ص ٢٩٠—٢٩٨ ؛ والمعتمد في اصول الدين لابي يعلى : مخطوط المعهد الفرنسي بدمشق ، المنقول عن مخطوط الظاهرية ؛ وكتاب الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني ١/٦٢—٦٣ (القاهرة ١٣٢٢ هـ.) ؛ والعقيدة الواسطية لابن تيمية ٢٠—٧١ (المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٦ هـ.) ؛ ودائرة المعارف الاسلامية ، مقالة كرسي ؛ وكتاب الشرح والابانة على اصول الديانة لابن بطة العكبري (الفهرس العام بالفرنسية : عرش ، قدم ، كرسي) نشر المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٨ .

وقول الشيخ : « خلق العرش واستوى عليه اسمُ الرحمن » اشارة الى الآية الخامسة من سورة طه (٢٠) . واسم الرحمن ، عند الصوفية : هو رمز لحقيقة الوجود بشرط كليات الأشياء . هو رب العقل الأول المسمى بلوح القضاء ، وام الكتاب ، والقلم الاعلى (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١/٥٢٩) . وهو ايضاً : اسم لصورة الوجود التي هي عبارة عن الجمعية الحاصلة للاسماء الذاتية عند ظهورها بنفسها من بطون وحدة الذات (لطايف الاعلام ، مخطوط جامعة اسطنبول ٢٥٣٥٥/٨٢ ألف) . يقارن هذا بما ورد في كتاب التجليات الالهية لابن عربي ، تجلي رقم ١٤ ؛ وفي كتاب كشف الغايات المنشور بمجلة المشرق ، عدد تشرين الثاني — كانون الأول ١٩٦٦ ص ص ٧١٤—٧١٧ ؛ وفي تعليقات ابن سودكين على التجليات ، المنشور بنفس المجلة والعدد والصفحات. يراجع ايضاً كتاب الفتوحات المكية لابن عربي ٣/١١٥ ؛ ٤/١٣٦ ، ٢١٣ ، وفصوص

(٢٠) [1]فأنشأ ـ سبحانه ! ـ من ذلك الزَّبَد الأرض : مستديرة النشء : مَدحيَّة الطول والعرض . ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند نقبها : فنتق فيه السماوات العُلى ، وجعله محلّ الأنوار ، ومنازل الملأ الأعلى . وقابل بنجومها المزينة لها النيّرات : ما زيّن الأرض من أزهار النبات[1] .

(٢١) [2]وتفرّد ـ تعالى ! ـ لآدم وولديه : بذاته ـ جلّت عن التشبيه ! ـ وبيديه . فأقام نشأة جسده وسوّاها تسويتين : تسوية انقضاء أمده و(تسوية) قبول أبده : وجعل مكن هذه النشأة نقطة كُرَة الوجود وأخفى عَيْنها

---

١ فأنشأ C B : فانشا K || سبحانه C K : سبحه B || ذلك C K : ذلك B || النشء C B : النش K || ٢ انشأ C B : انشا K || إحتكاك C K : استكاك B || ٣ السماوات K : السمات C B || محل الانوار C K : محلاً للأنوار B || الملأ C : الملا K : الملا B || ٦ تعالى C : تعلى B K || لآدم C B : لادم K || ٧ نشأة C B : نشاة K || جسده B K : جسديه C (وكذا K على رأس السطر بقلم جديد) || انقضاء C : انقضا K : انقضاء B || ٨ هذه C B : هاذه K || النشأة C B : النشاة K .

الحكم له ايضاً (فهرس الاصطلاحات : الرحة ، نشر عثيفي ، القاهرة ١٩٤٦) .

وقول الشيخ ايضاً : «وكان عرشه على الماء» اشارة الى الآية السابعة من سورة هود (١١) .

١ «فأنشأ ـ سبحانه ! ـ ... النبات» . ـ «فتق فيه السماوات» : اشارة الى الآية الثلاثين من سورة الأنبياء (٢١) . والفتق عند الصوفية : تفصيل المادة المطلقة بصورها النوعية ، وظهور كل ما بطن في الحضرة الواحدية من النسب الأسمائية ، وبروز كل ما يكمن في الذات الأحدية من الشؤون الذاتية ، كالحقائق الكونية ، بعد تعينها في الخارج (شرح اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق القاشاني ص ٥٩ ؛ ولطايف الاعلام) : مخطوط جامعة استنبول ١٣٣/٢٣٥٥ ألف ومقدمة ابن خلدون : ص ٤٧١ ، القاهرة ؛ شفاء السائل لابن خلدون ، ص ٥٢ : بيروت) .

٢ «وتفرّد ـ تعالى ! ـ . كالدخان» . ـ «وتفرّد لآدم وولديه بذاته (...) وبيديه» اشارة الى الآية رقم ٧٥ من سورة صٓ (٣٨) . ـ والعرفان الشيعي وخاصة الاسماعيلي يميز بين ١) آدم الروحاني (Anthrôpos céleste) ذي المرتبة الثالثة بين صفوة الكروبيين (= العقل الثالث الذي أصبح العاشر) لتردده أو تحيره في التوحيد ؛ وهذا التردد أو التحيّر ـ الذي كان مصدر انحطاطه من مرتبته السماوية هو في نفس الوقت مصدر مأساة الانسانية على الأرض) والثانية بين زمرة الانبعاثين (= المنبعث الثاني ، مدبر عالم الكون والفساد ورب النوع الانساني) ؛ ـ ٢) آدم الأول الكلّي (Pananthrôpos) . الذي ظهر على مسرح الحياة الارضية في بداية الظهور في جزيرة سرنديب ، وهو وصيف (homologue) العقل الأول في السماء ، ومؤسس الامامة والولاية

ثم نبّه عباده عليها بقوله – تعالى ! – : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[١]. فإذا انتقل الانسان إلى برزخ الدار الحيوان [ورقة ٦ ب] مارت قبة السماء وانشقّت . فكانت شعلة نار سيّال كالدهان .

(٢٢) فمن فهم حقائق الاضافات . عرف ما ذكرنا له من الاشارات : فيعلم قطعاً أن قبّة لا تقوم من غير عَمَد . كما لا يكون والد من غير ولد ؛ فالعمد هو المعنى الماسك : فإن لم ترد ان يكون الانسان فاجعله قدرة المالك . فتبين أنه لا بد من ماسك يُمسكها ؛ وهي مملكة فلا بد لها من مالك يملكها . ومَن مُسكت من أجله فهو ماسكها ؛ ومن وُجدت له بسببه فهو مالكها .

١ تعالى C : تعلى B K || ٢ السماء C : السما K : السمآء B || ٤ حقائق C : حقايق B K || ٦ الماسك C K : الماسك B || ٧ المالك C K : المالك B || ماسك C K : مسك B || ٨ مالك C K : مالك B || ويجدت له بسببه C K : وجدت بسببه B .

عنى الأرض » – آدم الجزئي . أول نبي لدور الستر التي هي فيه الانسانية الخالية ، يراجع تفصيل ذلك في : *Trilogie Ismaélienne*, à l'index (sous *Adam*), de H. Corbin, Téhéran, 1961 ; — *Le Livre des Pénétrations Métaphysiques*, à l'index (sous *Adam*), par ibid, Téhéran, 1964.

أما ابن عربي : فانه يميز بين آدم الحقيقي ، ويسميه ايضاً الاب الأول ، أو أول الآباء ، والأب الروحاني ، وهذه الأسماء كلها يعني بها الحقيقة المحمدية (= العقل الكلي) في مستواها الغيبي ، والنبي محمد في شخصيته التاريخية من حيث هو خاتم الأنبياء ؛ — وآدم الصوري . ويسميه أيضاً الاب الجسماني الذي يعني به النبي آدم ، أول الأنبياء واب البشرية من حيث الجسد .

١ « بغير عمد ترونها » : سورة ٢/١٣ وسورة ١٠/٣١ . — « الدار الحيوان » : هي الدار الآخرة انظر الآية رقم ٦٤ من سورة رقم ٢٩ . — وانشقت ... كالدهان » إشارة الى الآية رقم ٣٧ من سورة الرحمن .

وهذه الفقرة والتي تليها ، كلتاهما ذات معنى رمزي يلمحي Apocalyptique . وهما خاصتان بالانسان ومكانته في الوجود . فالفقرة رقم ٢١ تذكر ان الله تفرّد بذاته ويديه خلق آدم وولديه . وذلك احتفاءً به وعناية بشأنه . وقد اقام الله نشأة جسد آدم وحدّد له غايتين متناقضتين : غاية زمانية فانية ، وغاية أبدية . وجعل الله مقرّ هذه النشأة الآدمية مركز الوجود ، أي الكرة الأرضية ، وأخفى عينها ، أي حقيقتها وأصلها القائم بها (= الانسان الكامل ، الإمام) . ولكنه نبه عليها في موضعين بالقرآن : « الله الذي رفع السموات بغير عَمَد ترونها » (٢/١٣) : « خلق السموات بغير عَمَد ترونها » (١٠/٣١) . والسماء ، في رمزية الشيخ الأكبر ، هي عالم الروح ، الذي هو عين نشأتنا

(٢٣) [1]ولما أبصرت حقائق السعداء والأشقياء: عند قبض القدرة عليها. بين العدم والوجود. وهي حالة الانشاء. — حُسْنَ النهاية: بعَيْن الموافقة والهداية؛ وسوء الغاية. بعَيْن المخالفة والغواية؛ — سارعت السعيدةُ إلى الوجود، وظهر من الشقية التبطُّؤ والإباية. ولهذا أخبر الحق عن حالة السعداء فقال: ﴿أولئك يُسارِعُونَ في الخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾[2] — يشير إلى تلك السرعة (الوجودية). وقال في الأشقياء:

١ حقائق C: حقايق K B || السعداء C: السعدا K: السعدآء B || والأشقياء C: والاشقيا K: والأشقيآء B || ٢ الانشاء C: الانشا K: الانشآء B || النهاية: النهايه K. || ٣ والهداية: والهدايه K. || وسوء C B: وسو K || الغاية: الغايه K. || والغواية: والغوايه K. || ٤ والإباية: والابايه K. || ٥ السعداء C: السعدا K: السعدآء B || أولئك C: اوليك K: اوليك B || ٦ تلك K C: تلك B || الأشقياء C: الاشقيا K: الأشقيآء B.

الجسدية: أي قوامها وحقيقتها. وعند السموات: أي عند عالم الأرواح. هو الحقيقة المحمدية. وإذا كانت سموات نشأتنا الجسدية (= أرواحنا) مخفية على عيوننا التي في رأسنا؛ فالحري أن يكون كذلك عند السموات الروحية نفسه (= الانسان الكامل. الامام). ولكن اذا انتقل الانسان الى برزخ الحياة الحقيقية: الى الدار الحيوان. دار الخلود والبقاء، ظهر المخفي للعين والعيان. — ولآدم الجسدي ولدان: أي فرعان مختلفان: هابيل وقابيل؛ ولآدم الروحاني فرعان فارعان: الحقيقة العلوية العامة، الظاهرة بكل ما حاز بطنها بدءًا؛ والحقيقة الخمسية الخاصة، الظاهرة بكل ما حاز بطنها ختماً. فالحقيقة العلوية العامة تقوم بجوامع المعاني في قلب الحروف: من حيثية ابوة اصلها الكريم، وترث منه ولاية العلم الاحاطي الوسطي: عن طريق دلالة الاسماء على المعاني: ودلالة الصور على الأرواح: ومن هنا كانت هذه الحقيقة العلوية: في الولاية الكلية المطلقة: بمثابة آدم في النبوة العامة. — والحقيقة الخمسية الخاصة تقوم بجميع المعاني في قلب الحروف: من حيثية امومة اتقابلية المختصة بالاصل الكريم: وترث منه ولاية العلم الوسطي المحيط بخصوصيات المعاني والارواح: من حيثية طلبها الحروف والصور الوافية لسريانها وظهورها. (كشف الغايات، المنشور بمجلة المشرق: عدد ايار — حزيران ١٩٦٧ ص ٢٨٩).

١ «ولما أبصرت حقائق ... الراوي اليك». — حقائق السعداء والأشقياء: اشارة الى بعض الأحاديث: نذكر منها: «ان الله (...) يوم خلق آدم (...) قبض من صلبه قبضتين. فرفع كل طيب بيمينه وكل خبيث بشماله (...) فقال: هؤلاء اصحاب اليمين (...) وهؤلاء أصحاب الشمال (...)» كتاب الشريعة للآجري ص ١٧٣ (القاهرة ١٩٥٠) وانظر ايضاً كتاب الشرح والابانة لابن بطة ص ٥٧ من النص العربي (ط. دمشق ١٩٥٨)؛ وطبقات الحنابلة لابن الفراء ١/٢٩ (القاهرة ١٩٥٢).

٢ «أولئك يسارعون ... سابقون»: سورة المؤمنين: ٢٣/٦٢. — «فبطلهم ...

﴿ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ = يشير إلى تلك الرجعة (العدمية) . — فلولا هبوب تلك النفحات على الأجساد : (!) ما ظهر في هذا العالم سالكٌ غَيٌّ ولا رَشاد . ولتلك السرعة (الوجودية) والبَسْط (العدمي) . أخبرتنا — صلى الله عليك ! — : « إن رحمة الله سبقت غضبه ! » هكذا نَسَبَ الراوي إليك .

(٢٤) ثم أنشأ — سبحانه ! — الخلائق على عدد أسماء حقه [ورقة ٧ ألف] . وأظهر ملائكة التسخير[٢] على عدد خَلْقه . فجعل لكل حقيقة

---

١ تلك CK : تلك B || ٢ سالك CK : سالك B || ولتلك CK : ولتلك B || ٣ عليك CK : عليك B || رحمة CB : رحمت K || ٤ هكذا CB : هاكذا K || اليك CK : اليك B || ٦ أنشأ CB : انشا K || سبحانه CK : سبحه B || الخلائق C : الخليق BK || اسماء C : اسما K : اسماء B || ٧ ملائكة C : ملايكه K : ميكة B .

القاعدين » : جزء من آية رقم ٤٦ . سورة برآءة (٩) وسياق الآية خاص بالمنافقين . — « ان رحمة الله ... غضبه » : جزء من حديث أبي هريرة . متفق عليه . ولفظ البخاري : « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش : ان رحمتي سبقت غضبي » . ولفظ مسلم : « (...) كتب في كتابه على نفسه : ان رحمتي تغلب غضبي » (المغني عن حمل الاسفار لعبد الرحيم العراقي . هامش الاحياء ٤/٤٤٥ : القاهرة بلا تاريخ ؛ وانظر ايضاً كتاب الشريعة للآجري : ص ٢٩٠ : القاهرة ١٩٥٠) .

١ « ثم انشأ — سبحانه ! — ... فكان له من الساجدين » . — « الخلائق » : هي اسماء الشؤون الذاتية عندما تتصور وتتميز في المرتبة الثانية . فان جميع الخلائق الالهية والكونية انما تكون شؤوناً واحوالاً ذاتية ؛ من اعتبارات الواحدية : مندرجة فيها في المرتبة الاولى على نحو ما باتت وتصورت في المرتبة الثانية . فتسمى الشؤون في هذه المرتبة بالخلائق» (لطايف الاعلام : مخطوط بجامعة استنبول د٢٣٥/٧٠ ألف) . « اسماء حقه » : هي حقائق الأسماء التي هي تعينات الذات . فان حقايق الاسماء القائمة بالذات المقدسة (...) ليست هذه الألفاظ المركبة من الحروف المفردة (...) المختلفة باختلاف اللغات (...) فتكون هذه الألفاظ اسماء الأسماء لا معانيها (...) ولانه لما كانت حقايق اسمائه وصفاته انما هي الاسماء والصفات التي تسمى بها في نفسه : من حيث هو ذاكر ومذكور لنفسه بنفسه . لم يصح ان تكون تلك الحقايق معقولة لغيره ، لاستحالة ان يكون معه غير نفسه . فاستحال ان يكون المعلوم من اسمائه وصفاته ما هو معلوم لنا . (لطايف الاعلام ، المخطوط السابق ورقة ٧١ ألف — ٧١ ب) .

٢ « ملائكة التسخير » : او الملائكة المسخرة . وهم الصنف او الطبقة الثانية من الملائكة : ورأسهم القلم الأعلى ، وهو العقل الاول : سلطان عالم التدوين والتسطير . وكان وجودهم مع العالم المهيم (= الملائكة المهيمة) ؛ غير ان الله حجبهم عن هذا التجلي الذي هيم اصحابهم (وهو تجلي الحق لهم باسمه الجميل) لما اراد الله ان يهب هذا الصنف من الملائكة

اسماً من أسمائه تعبده وتعلمه ؛ وجعل لكل سرّ حقيقة ملكاً يخدمه ويلزمه . فمن الخلائق من حجبته رؤية نفسه عن اسمه ؛ فخرج عن تكليفه وحكمه ؛ فكان له من الجاحدين . ومنهم ؛ من ثبّت الله أقدامه ؛ واتخذ اسمه إمامه ؛ وحقق بينه وبينه العلامة ؛ وجعله أمامه ؛ فكان له من الساجدين[1] .

(٢٥) [2]ثم استخرج من الأب الأول أنوار الأقطاب[3] شموساً تسبح في أفلاك المقامات . واستخرج أنوار النجباء نجوماً تسبح في أفلاك الكرامات .

---

١ أسمائه C : اسمايه K : اسمايه B || ٢ الخلائق C : خلايق K R || رؤية C : رويه K : رمية B || ٤ العلامة : العلامه .ـ || ٦ افلاك C K : افلاك B || النجباء C : النجبا K : النجبآء B || افلاك C K : افلاك B .

من رتبة الامامة في العالم ؛ وله ولاية تخصه وتخص ملائكة التسخير (فتوحات ٢/٢٥٠) . وفوق ملائكة التسخير : الملائكة المهيّمة . وهم الذين تجلّى لهم الحق في اسمه الجميل . فتهيّمهم وأفناهم عنه ؛ فلا يعرفون نفسهم ؛ ولا من هاموا فيه ؛ ولا ما حيّرهم . فهم في الحيرة سكارى . وهم الذين أوجدهم الله من أبنية العماء ؛ الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء . (فتوحات نفس الجلد والصفحة) . ويلي ملائكة التسخير ملائكة التدبير ؛ وهم الارواح المدبرة للاجسام كلها : الطبيعية النورية ؛ والحيوانية ؛ والفلكية والعنصرية . (نفس المصدر والجلد والصفحة) . ثم يلي ملائكة التدبير للملائكة المولدة من صالح أعمال بني آدم . (نفس المصدر ٢/٢٥٤ : ٢٥٦ وانظر أيضاً رسالة الأرواح لابن عربي ؛ مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق ؛ رقم ٥٤٣٣/٢٤١ ب ــ ٢٤٢ الف ؛ وانظر ما تقدم فقرة رقم ١٠ والتعليق عليها) .

١ «فمن الخلائق من حجبته رؤية نفسه ... من الساجدين» : اشارة الى موقف ابليس والملائكة من آدم ، كما ورد ذلك مراراً في القرآن : ٢/٣٤ ؛ ٧/١٠ ؛ ١٧/٦١ ؛ ١٨/٥٠ ؛ ٢٠/١١٦ .

٢ «ثم استخرج ... على الزمامين» . ــ «الأب الأول» : الأب الحقيقي ؛ آدم الروحاني ؛ ابو الأرواح : وليس ذلك سوى الروح المحمدي الذي هو عبارة عن جمعية وحدة القلم الأعلى ، لانتشاء جميع الارواح عن روحانيته ؛ ولاستعادة جميع ارواح الممكنات عنه (لطايف الاعلام ؛ مخطوط جامعة اسطنبول ٥٥٣٣/٩ ب ــ ١٠ ألف ؛ وانظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ٢١) .

٣ «الأقطاب» : جمع قطب ؛ ويقال له الغوث . وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في العالم في كل زمان (تعريفات ابن عربي ٣ ؛ تعريفات القاشاني ؛ نفس المادة ؛ رشح الزلال ((شرح تعريفات ابن عربي) نفس المادة ؛ لطايف الاعلام ؛ مخطوط جامعة اسطنبول ٥٥٣٣/١٤٠ ب) . ــ «النجباء» : وهم اربعون نفساً مشغولون بحمل أثقال الخلق . فلا يتصرفون ، اثناء حياتهم على الأرض ، إلا في حق الغير (لطايف الاعلام ؛ ورقة ١٧١ ب ؛ مخطوط جامعة اسطنبول المتقدم) .

وثبّتَ الأوتاد الأربعة للأركان[1] ، فاحتفظ بهم الثقلان ، فأزالوا ميْد الأرض وحركتها . فسكنت فازّينت بحليّ أزهارها وحلل نباتها ، وأخرجت بركتها ، فتنعّمت أبصارُ الخلق بمنظرها البهيّ . ومشامّهم بريحها العطريّ ، وأحناكُهم بمطعومها الشهيّ . — ثم أرسل الأبدال السبعة . إرسال حكيم عليم . ملوكاً على السبعة الأقاليم ، لكلّ بدل إقليم . ووزر للقطب الإمامين[2] ، وجعلهما أمينين على الزّمامين[3] .

(٢٦) فلمّا أنشأ العالَم على غاية الاتقان ، ولم يبق أبدع منه ،

---

٤ واحناكهم .. : (ونكتر على هامش B ، بقلم الأصل : وألسنتهم ، بدل : واحناكهم) ا؛ ٦ أمينين C B : اما مين K (ونكتر على الهامش بقلم الأصل : امينين) ا؛ ٧ انشأ CB : انشا K .

---

١ « الأوتاد الاربعة » : عبارة عن أربعة رجال ، متنازلهم على منازل الجهات الاربع من العالم : الشرق والغرب والشمال والجنوب . وبهم يحفظ الله جهات العالم لكونه محل نظره في تلك الجهة (نفس المصدر السابق ، ورقة ٣٣ الف) . — « الأبدال السبعة » : ويقال لهم : البدلاء . وهم سبعة رجال من سائر منهم من موضع ترك على صورته جسداً حياً ، يحيا بحياته ، ويظهر باعمال أصله ، بحيث لا يعرف احد انه فقد . وهم على قلب ابراهيم . (تعريفات الجرجاني ٢—٣:٢٩ ؛ تعريفات ابن عربي والقاشاني ورشح الزلال مادة : بدل ، بدلاء ، ابدال ؛ ولطايف الاعلام ، المخطوط السابق ، ورقة ٣٦ ب ؛ ودائرة المعارف الاسلامية مقالة : أبدال ، الطبعة الثانية) .

٢ « الإمامان » : هما شخصان ، أحدهما عن يمين القطب ونظره في عالم الملكوت ، واسمه عبد الرب ؛ والآخر عن يساره ونظره في عالم الملك ، واسمه عبد الملك ، وهو اعلى من صاحبه ، وهو الذي يخلف القطب اذا درج . (لطايف الاعلام) ، المخطوط السابق ، ورقة ٢٨ ب ؛ تعريفات ابن عربي والقاشاني مادة : الإمامان ؛ ورشح الزلال ، مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٤٨٠١/١٠١ ب ؛ وكتاب القطب والامامين لابن عربي ، حيدرباد ١٩٤٦ . — ويقارن هذا بالحديث الوارد في كتاب الشرح والابانة لابن بطة العكبري : « ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض . فأما وزيراي من اهل السماء فجبريل وميكائيل ؛ وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر » ص ١٤ ؛ من النص العربي ، دمشق ١٩٥٨) .

٣ « الزّمامان » : مثنى زمام ، وهو لغةً الخيط الذي يُشدّ في البُرّة أو في الخشاش ثم يُشدّ في طرفه المقوَد . وقد يُسمّى المقوَد نفسه زماما . — والزمامان هنا : المراد بهما مقوَدا عالمي الملك والملكوت ، وصاحباهما هما الإمامان المتقدمان : عبد الملك وعبد الرب .

٤ « فلما انشأ العالم ... بهذا الحكم » . — « العالَم على غاية الاتقان » : النص في الاحياء : « وليس في الامكان اصلاً احسن منه (أي من العالَم) ولا أتم ولا اكمل

كما قال الامام ابو حامد[1] في الامكان: وأبرز جسدك — صلّى الله عليك! — للعيان: — أخبر عنك الراوي أنك قلت يوماً في مجلسك: «إن الله كان ولا شيء [ورقة ٧ ب] معه»[2] بل هو على ما عليه كان. وهكذا هي — صلّى الله عليك! — حقائق الأكوان. فما زادت هذه الحقيقة على جميع الحقائق إلاّ بكونها سابقة؛ وهنّ لواحق. إذ من ليس مع شيء، فليس معه شيء. ولو خرجت الحقائق على غير ما كانت عليه في العلم. لاسّازّت[3] عن الحقيقة المُنزّهة بهذا الحُكْم.

---

١ جسدك C K : جسدك B || عليك C K : عليك B || ٢ عنك C K : عنك B || انك C K : انك B || مجلسك C K : مجلسك B || ٣ شيء : شي K : شيء B : شيء C || وهكذا C B : وهاكذا K || ٤ عليك C K : عليك B || حقائق C : حقايق B K || ٥ الحقائق C : الحقايق B K || ٦ شيء : شي K : شيء B : شيء C || الحقائق C : الحقايق B K || ٧ سازت B K : لاسازت C .

(...) اذ لو كان: وادّخره مع القدرة (...) لكان بخلاً (...) ولو لم يكن (...) لكان عجزاً» (الاحياء ٤/٢٥٨–٢٥٩). والنص في كتاب الاملاء في اشكالات الاحياء الغزالي ايضاً: «ليس في الامكان ابدع من صورة هذا العالم، ولا أحسن ترتيباً ولا أكمل صنعاً» (٣٥–٣٦).

١ «أبو حامد»: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي: حجة الاسلام: الشوفي سنة ٥٠٥ للهجرة. المصادر عنه في العربية وغيرها اكثر من أن تحصى: نذكر أهمها وأحدثها: W. M. Watt, *E.I.* I(2), 1066-1062; *Muslim intellectual*, 1963; *Islamic philosophy and theology*, Edinburg, 114-124; — Henri Laoust, *Les Schismes*, 201-208; — F. Jabre, *La biographie et l'oeuvre de Ghazâli*, M.I.D.E.O., 1954, 73-102; *La notion de certitude selon Ghazâli*, Paris, Vrin, 1958; — H. Corbin, *Histoire de la philosophie islamique*, 251-261, Paris, 1964; — Louis Gardet, *L'Islam religion et communauté*, 257-270, Paris, 1967.

٢ «ان الله كان ولا شيء معه»: الحديث مذكور في صحيح البخاري: باب التوحيد وبدء الخلق، وفي مسند ابن حنبل ٤/٤٣١؛ وانظر التعليق على الفقرة، رقم ١٨؛ والرسائل والمسائل لابن تيمية: الرسالة السادسة (القسم الثالث): شرح حديث عمران بن حصين: ١٧١–١٩٥ (القاهرة: المنار ١٣٤٩). — «بل هو على ما عليه كان»: اي هو الآن على ما عليه كان: لا شيء معه؛ قال سهل التستري: يا مسكين: كان (الله) ولم تكن، ويكون ولا تكون. فلما كنت اليوم صرت تقول: أنا وانا؟ كن الآن كما لم تكن: فانه (— تعالى! —) كما كان (في الأزل). — الاحياء ٤/٢٥٨.

٣ «لاسّازّتْ»: في مخطوط بايزيد (= الاصل الثاني لتحقيق رواية نص التنزيهات): بقلم الأصل وعلى الهامش: إسّازّ: أصْلُهُ إنْسازّ، فتأدْغِم.

(٢٧) فالحقائق الآن في الحُكْم ، على ما كانت عليه في العلم . فلنقل : كانت ولا شيء معها في وجودها ؛ وهي الآن على ما كانت عليه في علم معبودها . فقد شمل هذا الخبر ، الذي أطلق على الحق ، جميعَ الخلق . — ولا تَعْتَرِضْ بتعدُّد الأسباب والمسبَّبات : فانها تَرُدُّ عليك بوجود الأسماء والصفات ؛ وان المعاني التي تدلّ عليها مختلفات . فقولا ما بين البداية والنهاية سبب رابط وكسب صحيح ضابط ؛ (ل) ما عُرف كلّ واحد منهما بالآخر . ولا قيل : على حكم الأول يثبت الآخر . وليس إلاّ الرب والعبد وكفى . وفي هذا غنية لمن أراد معرفة نفسه في الوجود وشأنا . ألا تَرَى أن الخاتمة عين السابقة ؟ وهي كلمة واجبة صادقة . فما للانسان يتجاهل ويعمى ، ويمشي في دُجُنَّة ظُلْما ، حيث لا ظلّ ولا ماء ؟

(٢٨) [١]وإن أحق ما سُمع من النَّبا ، وأتى به هُدْهُد الفهم من سَبا ، وجودُ الفَلَك المحيط . الموجود في العالَم المركَّب والبسيط ، المسمّى بالطبا . وأشبه شيء به الماء والهواء ، وإن كانا من جملة صوره المفتوحة فيه .

١ فالحقائق C : فالحقايق B K || الآن C B : الان K || ٢ ولا شيء : ولا شي K : ولا شيء B : ولا شيء C || ٣ في علم K C : من علم B (وكذلك الرواية في K قبل التصحيح) || ٥ الأسماء C : الاسا K : الاسآء B : + التي لحق B || ٥ عليها C K : عليه B || ٦ وكسب صحيح C K : (طمس في B) || ما عرف .·. (ضبط الفعل في B بضم العين وتشديد الراء المكسورة) || ٧ بالآخر C B : فالاخر K || يثبت C K : يأتي B (وكذا K قبل التصحيح بالاصل) || ٨ وكفى C K : وكفا B || ٩ السابقة : السابقه .·. || صادقة : صادقه .·. || ١٠ ويعمى C K : ويمسي B || ظلماً B : ظلما K : ظلماء C || ولا ماً B : ولا ما K : ولا ماء C || ١٢ الفلك C K : الفلك B || ١٣ بالطبا B : بالطبا K : بالحباء C || شيء : شي K : شيء B : شيء C || الماء C : الما K : الماء B || والهواً B : الهوا K : اهواء C || المفتوحة C K : المفتحة B .

١ « وان احق ... وطيبتها آدمية » . — « وأتى به هدهد الفهم من سبا » : اشارة الى الآيات ٢٠–٢٢ من سورة النحل . — « المسمّى بالطبا » : الطبا او الحباء هو المادة التي فتح الله بها صور العالم . وهو العنقاء والهيولى . (لطايف الاعلام ، مخطوط جامعة اسطنبول ٥٥٥٣/١٧٣ ب ؛ تعريفات ابن العربي ٨ ؛ تعريفات القاشاني ١٢ ؛ رشح الزلال ، مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٤٨٠١ (مادة : حباء) ؛ دائرة المعارف الاسلامية : مقالة هيولى ، المجلد الثالث ، ص ص ٣٣٨–٣٤٠ ، النص الفرنسي ، الطبعة الثانية ، وهذه المقالة المركزة العميقة تعالج الموضوع من حيث مصادره اليونانية ومن حيث معاني « هيولى » المختلفة في اوساط التفكر الاسلامي . والمقالة مذيلة بمراجع عديدة ، وهي بقلم الاستاذ الكبير المستشرق لويز جاردي L. Gardet .

[ورقة ٨ ألف] ولمّا كان هذا الفلك أصل الوجود ، وتجلّى له احد (— تعالى ! —) النور من حضرة الجود : كان الظهور . وقبلت صورتك — صلّى الله عليك ! — من ذلك الفلك أوّل فيض ذلك النور . فظهرت صورةٌ مثليّة[1] : مشاهدها عينية ، ومشاربها غيبية : وجنتها عدنية : ومعارفها قلمية ، وعلومها يقينية : وأسرارها مدادية ، وأرواحها لوحية : وطينتها آدمية .

(٢٩) [2]فأنت أب لنا في الروحانية : كما كان — وأشرتُ الى آدم : صلّى الله عليه ! في ذلك الجمع — أباً لنا في الجسمانية . والعناصر لها أمٌ ووالد : كما كانت حقيقة الماء في الأصل مع الواحد . فلا يكون أمر إلاّ عن أمرين : ولا نتيجة إلاّ عن مقدمتين . أليس وجودك عن الحق — سبحانه ! — وكونه قادراً ، موقوفاً ؟ وإحكامُك عليه ، من كونه عالماً ، موصوفاً ؟ واختصاصُك بأمرٍ دون أمرٍ ، من كونه مريداً : معروفاً[2] ؟

١ الفلك C K : الفلك B || وتجلى C : وتجلي B : وتجلا K || ٢ صورتك C K : صورتك B || ٣ عليك C K : عليك B || الفلك C K : الفلك B || ذلك C K : ذلك B || ٤ مثلية : مثليه ٠.٠ || حيّية : عينيه ٠.٠ || غيبية : غيبيه ٠.٠ || عدنية : عدنيه ٠.٠ || ٥ قلمية : قلميه ٠.٠ || يقينية : يقينيه ٠.٠ || مدادية : مداديه ٠.٠ || لوحية : لوحيه ٠.٠ || ٦ آدمية : آدميه ٠.٠ || ٨ ذلك C K : ذلك B || لها : له ٠.٠ || ٩ الماء C K : الماء B || ١٠ وجودك C K : وجودك B || ١١ سبحانه C K : سبحنه B || واحكامك C K : واحكامك B || ١٢ واختصاصك C K : واختصاصك B .

١ «فظهرت صورة مثليّة» . — الصورة المحمدية هي طبق الأصل لعالم المثال : ومن ثمّ كانت مشاهدها عينية لا تغشاها شوائب الفكر ولا أحجبة الوهم ؛ ومشاربها غيبية لا تشد ولا تتحدد أو تقيد ؛ وجنتها عدنية في وسط السماء ؛ ومعارفها قلمية ، منبثقة من العقل الكلي والروح الأعظم ؛ وعلومها فطرية غير مكتسبة ، مشتقة من يمين القدرة الخلاقة ؛ واسرارها لا نهائية ، مستمدة من مداد الكلمات الالهية ؛ وأرواحها في غاية الصفاء والرواق ، منبثقة من سطوح النفس الكلية ، وطينتها من أشرف الأتربة والمواد الكونية .

٢ «فأنت أب لنا ... معروفاً» . — «أب لنا في الروحانية» : انظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ٢٢ . — «أباً لنا في الجسمانية» : انظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ٢١ . — «العناصر له أم ووالد» : الآباء العنصرية لكل موجود عنصري هما النار والهواء ، لأن من طبيعتها العلو ؛ والامهات العنصرية لكل موجود عنصري هما الماء والتراب ، لأن من طبيعتها السفلى . (انظر الفتوحات ١/١٣٨—١٤٣) . — «حقيقة الماء» : انظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ٢٨ .

(٣٠) [1]فلا يصح وجودُ المعدوم عن وجود العَيْن ؛ فإنه من أين يُعْقَل الأيْنَ ؟ فلا بُدَّ أن تكون ذات الشيء أيْناً لأمر ما ؛ لا يعرفه مَنْ أصبح عن الكشف على الحقائق أعْمَى . — وفي معرفة الصفة والموصوف . تَتَبَيَّن حقيقة الأيْن المعروف . وإلاّ . فكيف تسأل — صلّى الله عليك ! — بأين . وتقبل من المسئول فاء الظرف[2] . ثم [ورقة ٨ ب] تشهد له بالإيمان الصِّرف ؟ وشهادتك حقيقةٌ لا مجاز . ووجوبٌ لا جواز . فلولا معرفتك — صلّى الله عليك ! — بحقيقة ما (ل) ما قَبِلْتَ قولَه . مع كونها خرساء . في السَّما[1] .

(٣١) [3]ثم بعد أن أوجد (الله — تعالى ! —) العوالم اللطيفة والكثيفة ؛ ومَهَّد المملكة وَحَيَّأ المرتبة الشريفة ؛ أنزل في أوّل دَوْرة العذراء الخليفة . ولذلك جعل — سبحانه ! — مدتها في الدنيا سبع آلاف سنة ؛ وتَحِلُّ بنا في آخرها حالةُ فناء . بين نوم ويقظة . فننتقل إلى البرزخ الجامع للطرائق[4] .

---

٢ الشيء : الشي K ؛ الشي B ؛ الشوء C ‖ ٣ الحقائق C : الحقايق B K ‖ أعمى C : أعما K ؛ أعمي B ‖ ٤ تسأل C B : تسال K ‖ ٥ عليك C K : عيك B ‖ ٦ المسئول C : المسؤول K : المسؤول B ‖ فاء C : فا K : فاه B ‖ ٧ وشهادتك C K : وشهادتك B ‖ ٧ معرفتك C K : معرفتك B ‖ عليك C K : عيك B ‖ ٨ خرساء C : خرسا K ؛ خرسة B ؛ السما K : السماء C : السمآ B ‖ ١٠ وحيا C B : وحيا K ‖ العذراء C : العذرا K : العذرآء B ‖ ١١ سبحانه C K : سبحه B ‖ سبع آلاف C : سبع الاف K : سبعة آلاف B ‖ سنة : سنه ... ‖ ١٢ آخرها C B : اخرها K ‖ فناء C : فنا K : فناء B ‖ وسنة : وسنه ... ‖ الطرائق C : الطرايق B K .

---

١ « فلا يصح وجود المعدوم ... مع كونها خرساء في السماء » . — « الأيْن » : أنكر المتكلمون القدامى من الأشاعرة وجود المقولات والمفردات النسبية ، واعتبروها احوالاً ، أي أمور بين العدم والوجود ، إلاّ « الأين » وهو عندهم كون الجوهر الفرد (Atome) في الحيّز . (تاريخ الاصطلاحات الفلسفية للويز مـنيون — مخطوط على الآلة الكاتبة ص ص ٩٤—٩٥) .

٢ « فكيف تسأل بأين وتقبل من المسئول فاء الظرف » : اشارة الى سؤال النبي محمد الأمَة الخرساء : أين الله ؟ فأشارت بيدها الى السماء . فأقر النبي إيمانها وأوصى بعتقها .

٣ « ثم بعد أن اوجد ... سُرق اللطائف والنتف » . — « أنزل في أول دورة العذراء الخليفة » : يلاحظ هنا المطابقة الغريبة بين خلق آدم (الأول) في أول دورة العذراء ، من الوجهة الفلكية القديمة ، وبين ولادة عيسى بن مريم (مثل آدم عند الله) من العذراء نفسها ، من الوجهة الدينية .

٤ « البرزخ الجامع للطرائق » : اراد به الشيخ في هذا المقام الدار الآخرة ويوم القيامة . وعند الصوفية المتأخرين : البرزخ الجامع يستعمل عادة مرادفاً لبرزخ البرازخ الذي

وتغلب فيه الحقائقُ الطيّارة[1] على جميع الحقائق. فترجع الدَّولة للأرواح؛ وخليفتها في ذلك الوقت طائرٌ له ستّ مائة جناح. وتُرى الأشباحُ في حكم التَّبع للأرواح. فيتحوّل الانسان في أيّ صورة شاء، لحقيقة صحّت له عند البعث من القبور في الانشاء. وذلك موقوف على سوق الجنّة: سوق اللطائف والمنّة.

(٣٢) [2]فانظروا — رحمكم الله! وأشرتُ إلى آدم — في الزُّمُرُّدة البيضاء: قد أودعها الرحمن أوّل الآباء. وانظروا إلى النور المبين: وأشرتُ إلى الأب الثاني الذي سمّانا مُسلمين[3]. وانظروا إلى اللّجَيْن الأخلص: وأشرتُ إلى مَن أبرأ الأكمهَ والأبرصَ[4] بإذن الله: كما جاء به النصّ. وانظروا إلى جمال حمرة ياقوتة الشّمس: وأشرتُ إلى من بيعَ بثمنٍ بَخْسٍ. وانظروا

١ الحقائق C: الحقايق B K || ٢ ذلك C K: ذلك B || طائر C: طاير B K || ست مائة: ست مايه B: سمايه K: سمانة C || ٣ شاء C: شا K: شآء B || ٤ الانشاء C: الانشا K: الانشآء B || وذلك C K: وذلك B || ٥ اللطائف C: اللطايف B K || ٦ آدم C B: ادم K || البيضاء C: البيضا K: البيضآء B || ٧ الرحمن C B: الرحمان K || الآباء C: الابا K: الآبآء B || ٨ الثاني C K: الثالث B (مصحح على الهامش: الثاني، بقلم الأصل) || ٩ أبرأ C B: ابرا K || جاء C: جا K: جآء B

هو عالم الوحدة، الذي يستشرق به على معرفة أطراف كل شيء وحدوده؛ وهو نهاية المعرفة بالأشياء (لطايف الاعلام: مخطوط جامعة اسطنبول ٣٧/٢٣٥٥ ب، ١٦١ الف — ١٦١ ب).

١ «الحقائق الطيّارة»: هي الأرواح الانسانية في أجسادها السماوية، متحررة من ثقل أجسادها الارضية. — «طائر له ستّ مائة جناح»: هو جبريل خليفة دولة الأرواح وقائدها الى عالم الافراح. (انظر الآثار الخاصة به في دائرة المعارف الاسلامية ٢/٣٧٢ — ٣٧٣ (النص الفرنسي، الطبعة الثانية). — «سوق الجنة»: ويسمى سوق الصور استنادًا الى الحديث المنسوب الى النبي: «إن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلاّ الصور من الرجال والنساء» اخرجه الترمذي متفرقاً في موضعين من حديث علي: — انظر المغني عن حمل الاسفار للشيخ عبد الرحيم العراقي: حاشية الاحياء ٤/٥٤١، تعليق رقم ٤، والاحياء، نفس الموضع.

٢ «فانظروا — رحمكم الله! — ... الى من فضل بالكلام». — «أول الآباء»: من حيث الجسد لا من حيث الروح. وانظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ٢١. —

٣ «الذي سمانا مسلمين»: هو ابراهيم، انظر الآية رقم ٧٨ من سورة الحج (٢٢).

٤ «من أبرأ الأكمه والابرص»: هو عيسى بن مريم، انظر الآية رقم ٤٩ من سورة آل عمران (٣) والآية رقم ١١٠ من سورة المائدة (٥). — «من بيع بثمن بخس»: هو يوسف بن يعقوب، انظر الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف (١٢).

إلى [ورقة ٩ ألف] حمرة الإبريز ؛ وأشرت الى الخليفة العزيز[1] ؛ وانظروا إلى نور الياقوتة الصفراء في الظلام ؛ وأشرتُ إلى مَنْ فُضِّل بالكلام .

(٣٣) [2]فمن سعى إلى هذه الأنوار : حتى وصل إلى ما يكشفه طريقُها من الأسرار ؛ فقد عَرَف المرتبة التي هنا وُجد ؛ وَصَحَّ له المقام الإلّي وله سُجد . فهو الرب والمربوب والمحب والمحبوب .

أَنْظُرْ إِلَى بَدْءِ ٱلْوُجُودِ وَكُنْهِهِ ... فَهُنَا تَرَ ٱلْجُودَ ٱلْقَدِيمَ ٱلْمُحْدِثَا
فَالشَّيْءُ مِثْلُ الشَّيْءِ إِلَّا أَنَّهُ ... أَبْدَاهُ فِي عَيْنِ ٱلْعَوَالِمِ مُحْدَثَا

---

٢ الصفراء C : الصفرا K : الصفرآء B || ٣ سعى C : سعا K : سعي B || الى هذه C : الى هاذه K : هذه B || ما يكشفه .ن. : ÷ لك B || ؛ الإلّي : الإلّيّ B : الال C K || ٦ بد C B : به K || تر C : ترى K : تري B || ٧ فالشيء : فالشى K : فالشيء B : والشيء C .

---

١ « الخليفة العزيز » : هو هرون اخو موسى . انظر الآية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف (٧) . — « من فُضِّل بالكلام » : هو موسى بن عمران ؛ انظر القرآن ٤/١٦٣ ؛ ٧/١٤٢ ؛ ١٤٣ ؛ ١٢/٥٤ . ثم هذا ، وترتيب الانبياء المذكور هنا يختلف عما هو معروف في الآثار الاسلامية : آدم في السماء الأولى ، ثم يوسف في السماء الثانية ، ثم يحيى وعيسى في الثالثة ؛ ثم إدريس في الرابعة ، ثم هرون في الخامسة ؛ ثم موسى في السادسة ، ثم ابراهيم في السابعة . انظر شهاب الشريعة للآجري ص ٤٨٦—٤٨٧ (القاهرة ١٩٥٠) .

٢ « فمن سعى الى حده ... وكان مثلثاً » . — « المقام الإلّي » : هو المقام الالهي الجامع الذي يصدق على من تحقّق فيه ان يقال عنه : إنه رب انساني وانسان رباني ! والإلّ هو الله والعهد والقرابة . وأصل وضعه مشترك بين اللغات السامية ، فهو بالعبرية : إلُوه ؛ وبالسريانية : إيل . يراجع بحث الأب الفاضل يواكيم مبارك عن الأسماء والصفات الالهية الواردة في القرآن وما يقابلها في اللغات السامية : *Les Noms, Titres et Attributs de Dieu dans le Coran et leur corres. en étig. Sud-Sémi.*, in *Le Muséon*, LXVIII, 6-7.

هذا ، وجاء في مخطوط رشح الزلال : لمؤلف مجهول : الإلّية هو كل اسم إلاهي مضاف الى مَلَك او روحاني ، كجبريل وميكائيل . فان جبر وميكا من اسماء الملائكة ؛ وقد أضيفا إلى إيل ، وهو بالسريانية والعبرية بمعنى الله (...) والروحاني مثل الجن . فان اسماءهم انما تضاف الى إيل إن كانوا من أهل النور ، وتضاف الى الشين إن كانوا من المرّدة كقوس وقليوس . وان كان الروحاني إنساناً تروحن وبلغ في التقديس حدّ الحق — تعالى ! — سمي بمثل هذه الاسماء كنبايل واسماعيل » (مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٤٨٠١/١٢٢ ألف — ١٢٢ ب) .

إِنْ أُقْسِمَ الرَّائِي بِأَنَّ وُجودَهُ أَزَلًا[1] قَبَرٌ صَدِيقٌ لَن يَحْنَثَا
أَو أُقْسِمَ الرَّائِي بِأَنَّ وُجودَهُ عَنْ فَقْدِهِ[2] أُخْرَى وَكَانَ مُثَلَّثَا[3]

(٣٤) ثم أظهرتُ أسراراً[4] ، وقصصت أخباراً . لا يسع الوقتُ إيرادها . ولا يعرف أكثرُ الخلق إيجادها . فتركتها موقوفةً على رأس مئة عام . خوفاً من وضع الحكمة في غير موضعها . — ثم رُددتُ من ذلك المشهد السنيّ العليّ : إلى العالم السفليّ . فجعلت ذلك الحمد المقدَّس خطبة الكتاب : وأخذت في تتميم صدره . ثم أشرع بعد ذلك في الكلام على ترتيب الأبواب . — والحمد لله الغنيّ الوهّاب ! ١

١ الرائي C : اترای K : الرآتي B || ٢ الرائي C : آترای K : الرآتي B || ٣ عن فقده ... : (على هامش B ، بقلم الأصل : « ولم يكن » ، مع علامة : خ : أي رواية أخرى تنص) لا ... : رأس C B : راس K : ذلك C K : ذلك B || ٦ ذلك C K : ذلك B || ٨ الغني C K : الغني B .

١ « وجوده ازلاً » : الوجود الازلي للممكن هو من حيث عينه الثابتة التي هي موضوع علم الله الأزلي . — انظر ما تقدم التعليق على الفقرة الأولى . —

٢ « وجوده عن فقده » : أي عن عدمه وهو العدم الذي يسبق الوجود العين للممكن . انظر ما تقدم ايضاً التعليق على الفقرة الاولى . —

٣ « وكان مُثَلَّثاً » : كل موجود هو « مُثَلَّث » من حيث اضلاعه ومن حيث زواياه . من حيث الأضلاع : لأن هناك ضلع المُسَبِّب الذي يقع منه الإيجاد ، وضلع السبب الذي به الإيجاد (او بتعبير ادق : عنده الايجاد) ، وضلع المُسبَّب الذي إليه الإيجاد . — ومن حيث الزوايا : لأن هناك زاوية المُسَبِّبية التي منها يقع الإيجاد ، وهي تعطي رفع المناسبة بين المُوجِد والمُوجَد لأنها زاوية الغيب ، وهناك زاوية السببية التي بها (او عندها) يقع الإيجاد ، وهي تعطي حصول المناسبة بين المُوجِد والمُوجَد . وبالتالي تعطي رفع الالتباس عن مدارك الكشف والنظر وتقيم مبدأ المعرفة على أساس متين ؛ وأخيراً ، هناك زاوية المُسَبَّبية التي إليها يقع الإيجاد ، وهي توضح طريق السعادة الى محل النجاة . قولا وفعلاً واعتقاداً . (كشف الغايات ، مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٢٠/٤٨٠١ ب — ٢١ ب ، وانظر التجليات الالهية ، تجل رقم ١ وتعليقات ابن سودكين على التجليات ، مخطوط الفاتح ٣/٥٣٢٢ الف) .

٤ « ثم أظهرتُ اسراراً ... الغني الوهاب » . — « وضع الحكمة في غير موضعها » : اشارة الى الخبر المروي عن عيسى بن مريم في الآثار الاسلامية : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتضيعوها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » (جذوة الاصطلا المنسوب الى ابن عربي ، مخطوط جمعة يل (الولايات المتحدة الاميركية) ٢ : ٤/٦٤ الف ؛ طبقات

(٤ – رسالة الى الشيخ عبد العزيز المهدوي)

(٣٥) [1]هذه رسالة كتبت بها الى بعض الفقراء – رضي الله عنه ! – ؛ أما بعد . فإنه :

لَمَّا انْتَمَى لِلْكَعْبَةِ الْحَسْنَاء جِسْمي وحَصَّلَ رُتْبَةَ الأُمناء[2]

---

٢ كتبت بها C K : كتبها B ‖ الى بعض ... عنه B : – C K ‖ الفقراء : الفقراء B ‖ ؛ : – C K ‖ الحسنا C : الحسنة B ‖ الامناء C : الامنة B K .

التصوفية للسلمي ٣٢ (القاهرة) ؛ الاحياء ١/٣٧-٥٧ (القاهرة) ؛ وجامع الأسرار للآملي ص ٢٠ (طهران ١٩٦٩) . – والنص في الجيل مني : « لا تعطوا الكلاب الأشياء المقدسة ولا تطرحوا لآليكم تحت أرجل الخنازير » ٦/٧ ؛ ويراجع في العهد القديم : مثل الأمثال ٢٣/٩) .

١ « هذه رسالة كتبت ... إلى الأبناء » . – « بعض الفقراء – رضي الله عنه ! – » : هو الشيخ عبد العزيز المهدوي القرشي كما سيذكر ذلك صراحة ابن عربي في آخر القصيدة (البيت رقم ١١٦ ما قبل البيت الأخير) وانظر كذلك الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي . محمد البهلي النيال . ص ٢١٨ . تونس ١٩٦٤ . – وترجمة المهدوي هذا . سنشير إليها عند ذكر اسمه صراحة في آخر القصيدة . – ومما يجدر ملاحظته في هذا الموطن ان عنوان هذه الرسالة في النسخة الاولى للفتوحات التي بدأها الشيخ ابن عربي بمكة سنة ٥٩٩ (أثناء حياة شيخه عبد العزيز المهدوي) هو ما أثبتناه في صلب النص . أما في النسخة الثانية للفتوحات التي بدأها بدمشق سنة ٦٣٣ (بعد وفاة شيخه هذا) فقد اسقط منها : الى بعض الفقراء – رضي الله عنه ! – .

٢ « وحصل رتبة الأمناء » : الأمناء هم الملامتية ؛ وعند الشيخ هم رؤساء أهل طريق الله . انظر كتاب التجليات لابن عربي : تجل رقم ٥ ، وكشف الغايات ؛ المنشور في مجلة المشرق ، عدد تشرين الثاني – كانون الأول ١٩٦٦ ص ص ٦٨١–٦٨٥ ؛ وتعليقات ابن سودكين على التجليات ؛ المنشور بنفس المجلة ؛ نفس العدد ؛ نفس الصفحات ؛ وانظر أيضاً الفتوحات لابن عربي ١/١٨١–١٨٢ ؛ ٢/١٦ : ٢٠ : ٣/٣٤–٣٧ ؛ ورسالة الملامية للسلمي ، نشر المرحوم عفيفي ؛ القاهرة ١٩٤٥ ؛ ولطايف الاعلام مخطوط جامعة اسطنبول ١٦/٢٣٥٥ الف ؛ ٥٨ ب ؛ ١٦٦ ألف . – وبخصوص دخول ابن عربي في طريق الملامتية بمكة ؛ أو الاخوة في الطريق ؛ انظر ابن عربي لعبد الرحمن بدوي (ترجمة لكتاب: *El Islam Cristianizado* لآسين بلاثيوث: ص ٥٩ ، القاهرة ١٩٦٥ ؛ وتاريخ الفكر الأندلسي ؛ ترجمة حسين مؤنس ص ٣٧٤ ؛ القاهرة ١٩٥٥ ؛ الذي هو ترجمة لكتاب : *Historia de la Literatura Arabiga-Española*, de A. Gonzalez Palencia.

وَسَعى وَطافَ[1] ثُمَّ عِنْدَ مَقامِها ... صَلَّى وَأَثْبَتَهُ مِنَ ٱلْعُقَقاءِ
مَنْ قالَ هٰذا الفِعْلُ فَرْضٌ واجِبٌ ... ذاكَ ٱلْمُؤَمَّلُ خاتَمُ ٱلنُّبَسَآءِ
وَرَأى بِها ٱلْمَلأَ ٱلْكَريمَ وَآدَماً ... قَلْبي فَكانَ لَهُمْ مِنَ ٱلْقُرَناءِ
وَلِآدَمٍ وَلَدًا تَقِيًّا طائِعًا ... ضَخْمَ ٱلدَّسيعَةِ أَكْرَمَ ٱلْكُرَماءِ
وَٱلْكُلُّ بِالبَيْتِ ٱلْمُكَرَّمِ طائِفٌ ... وَقَدِ ٱخْتَفى فِي ٱلْحُلَّةِ ٱلسَّوْداءِ[2]
يُرخي ذَلاذِلَ بُرْدِهِ[3] لِيُريكَ في ... ذاكَ ٱلتَّبَخْتُرِ نَخْوَةَ ٱلْخُيَلاءِ
وَأَبي عَلى ٱلْمَلإِ ٱلْكَريمِ مُقَدَّمٌ ... يَمْشي بِأَضْعَفِ مِشْيَةِ ٱلزُّمَناءِ[4]
وَٱلْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ أَبيهِ مُطْرِقٌ ... فِعْلَ ٱلأَديبِ وَجَبْرَئيلُ إِزائي
يُبْدي ٱلْمَعالِمَ وَٱلْمَناسِكَ خِدْمَةً ... لِأَبي لِيورِثَها إِلى ٱلْأَبْناءِ

---

١ وسعى C B : وبها K || انتقاء C : انتقاه B K || ٢ المتهل C B : المتهيل K || النبآء B K : النبآه C || ٣ ورأى C B : وراى K || الملأ C B : الملا K || وآدما C B : وادما K || القرناء C : القرناه B K || ٤ ولآدم C B : ولادم K || الكرماء C : الكرماه B K || ٥ طائف C : طايف B K || السوداء C : السوداه B K || ٦ ليريك C K : لبريك B || ذاك C K : ذاك B || الخيلاء C : الخيلاه B K || ٧ الملأ C B : الملا K || الزمناء C : الزمناه B K || ٨ وجبرئيل C : وجبريل K : وجبريل B || ازائي C : ازآني B : ازآمن K || ٩ والمناسك C K : والمناسك B || الأبناء C : الابناه B K .

---

١ «وسعى وطاف» : اشارة الى شعيرتي السعي بين الصفا والمروة ، والطواف حول الكعبة : وهما من شعائر الحج ومراسمه . — «وثم عند مقامها» : اي عند مقام ابراهيم في الحرم الشريف . — «خاتم النبآء» : خاتم النبيين . وانظر ما تقدم التعليق على النقرة رقم (١٥) . — «الملأ الكريم» : الملائكة . — «ضخم الدسيعة» : من معاني الدسيعة المناسبة لهذا النص : المنكبان ، الشمائل ، المائدة . فالنبي محمد : كما هو معروف في كتب السيرة كان عظيم المنكبين ، كريم الشمائل ، موفور القوة ، فسيح المائدة لمن يغشاها .

٢ «الحُلَّة السوداء» : كسوة الكعبة . والحُلَّة ، لغةً ، هي الإزار والرداء معاً . —

٣ «ذلاذل بُرْده» : الذلاذل جمع ذُلْذُل وذُلاذل ، وهو طرف الثوب او البُرْد الأسفل ، المرسل على الأرض . — «الخُيلاء» : الكِبْر والعَظَمة . —

٤ «الزُمَناء» : جمع زَمِن ، وهو المصاب بالآفات المبتلى بالعاهات . —

(٣٦) فَعَجِبْتُ مِنْهُمْ كَيْفَ قَالَ جَمِيعُهُمْ بِفَسَادِ وَالِدِنَا وَسَفْكِ دِمَاءِ؟
إِذَا كَانَ يَحْجُبُهُمْ بِظُلْمَةِ طِينِهِ عَمَّا حَوَتْهُ مِنَ سَنَا الْأَسْمَاءِ
وَبَدَا بِنُورٍ لَا يُعَايِنُ غَيْرَهُ لَكِنَّهُمْ فِيهِ مِنَ الشُّهَدَاءِ
أَنْ كَانَ وَالِدُنَا مَحَلًّا جَامِعًا لِلْأَوْلِيَاءِ مَعًا وَلِلْأَعْدَاءِ
وَرَأَى الْمُوَيْهَةَ وَالنُّوَيْرَةَ جَاءَتَا كَرْهًا بِغَيْرِ هَوًى وَغَيْرِ صَفَاءِ
فَبِنَفْسِ مَا قَامَتْ بِهِ أَضْدَادُهُ حَكَمُوا عَلَيْهِ بِغِلْظَةٍ وَبَذَاءِ
وَأَتَى يَقُولُ: أَنَا الْمُسَبَّحُ وَالَّذِي ما زالَ يَحْمَدُكُمْ صَبَاحَ مَسَاءِ!
[ورقة ١٠ ظ] وَأَنَا الْمُقَدَّسُ ذَاتَ نُورٍ جَلَّ لِكُمْ وَأَتَوْا فِ حَتَّ أَبِي بِكُلِّ جَفَاءِ
لَمَّا رَأَوْا جِهَةَ الشِّمَالِ وَلَمْ يَرَوْا مِنْهُ يَمِينَ الْقَبْضَةِ الْبَيْضَاءِ

١ وسفك CK : وسفك B || دماء C : دماء BK || ٢ سنا CB : سنى K || ٣ الاسماء C : الاسآء BK || ٣ لا يعاين BK (تصحيح على الهامش بقلم الأصل): ليس فيه C (وكذا BK قبل التصحيح) || لكنهم CB : لاكنهم K || الشهداء C : الشهدآء BK || ٤ للأولياء CK : للأوليآء B || وللأعداء C : وللأعدآء BK || ٥ ورأى C : ورأى K : ورأي B || جاءتا CK : جآءتا B || صفاء C : صفآء BK || ٦ وبذاء C : وبذآء BK || ٧ سنا C : سآء BK || ٨ جفاء C : جفآء BK || ٩ رأوا CB : راوا K || البيضاء C : البيضآء B .

١ « فعجبت منهم ... نصرة الضعفاء » . — « بفساد والدنا وسفك دماء » : اشارة الى الآية الثلاثين من سورة البقرة (٢/٣٠) . — « بظلمة طينه » : اشارة مجازية الى النشأة الترابية لآدم ولنوع الانساني . وبخصوص معاني الطينة من الوجهة الفلسفية . انظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ١٥ . — « من سنا الأسماء » : إشارة الى الآية رقم ٣١ من سورة البقرة (٢) . — « لا يُعاين غيره » : رواية النسخة الاولى للفتوحات : « ليس فيه غيره » أولى في هذا المقام : آدم الحقيقي ظهر بنور وحيد لا يشاركه فيه غيره . اما بقية الملائكة فكانوا شهداء له أو أمامه . .

٢ « محلا جامعاً للاولياء معاً وللاعداء » : الأولياء هم الملائكة ، والاعداء هم الشياطين . والنشأة الآدمية محل جامع لهؤلاء كلهم بفطرتها التكوينية ، وكذلك هو بانتصار الجانب الملائكي في الانسان على الجانب الشيطاني . —

٣ « المُوَيْهة والنُّوَيْرة » تصغير الماء والنار ، وهما من العناصر المختلفة القائم عليها تكوين الانساني الجسدي . — « أنا المُسَبَّح ... وأنا المُقَدَّس » : اشارة الى الآية الثلاثين من سورة البقرة (٢) . —

٤ « جهة الشمال » : اشارة الى نزعة الشر في الانسان . — « يمين القبضة البيضاء » : اشارة الى نزعة الخير في الانسان : — « ربا طالب استيلاء » : الانسان ربّاني في أصله

وَرَأَوْا نُفُوسَهُمُ عَبِيدًا خُشَّعًا وَرَأَوْهُ رَبًّا طَالِبَ اسْتِيلَاءِ
لِحَقِيقَةٍ جَمَعَتْ لَهُ أَسْمَاءَ مَنْ خَصَّ الْحَبِيبَ بِلَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ
وَرَأَوْا مُنَازَعَةَ اللَّعِينِ بِجُنْدِهِ يَرْنُو إِلَيْهِ بِمُقْلَةِ الْبَغْضَاءِ
وَبِذَاتِ وَالِدِنَا مُنَافِقُ ذَاتِهِ حَظُّ الْعُصَاةِ وَشَهْوَتَا حَوَّاءِ
عَلِمُوا بِأَنَّ الْحَرْبَ حَتْمًا وَاقِعٌ مِنْهُ بِغَيْرِ تَرَدُّدٍ وَإِبَاءِ
فَلِذَاكَ مَا نَطَقُوا بِمَا نَطَقُوا بِهِ فَاعْذُرْهُمُ فَهُمُ مِنَ الصُّلَحَاءِ
فُطِرُوا عَلَى الْخَيْرِ الْأَعَمِّ جِبِلَّةً لَا يَعْرِفُونَ مَوَاقِعَ الشَّحْنَاءِ
وَمَتَى رَأَيْتَ أَبِي وَهُمْ فِي مَجْلِسٍ كَانَ الْإِمَامَ وَهُمْ مِنَ الْخُدَمَاءِ
وَأَعَادَ قَوْلَهُمُ عَلَيْهِمْ رَبُّنَا عَدْلًا فَأَنْزَلَهُمْ إِلَى الْأَعْدَاءِ
فِحِرَابَةُ الْمَلَإِ الْكَرِيمِ عُقُوبَةٌ لِمَقَالِهِمْ فِي أَوَّلِ الْآبَاءِ

١ ورأوا CB : ورأوا K || ورأوه CB : ورأوه K || استيلاء C : استيلاء BK ||
٢ اسماء CK : اسماء B || الاسراء C : الاسراء BK || ٣ ورأوا CB : ورأوا K ||
البغضاء C : البغضاء BK || ٤ حواء C : حواء BK || ٥ وابا C : وابا BK ||
٦ فلذاك CK. فلذاك B || الصلحاء C : الصلحاء BK || ٧ الشحناء C : الشحناء
BK || ٨ رأيت CB : رايت K || الخدماء C : الخدماء BK || ٩ الأعداء C :
الاعداء BK || ١٠ الملا C : الملاء BK || الآبا C : الآبا BK .

العلوي ، حيث تحقق الحظيرية عموم الاهلية والامكانية ، جامعاً لما ظهر ولما بطن من الحيثيتين ، متساوي النسبة الى كل شيء في سوائيته ، لا ميل له ، من هذه الحيثية ، الى جهة تقيده وتحصره . من أجل ذلك كله لم يحمل الانسان التحجير عليه ولا التكليف . (كشف الغايات : مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٣٦/٤٨٠١ ب ؛ والتجليات الالهية لابن عربي ، تجلٍّ رقم ١٢ ؛ وتعليقات ابن سودكين على التجليات : مخطوط الفاتح ٦/٥٣٢٢ ب — ٧ ألف) .

١ « وبذات والدنا ... وشهوتا حواء » : اشارة الى الاعداء الاربعة المتربصة للانسان : الشيطان والدنيا والهوى والمال . وشهوتا حواء هما المال والهوى . ومنافق الذات هو الشيطان . وحظ العصاة هي الدنيا .

٢ « فحرابة » : الحرابة بفتح الحاء وكسرها هي المحاربة . — « يَوْمَ بَدْرٍ » : تأييد الملائكة يوم بدر ثابت في سورة الانفال ٨/٥—١٨ ؛ وبخصوص غزوة بدر التي كانت في العام الثاني من الهجرة (٦٢٤/٣) يراجع كتاب المغازي للواقدي : ٢٧—٩٠ (كلكته ١٨٥٦) ؛ وكتاب سيرة رسول الله لابن هشام ٤٢٧—٥٣٩ : (ط. المانيا) ١٨٥٩—١٨٦٠ ؛ وتاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ١٢٨١—١٣٥٩ ، ليدن ١٩٠١ .

أَوَ ما تَرى في يَوْمِ بَدْرٍ حَرْبَهُمْ وَنَبِيُّنا في نِعْمَةٍ وَرَخاءِ
بِعَرِيشِهِ مُتَمَلِّقًا مُتَضَرِّعًا لِإِلٰهِهِ في نُصْرَةِ الضُّعَفاءِ

(٣٧) لَمَّا رَأَى هٰذي الْحَقائِقَ كُلَّها مَعْصومَةً قَلْبي مِنَ الْأَهْواءِ
نادى فَأَسْمَعَ كُلَّ طالِبِ حِكْمَةٍ يَطْوي لَها بِشِمِلَّةٍ وَجْناءِ
ظَنَّ الَّذي يَرْجو لِقاءَ مُرادِهِ فَيَجوبُ كُلَّ مَنازِقٍ بَيْداءِ
[١٠ ب] يا راحِلًا يَقِصُ الْمَهامِهَ قاصِدًا نَحْوي لِيَلْحَقَ رُتْبَةَ السُّراءِ
قُلْ لِلَّذي تَلْقاهُ مِنْ هُجْراني عَنِّي مَقالَةَ أَنْصَحِ النُّصَحاءِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ خاسِرٌ في حَيْرَةٍ لَمَّا جَهِلْتَ رِسالَتي وَنِدائي
إِنَّ الَّذي ما زِلْتُ أَطْلُبُ شَخْصَهُ أَلْفَيْتُهُ بِالرَّبْوَةِ الْخَضْراءِ
أَلْبَلْدَةِ الزَّهْراءِ بَلْدَةِ تِينُسٍ أَلْحَضْرَةِ الْمُزْدانَةِ الْغَرَّاءِ
بِسَحَنِهِ الْأَسْنَى الْمُقَدَّسِ تُرْبُهُ بِحُلولِهِ ذي الْقِبْلَةِ الزَّوْراءِ
في عُصْبَةٍ مُخْتَصَّةٍ مُخْتارَةٍ مِنْ صُفَّةِ النُّجَباءِ وَالنُّقَباءِ

١ ترى CK : تري B ‖ وريخاه C : وريخاء BK ‖ ٢ لاهه : ٧٧لاهه BK : لاهه C ‖ الضعفاء C : الضعفاء BK ‖ ٣ رأى C : رءاى K : رأي B ‖ الخفائق C : الخفايق BK ‖ الاهواء C : الاهوآء BK ‖ ٤ نادى CK : نادي B ‖ وجناء C : وجناء BK ‖ ٥ لقاه CK : لقآء B ‖ بيداء C : بيدآء BK ‖ ٦ السراء C : السرآء BK ‖ ٧ هجراني : هجراي K : شجراني CB (والشين مهملة في B والكلمة غير واضحة) ‖ النصحاء C : النصحآء BK ‖ ٨ بأنك CK : بأنك B ‖ رسالتي C K : مقالتي B (وعلى الحاشية : رسالتي) ‖ ونداني C : وندآءى K : وندآني B ‖ ٩ الخضراء C : الخضرآء BK ‖ ١٠ الخضرة BK : الخضرة C ‖ الغراء C : الغرآء BK ‖ ١١ الزوراء C : الزورآء BK ‖ ١٢ النجباء C : النجبآء BK ‖ والنقباء C : والنقبآء BK .

١ «ولما رأى هذي ... صاف من الأقذاء» . — «بشملة وجناء» : الشملة هي الناقة السريعة ؛ والوجناء الناقة ذات الوجنتين الشديدتين .

٢ «يقص المهامه» : أي يجتاز الصحاري الواسعة ويطويها بسرعة . —

٣ «رتبة السمراء» : أي رتبة الأمناء الذين هم أعلى طبقات الصوفية ؛ وانظر ما تقدم التعليق على النقرة رقم (٣٥) . — «الحضرة» : مقر الملك او الأمير بين الحواضر . — «القبلة الزوراء» : المكان المرتفع الذي يصلي تجاهه ، او قبلة الصلاة التي يؤمها الناس فرادى وجماعات .

٤ «صفة النجباء والنقباء» : علية النجباء والنقباء وصفوتهم . والنجباء هم اربعون

يَمْشِي بِنِيمٍ فِي نُورِ عِلْمِ هِدايَةٍ مِنْ هَدْيِهِ بِالسُّنَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ
وَٱلذِّكْرُ يُتْلَى وَٱلْمعارِفُ تَنْجَلِي فِيهِ مِنَ الإِمْساءِ لِلإِمْساءِ
بَدْرًا لأَرْبَعَةٍ وَعَشْرٍ لا يُرَى أَبَدًا مُنَوِّرَ لَيْلَةٍ قَمْراءِ
وَٱبْنُ ٱلْمُرابِطِ[1] فِيهِ واحِدُ شانِهِ جَلَّتْ حَقائِقُهُ عَنِ ٱلإِفْشاءِ
وَبَنُوهُ قَدْ حَفُّوا بِعَرْشِ مَكانِهِ فَهُوَ ٱلإِمامُ وَهُمْ مِنَ ٱلْبُدَلاءِ[2]
فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهُمْ فِي مَجْلِسٍ بَدْرٌ تَحُفُّ بِهِ نُجُومُ سَماءِ
وَإِذا أَتاكَ بِحِكْمَةٍ عُلْوِيَّةٍ فَكَأَنَّهُ يُنْبِي عَنِ ٱلْعَنْقاءِ

١ اليفاء C: اليفاء B K ‖ ٢ الاماء C : الامآء B K ‖ للامآء C : للامآء B K ‖ ٣ لا يرى : لا يرا K : لا يري B ‖ قراء C : قرآء B K ‖ ٤ حقائقه C : حقايته B K ‖ الافشاء C : الانشآء B K ‖ ٥ البدلاء C : البدلآء B K ‖ ٦ فكأنه وكأنهم C : فكانه وكانهم B K ‖ سماء C : سمآء B K ‖ ٧ أتاك C K : أتاك B ‖ فكأنه C B : فكانه K ‖ العنقاء C : العنقآء B K .

شخصاً مثقلين بحمل أثقال الخلق ، فلا يتصرّفون إلاّ في حق الغير (انظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ٢٥)ب . أما النقباء فهم الذين استخرجوا خبايا النفس . وهم ثلاث مائة . اشرفوا على الضمائر حين انكشفت لهم أستار السرائر ، فرأوا بواطن الأشياء لتحققهم بالعبودية (لطايف الأعلام ، مخطوط جامعة اسطنبول ١٧١/٢٣٥٥ ب ، ١٧٢ ألف) . —

١ « وابن المرابط » : أبو عبدالله (أو عبدالله) ، ذكر مرتين في هذه الرسالة ، وترجم له ابن عربي باقتضاب في كتابه : روح القدس ومناصحة النفس ، ورقة ٧٣ الف من مخطوط جامعة اسطنبول A٧٩ . وقد جاء في كتاب أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني ، أثناء ترجمته للشيخ عبد العزيز بن أبي بكر المهدوي — شيخ ابن عربي — : « وكان لعبد العزيز تلميذ مبارك وخادم اسمه عبدالله . وكان هو خادم الزنبيل ، أي يطلب القوت لهم . وكان عبد العزيز اذا فهم الجوع عن اصحابه يقول لهم : الآن يجيء ابوكم عبدالله ! » ص ٩٨ (الرباط — منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي — ١٩٦٤) . فلعل عبدالله هذا ، هو ابن المرابط نفسه .

٢ ~~« فهو الإمام وهم من البدلاء »~~ : انظر ما تقدم التعليق على الفقرة رقم ٢٥ بما يخص المعنى الفني للامام والبدلاء أو الأبدال . — « العنقاء » : طائر خرافي لا وجود له . وعند الصوفية اتخذ هذا الاسم رمزاً للمادة الاولى التي فتح الله بها صور العالم ففي معلومة غير موجودة . انظر لطايف الاعلام ، مخطوط جامعة اسطنبول ١٢٦/٢٣٥٥ ب . وانظر دائرة المعارف الاسلامية (E. I) النص الفرنسي ، الطبعة الثانية ، المجلد الاول ص ٥٢٤ ، مقالة عنقاء 'Anka' .

فَلَزِمْتُهُ حَتَّى إِذا حَلَّتْ[1] بِهِ ... أُنْثَى لَهـا نَجْلٌ مِنَ ٱلْعُرَباءِ
حَبْرٌ مِنَ الأَحْبارِ عاشِقُ نَفْسِهِ ... سِرُّ ٱلْمَجانَـةِ سَيِّدُ الظُّرَفـاءِ
مِنْ عُصْبَةِ النُّظَّارِ وَٱلْفُقَهاءِ ... لٰكِنَّهُ فيهِمْ مِنَ ٱلْفُضَلاءِ
[١١١] وانى وَعِنْدي لِلتَّنَقُّلِ نِيَّةٌ ... في كُلِّ وَقْتٍ مِنْ دُجىً وَضُحاءِ[2]
فَتَرَكْتُهُ وَرَحَلْتُ عَنْهُ وَعِنْدَهُ ... مِنِّي تَغَيُّرُ عَبْرَةِ الأُدَبـاءِ
وَبَدا يُخاطِبُني بِأَنَّكَ خُنْتَني ... في عِتْرَتي وَصَحابَتي ٱلْقُدَماءِ
وَأَخَذْتَ تائِبَنا ٱلَّذي قامَتْ بِهِ ... داري وَلَمْ تُخْبِرْ بِهِ سُجَرائي[3]
وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ نِيَّتي وَطَوِيَّتي ... في أَمْرِ تائِبِهِ وَصِدْقَ وَفائي
فَأَنا عَلَى ٱلْعَهْدِ ٱلْقَديمِ مُلازِمٌ ... فَوِدادُهُ صافٍ مِنَ ٱلْأَقْذاءِ[4]

=

(٣٨) وَمَتى وَقَعْتَ عَلى مُنَقَّشِ حِكْمَةٍ ... مَسْطورَةٍ في ٱلْغَضَّةِ ٱلْحَوْراءِ
مُتَحَيِّرٍ مُتَشَوِّفٍ قُلْنـا لَهُ : ... يا طالِبَ ٱلْأَسْرارِ في ٱلإِسْراءِ

---

١ الغرباء C : الغربآء B K || ٢ الظرفاء C : الظرفآء B K || ٣ والفقهاء C K : والفقهآء B || لكنه C B : لاكنه K || الفضلاء C : الفضلآء B || ٤ وانى C : وانا K : واني B || دجى C B : دجياً K || وضحاء C : وضحآء B K || ٥ الادباء C : الادبآء B K || ٦ عترتي K C : عترتي B || القدماء C : القدمآء B K || ٧ تائبنا C : تايبنا B K || دارى C K : داري B || سجراني C : سجرابي K : سجرآبي B || ٨ تائب C : تايبه K : تايبه B || وفائى C : وفاءى K : وفآيى B || ٩ الأقذاء C B : الاقذآء K || ١٠ الحوراء C : الحورآء B K || ١١ الاسراء C : الاسرآء B K .

---

١ « فلزمته حتى اذا حلت ... » : هذا البيت وما يليه من الأبيات مليء بالغموض والابهام : فهل اراد الشيخ هنا ذكر بعض الاحداث التاريخية كما هو الظاهر من السياق والسباق . او تسجيل بعض الظواهر النفسية الرمزية ؟

٢ « ضُحاء » : هو ارتفاع النهار الأعلى .

٣ « سُجَرائي » : جمع سَجير وهو الصديق الوفي .

٤ « الأقذاء » : جمع قذى وهو ما يسقط في العَيْن او في الشراب .

٥ « ومتى وقعت ... من الأسماء » . — « لبس الرداء ... » : لبس الرداء وعقد الازار رمز الاضطلاع بأعباء الحكم والسلطة . — « فاذا اراد تمتعاً بوجوده ... » : التمتع الكامل بالوجود هو في العودة إلى الحرية البريئة ؛ حرية الاطفال في أحضان الامومة . ونَعْتُ يبدو الوجود على حقيقته ، حيث لا وصف زائد ، ولا اسم حاجب ، ولا نعت مُقيِّد .

أَسْرِعْ فَقَدْ ظَفِرَتْ يَداكَ بِجامِعٍ لِحَقائِقِ الْأَمْواتِ وَالْأَحْياءِ
نَظَرَ الْوُجودَ فَكانَ تَحْتَ نِعالِهِ مِنْ مُسْتَوَاهُ إِلى قَرارِ الْماءِ
ما فَوْقَهُ مِنْ غايَةٍ يَعْنو لَها إِلّا هُوَ فَهُوَ مُصَرِّفُ الْأَشْياءِ
لَبِسَ الرِّداءَ تَنَزُّهًا وَإِزارَهُ لَمّا أَرادَ تَكَوُّنَ الْإِنْشاءِ
فَإِذا أَرادَ تَمَتُّعًا بِوُجودِهِ مِنْ غَيْرِ ما نَظَرٍ إِلى الرُّقَباءِ
شالَ الرِّداءَ فَلَمْ يَكُنْ مُتَكَبِّرًا وَإِزارَ تَعْظيمٍ عَلى الْقُرَناءِ
فَبَدا وُجودٌ لا تُقَيِّدُهُ لَنا صِفَةٌ وَلا اِسْمٌ مِنَ الْأَسْماءِ

(٣٩) إِنْ قيلَ: مَنْ هٰذا؟ وَمَنْ تَعْني بِهِ؟ قُلْنا: الْمُحَقِّقُ آمِرُ الْأُمَراءِ
شَمْسُ الْحَقيقَةِ قُطْبُها وَإِمامُها سِرُّ الْعِبادِ وَعالِمُ الْعُلَماءِ
[١١ ب] عَبْدٌ تَسَوَّدَ وَجْهُهُ مِنْ كَمِّهِ نُورُ الْبَصائِرِ خاتَمُ الْخُلَفاءِ
سَهْلُ الْخَلائِقِ طَيِّبٌ عَذْبُ الْجَنى غَوْثُ الْخَلائِقِ أَرْحَمُ الرُّحَماءِ
جَلَّتْ صِفاتُ جَلالِهِ وَجَمالِهِ وَبَهاءِ عِزَّتِهِ عَنِ النُّظَراءِ
يُمْضي الْمَشِيئَةَ في الْبَنِينَ مُقَسِّمًا بَيْنَ الْعَبيدِ الصُّمِّ وَالْأُجَراءِ
ما زالَ سائِسَ أُمَّةٍ كانَتْ بِهِ مَحْفُوظَةَ الْأَنْحاءِ وَالْأَرْجاءِ

١ يداك C K : يداك B || خفائق C : خفايق B K || والأحياء C : والاحياء B K || ٢ الله C : الله B K || ٣ الا هو C K : الاه B || الأشياء C : الأشياء B K || ٤ الرداء C : الردا K : الردآء B || الانشاء C : الانشاء B K || ٥ الرقباء C : الرقباء B K || ٦ الرداء C : الردا K : الردآء B || القرناء C : القرناء B K || ٧ الاسماء C : الاسماء B K || ٨ امر C B : امر K || الامراء C : الامرآء B K || ٩ العلماء C : العلمآء B K || ١٠ البصائر C : البصاير B K || الخلفاء C : الخلفآء B K || ١١ الخلائق C : الخلايق B K || الجنى C K : الجنا B || الرحماء C : الرحمآء B K || ١٢ وبهاء C : وبها K : وبهآء B || النظراء C : النظرآء B K || ١٣ المشيئة C : المشية B K || والاجراء C : والاجرآء B K || ١٤ سائس C : سايس B K || الانحاء C K : الانحآء B || والارجاء C : والارجاء B K .

١ «ان قيل : من هذا ؟... وينهلك الاعداء» . ـ «عبد تسوّد وجهه» : «لشدة القرب واسقاط التكليف . إذ وجود قابليات الاولياء : المستفيدة بحكم كمال انعكاذ الانوار الآلهية المفيضة اياها حالة القرب المفرط ، كحكم القمر المستفيد نور الشمس ليلة السرار . فالأولياء في هذا القرب دائمون عاجلاً وآجلاً . فقربهم المفرط يعطي سواد الوجه في الدارين» . (كشف الغايات ، مخطوط مكتبة باريز الوطنية ٤٨٠١/٨٦ ألف) .

شَرْيٌ إذا نـازَعْتَهُ فِي مُلْكِهِ أَرْيٌ إذا ما جِئْتَهُ لِجِباءِ
سَهْلٌ وَلٰكِنْ لَيِّنٌ لِعُفاتِهِ كالماءِ يَجْرِي مِنْ صَفًـا صَمّاءِ
يُغْنِي وَيُفْقِرُ مَنْ يَشاءُ فَأَمْرُهُ مُحْيِي الْوَلاءِ وَمُبْطِلٌ الْأَعداءِ

(٤٠) لا أَنْسَى إذْ قالَ الإمامُ مَقالَةً عَنْها تَقاصَرَ أَفْصَحُ الْخُطَباءِ
كُنّا بِنا وَرِداءُ وَصْلِيَ جامِعٌ لِذَوائِنا فَأَنا بِحَبْتُ رِدائي
فَانْظُرْ إلى السِّرِّ الْمُكَتَّمِ دُرَّةً مَجْلُوَّةً فِي اللُّجَّةِ الْعَمْياءِ
حَتّى يَحارَ الْخَلْقُ فِي تَكْيِيفِها عَيْنًا كَحَيْرَةِ عَرْدَةِ الإِبْداءِ
عَجَبًا لَها لَمْ تُخْفِها أَصْدافُها الشَّمْسُ تَنْفِي حِنْدِسَ الظَّلْماءِ
فَإِذا أَنا بِالسِّرِّ عَبْدٌ هٰكَذا قيلَ: اكْتُبوا عَبْدِي مِنَ الأُمَناءِ
أَنْ كانَ يُبْدِي السِّرَّ مَسْتورًا فَما تَدْرِي بِهِ أَرْضِي فَكَيْفَ سَمائي
لَمّا أَتَيْتُ بِبَعْضِ وَصْفِ جَلالِهِ إذْ كانَ عِيِّي واقِفًا بِحِذائي
قالوا: لَقَدْ أَلْحَقْتَهُ بِإِلٰهِنا فِي الذّاتِ وَالأَوْصافِ وَالأَسْماءِ
[١٢ا] فَبِأَيِّ مَعْنًى تَعْرِفُ الْحَقَّ الَّذي سَوّاكَ خَلْقًا فِي دُجى الأَحْشاءِ؟
قُلْنا: صَدَقْتَ وَهَلْ عَرَفْتَ مُحَقِّقًا مِنْ مُوجِدِ الْكَوْنِ الأَعَمِّ سِوائي؟

---

١ ماجته C : ماجيته B (غير واضحة فى K) || لجباه C : لحبآه B K || ٢ ولكن C : ولاكن B K || كالماء K C : كالمآء B || صفا C B : صفىٌ K || صماء C : صمآء B K || ٣ يشاء C K : يشآء B || ومهلك C K : ومهلك B || الاعداء C : الاعدآء B K || ٤ لا أنسى : لا أنسى .·. || تقاصر B : يقصر C K (وكذا B على الهامش بقلم جديد) || أفصح B : افصب C K (وكذا B على الهامش بقلم جديد) || الخطباء C : الخطبآء B K || ٥ ورداء C K : ورداء B || رداني C : ودآنى K : ردآنيB || ٦ العمياء C : العمآء B K || ٧ كحيرة B K : كحيرة C || الابداء C : الابدآء B K || ٨ الظلماء C : الظلمآء B K || ٩ أنى C : أتي B : انا K || هكذا C B : هاكذا K || عبدى C : عبدي B K || الامناء C : الامنآء B K || ١٠ سمائي C : سمآئى K : سمآني B || ١١ صبى C : صبي B K || بحذائي C : بحذائى K : بحذآني B || ١٢ بآلهنا : بالاحنا B K : بالهنا C || والاسماء C : والاسمآء B K || ١٣ سواك C K : سواك B || الاحشاء C : الاحشآء B K || ١٤ سوائي C : سوآئى K : سوآني B .

---

١ «شَرْيٌ ... أَرْيٌ» : اي صعب المراس اذا نازعته ملكه ؛ حلو ، سهل القياد اذا رجيت عطفه ورفده .

فَإِذا مَدَحْتُ فَإِنَّما أُثْنِي عَلى نَفْسي :فَنَفْسي عَيْنُ ذاتِ ثَنائي !

(٤١)وإِذا أَرَدتُّ تَعَرُّفًا بِوُجودِهِ قَسْتُ ما عِنْدي عَلى ٱلْغُرَماءِ
وَعُدِمْتُ مِنْ عَيْني فَكانَ وُجودُهُ فَظُهورُهُ وَقْفٌ عَلى إِخْفائي
جَلَّ الإِلٰهُ ٱلْحَقُّ أَنْ يَبْدو لَنا فَرْدًا وَعَيْني ظاهِرٌ وَبَقائي !
لَوْ كانَ ذاكَ لَكانَ فَرْدًا طالِبًا مُتَحَسِّسًا مُتَجَسِّسًا لِثُناءِ
هٰذا مُحالٌ فَلْيَصِحَّ وُجودُهُ في غَيْبَتي عَنْ عَيْنِهِ وَفَنائي

(٤٢)فَمَتى ظَهَرْتُ إِلَيْكُمُ أَخْفَيْتُهُ إِخْفاءَ عَيْنِ الشَّمْسِ في ٱلأَنْواءِ
فالنّاظِرونَ يَرَوْنَ نَصْبَ عُيونِهِمْ سُحُبًا تُصَرِّفُها يَدُ الأَهْواءِ
وَالشَّمْسُ خَلْفَ ٱلْغَيْمِ تُبْدي نورَها لِلسُّحْبِ وَٱلأَبْصارُ في الظَّلْماءِ
فَنَقولُ : قَدْ بَخِلَتْ عَلَيَّ وَإِنَّها مَشْغولَةٌ بِتَحَلُّلِ الأَجْزاءِ
لِتَجودَ بِالْمَطَرِ ٱلْغَزيرِ عَلى الثَّرى مِنْ غَيْرِ ما نَصْبٍ وَلا إِعْياءِ
وَكَذاكَ عِنْدَ شُروقِها في نورِها تَمْحو طَوالِعَ كُلِّ نَجْمِ سَماءِ
فَإِذا مَضَتْ بَعْدَ ٱلْغُروبِ بِساعَةٍ ظَهَرَتْ لِعَيْنِكَ أَنْجُمُ ٱلْجَوْزاءِ
هٰذا لِمِنَّتِها وَذاكَ لِحُبِّها في ذاتِها وَتَقولُ :حُسْنُ رُعاءِ
فَخَفاؤُهُ مِنْ أَجْلِنا وَظُهورُهُ مِنْ أَجْلِهِ وَٱلرَّمْزُ في ٱلأَنْباءِ

---

١ ثنائى C : ثنآءى K : ثنآي B ‖ ٢ واذا... الغرماء .. : (هذا البيت ثابت فى K على الهامش بقلم جديد) ‖ الغرماء C : الغرمآء BK ‖ ٣ اخفائى C : اخفآء K : اخفآي B ‖ ٤ ١ الاله : الالاء BK : الاله C ‖ وبقائى C : وبقاءى K : وبقآي B ‖ ٥ ذاك CK : ذاك B ‖ لثناء C : لثنآء BK ‖ ٦ وفنائى C : وفنآءى K : وفنآي B ‖ ٧ـ اخفاء CK : اخفآء B ‖ الانواء C : الانوآء BK ‖ ٨ الاهواء C : الاهوآء BK ‖ ٩ الظلماء C : الظلمآء BK ‖ ١٠ تقول B : فيقول C (اما فى K فالحرف الأول مهمل ، غير معجم) ‖ الأجزاء C : الاجزآء BK ‖ ١١ الثرى C : الثري B : الثرا K ‖ اعياء C : اعيآء BK ‖ ١٢ وكذاك CK : وكذاك B ‖ سماء C : سمآء BK ‖ ١٣ لعينك CK : لعينك B ‖ الجوزاء C : الجوزآء BK ‖ ١٤ لمنتها BK : لمنتها C ‖ وذاك CK : وذاك B ‖ لحبها BK : لحبها C ‖ رعاء BK : رآء C ‖ ١٥ فخفاؤه C : فخفاوه K : فخفآؤه B ‖ الأنباء C : الانبآء BK .

كَخفائِنا مِنْ أَجْلِهِ وَظُهورِنا مِنْ أَجْلِنا فَسَناهُ عَيْنُ ضِيائي

(٤٣) ثُمَّ ٱلْتَفَتْ بِالْعَكْسِ رَمْزًا ثانِيًا جَلَّتْ عَوارِفُهُ عَنِ الإِحْصاءِ
نَكَأَنَّنا سِيَّانِ في أَعْيانِنا كَصَفا الزُّجاجَةِ في صَفا الصَّهْباءِ
فَالْعِلْمُ يَشْهَدُ مُخْلِصَيْنِ تَأَلُّفا وَالْعَيْنُ تُعْطي واحِدًا لِلرَّائي
فَالرُّوحُ مُلْتَذٌّ بِمُبْدِعِ ذاتِهِ وَبِذاتِهِ مِنْ جانِبِ ٱلْأَكْفاءِ
وَالْحِسُّ مُلْتَذٌّ بِرُؤْيَةِ رَبِّهِ فانٍ عَنِ الإِحْساسِ بِالنَّعْماءِ

(٤٤) فَاللهُ أَكْبَرُ وَالْكَبيرُ رِدائي والنُّورُ بَدْري وَالضِّياءُ ذُكائي
وَالشَّرْقُ غَرْبي وَالْمَغارِبُ مَشْرِقي وَالْبُعْدُ قُرْبي وَالدُّنُوُّ تَنائي
وَالنَّارُ غَيْبي وَالْجِنانُ شَهادَتي وَحَقائِقُ الْخَلْقِ الْجَديدِ إِمائي
فَإِذا أَرَدْتُ تَنَزُّهًا في رَوْضَتي أَبْصَرْتُ كُلَّ الْخَلْقِ فِيَّ مَرائي

١ كخفائنا C : كخفايا K : كخفآيا B || ضيائي C : ضيائى K : ضيآي B || ٢ الاحصاء C : الاحصآء B K || ٣ نكأننا C : فكانا B K || كصفا C B : كصفى K || الصهباء C : الصهبآء B K || ٤ مخلصين C K : مخلصان B || تألفا C B : تالفا K || لرائى C : لرآء K : لرآي B || ٥ فالروح C K : والروح B || الأكفاء C : الاكفآء B K || ٦ برؤية C : برمية B K || بالنعماء C : بالنعمآء B K || ٧ فالله C K : والله B || ردائي C : ردامى K : ردآي B || والضياء C K : والضيآء B || ذكائي C : ذكآمى K : ذكآي B || ٨ والشرق ... تنائي .·. (هذا البيت ثابت فى K على الحاشية بقلم جديد) || تنائي C : تنآى K : تناى B || ٩ وحقائق C : وحقايق B K || امائي C : امآمى K : اماي B || ١٠ مرائي C : مرآء K : مرءاي B .

١ « فالله اكبر والكبير ... عين قضائي » . — « فاشكر معي عبد العزيز » : عبد العزيز هذا هو الشيخ ابو محمد بن ابي بكر القرشي المهدوي ، نزيل تونس والمتوفى بها عام ١٢٢٤/٦٢١ . قبره بترسى جراح : المعروف قديماً بترسى ابن عبدون . كان هذا الشيخ من اصحاب ابي مدين : ومكانته في تونس ككانة شيخه في تلمسان وابن انجاهد في اشبيلية : والدقاق في فاس . وكانوا جميعاً من عصر واحد ، توفروا على إعداد كثير من الصوفية في الاندلس والمغرب . وقد افرد ابن عربي كتاباً بمناقب شيخه المهدوي سماه : فضائل الشيخ عبد العزيز المهدوي القرشي ، هو مفقود الآن . كما ان من أجله الف رسالته الشهيرة : روح القدس في مناصحة النفس ، عام ٦٠٠ في مكة . كما ان من اجله الف كتابه الخالد الفتوحات المكية ، كما سيأتي النص عليه في آخر خطبة الفتوحات . وكتاب المشاهد القدسية : من أولى مؤلفات الشيخ الأكبر في الاندلس

وَإِذَا انْصَرَفْتُ أَنَا الْإِمَامُ وَلَيْسَ لِي أَحَدٌ أُخَلِّفُهُ يَكُونُ وَرَائِي
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنَا جَامِعٌ لِحَقَائِقِ الْمُنْشِي وَلِلْإِنْشَاءِ
هٰذَا قَرِيضِي مُنْبِئٌ بِعَجَائِبٍ ضَاقَتْ مَسَالِكُهَا عَلَى الْفُصَحَاءِ
فَاشْكُرْ مَعِي عَبْدَ الْعَزِيزِ إِلٰهَنَا وَلْنَشْكُرَنْ أَيْضًا إِلَى الْعَذْرَاءِ
شَرْعًا فَإِنَّ اللهَ قَالَ اشْكُرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْكَ وَأَنْتَ عَيْنُ قَضَائِي[1] !

(٤٥) [1]وبعد حمد الله بحمد الحمد لا بسواه ، والصلاة التامة على من أُسري به إلى مستواه ؛ — فاعلم : أيها العاقل الأديب ، الوليّ الحبيب . أن الحكيم إذا نأت به الدار عن قبيه ، وحالت صروف الدهر بينه وبين حبيبه ، لا بدّ أن يُعرِّفه بكل [ورقة ١٣ ألف] ما اكتسبه في غَيْبَته ، وما حصّله من الأمتعة الحكْميّة في غَيْبَته . و(هذا) ليُسَرّ وليُّه بما أسداه إليه البرُّ الرحيم من لطائفه ، ومنحه من عوارفه ، وأودعه من حِكَمِه ، وأسمعه من كلِمِه . فكأنّ وليّه ما غاب عنه بما عرف منه .

١ ورائي C : وراءى K : ووآني B || ٢ خلائق C : خلايق B K || وللانشاء C : وللانشآ B K || ٣ قريضي .ن. : + اي شعري B (خط مخالف للأصل تحت الكشط) ؛ منبئ C B : منبى K || بعجائب C : بعجايب B K || الفصحاء C : الفصحآء B K || ٤ الحنا : الاهنا B K : الحنا C || ولنشكرن : ولنشكرا C K : ولنشكراً B || العذراء C : العذرآء B K || ٥ ولوالديك C K : ووالديك B || قضائي C : قضآء K : قضآءى B : + بلغ قراءة على المؤلف K (على الهامش بقلم جديد ؛ ثم يليه :) بلغ القراءة على الشيخ (بنفس الخط السابق) || ٦ والصلاة C K : والصلوة B || ٨ نأت C B : نأت K || قبيه C B : (الياء ساقطة فى K) || ٩ حبيبه C B : (الياء ساقطة فى K) || بكل ما C K : بما B || ١٠ بما C B : بمآ K || ١١ لطائفه C : لطايفه B K || ومنحه .ن. (ثابتة فى B على الهامش بقلم الأصل) : + ووهبه B || ١٢ فكأن B : فكان C : فكانّ K .

(٥٩٠ه) كان تأليفه على أثر زيارة الشيخ الاولى للمهدوي في تونس مطلع عام ٥٩٠ للهجرة . وقد أفرد له ترجمة مختصرة في كتابه «مختصر الدرة الفاخرة» (انظر مخطوط اسعد أفندي ١١٠/١٧٧٧ الف). وللشيخ المهدوي ترجمة مختصرة ايضاً في كتاب انس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ (ص ص ٩٧—٩٩ : الرباط ١٩٦٥ه) ؛ وفي كتاب الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي لمحمد البيلي النيال (ص ص ٢١٨—٢٢٢ : تونس ١٩٦٥ه) . — ومن آثار الشيخ الباقية : المحفوظة في خزانة الاحدية بجامع الزيتونة بتونس : رسالة عنوانها : الصلاة المباركة ، رقم ٣٨٣٢ . وقد نشر الاستاذ النيال جزءاً منها في كتابه الآنف الذكر ، ص ص ٢١٩—٢٢١ .

١ «وبعد حمد الله ... بما عرف منه» . — «عَيْبَة» : حقيبة من جلد . رحلة :

(٤٦) [1]وإن كان الوليّ — أبقاه الله ! — قد أصاب صفاء ودّه بعض كدر لعَرَض. وظهر منه انقباضٌ، عند الوداع. لإتمام غَرَض. فقد غَسَّقَ وليّه عن ذلك جَفْنَ الانتقاد، وجعله من الوليّ — أبقاه الله ! — من كريم الاعتقاد. إذ لا يهتمّ منك إلاّ من يسأل عنك. فليهنأ الوليّ — أبقاه الله ! — فإن القلب سليم، والود — كما يعلم — بين الجوانح متيم. وقد علم الوليّ — أبقاه الله ! — أن الودّ فيه كان إنّياً. لا عَرَضياً ولا نفسياً. وثبت عنده هذا قديماً حتّى : من غير علّة ولا فاقة ولا قلّة : ولا طلب لمثوبة، ولا حذر من عقوبة.

(٤٧) وربما كان من الوليّ — حفظه الله تعالى ! — في الرحلة الأولى التي رحلت إليه : سنة تسعين وخمس مائة : عَدَمُ التفات فيها إلى جانبي : ونفورٌ عن الجري على مقاصدي ومذاهبي : لما لاحظ فيها — رضي الله عنه ! — من النقص. وعذرته في ذلك. فإنه أعطاه ذلك مني ظاهرُ الحال وشاهدُ النصّ. فإني سترت عنه وعن بنيه ما كنت عليه في نفسي : بما أظهرته إليهم من سوء حالي [ورقة ١٣ ب] وَشَرَهِ خُلُقي.

(٤٨) [2]وربما كنت ألوّح لهم أحياناً على طريق التنبيه : فيأبى الله ان يلحظني واحد منهم بعين التنزيه. ولقد قرعتُ أسماعهم يوماً في بعض

---

١ صفاء C : صفا BK || ٢ لاتمام CK : لتسيم B || ٣ ذلك CK : ذلك B || الانتقاد .ت. : + مناقشة B (أعل الكلمة، بقلم جديد، كأنها شرح للمتن) || ٤ منك C K : منك B || يسأل CB : يسال K || عنك CK : عنك B || فليهنأ C : فليهنا BK || ٦ إليا B : اليا K : أليا C || لا عرضيا BK : لا غرضيا C || ٧ عنده هذا BK : هذا عنده C || علة : علة B : عله CK || ولا قلة : ولا قله B : ولا قله CK || ٨ لمثوبة .ت. || عقوبة .ت. || ٩ تعالى C : تعل K : تعل B || ١٠ وخمس مائة : وخمس مانه K : وخمس مايه B : وخماية C || ١٢ ذلك CK : ذلك B || ١٤ سوء CB : سرّه K || ١٥ فيأبى CB : فيأبى K.

الامتعة الحكمية : تعبير أدبي جميل للمعارف المكتسبة المحفوظة في النفس كما يحفظ المتاع في الخفية. ومن الصور البيانية القديمة : فلان غَيْبَةُ فلان، اذا كان موضع سره وحافظ أمره.

١ «وان كان الولي ... من عقوبة». — «الود فيه كان إنّيا» : الود الإلّي هو الود الالهي. انظر ما يخص معاني كلمة الإنّ فيما تقدم، التعليق على الفقرة رقم ٣٣.

٢ «وربما كنت ... بأرواح المعاني». — «وفي كتاب الإسرار لنا أودعتها» : انظر كتاب الاسراء المنشور ضمن مجموعة : «رسائل ابن العربي» الجزء الأول : الرسالة الثالثة عشر، ص ٤ (حيدر باد ١٩٤٨). وكتاب الاسراء هذا، قد ألّف في مدينة

المجالس : والولي ــ أبقاه الله ! ــ في صدر ذلك المجلس جالس . بأبيات أنشدتُها : وفي كتاب الاسراء لنا أودعتها . وهي :

أنا القُرآنُ وَالسَّبْعُ المَثاني ... وَرُوحُ الرُّوحِ لا رُوحُ الأَوانِي
فُؤادي عِنْدَ مَعْلومي مُقيمٌ ... يُشاهِدُهُ وَعِنْدَكُمُ لِساني
فَلا تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمي ... وَعُدَّ عَنِ التَّنَعُّمِ بِالْمَعاني
وَغُصْ في بَحْرِ ذاتِ الذّاتِ تُبْصِرْ ... عَجائِبَ ما تَبَدَّتْ لِلْعِيانِ
وَأَسْرارًا تَرَاءَتْ مُبْهَماتٍ ... مُسَتَّرَةً بِأَرْواحِ الْمَعاني

(٤٩) [1]فوالله ! ما أنشدتُ من هذه القطعة بيتاً : إلاّ وكأني أسمعه ميتاً. وسبب ذلك حكمةٌ أبغي رضاها : «وحاجةٌ في نفس يعقوب قضاها» . وما أحسّ من ذاك الجمع المكرم إلاّ أبو عبدالله المرابط : كليمهم المبرّزُ المقدّم ؛ ولكن بعض إحساس ؛ والغالب عليه في أمري الالتباس . وأما الشيخ المُسِنّ : المرحوم جرّاح : فكنت قد تكاشفت معه على نيّة . في حضرة عَلِيّة[1] .

---

١ ذلك CK : ذلك B || ٢ الاسراء C : الاسرا K : الاسرآ B || ٣ القرآن C : القران K : القرءان B || ٤ فؤادي CB : فوادي K || يشاهده CK : يشاهبه B (وعلى الحاشية بقلم جديد : يشاهده) || ٥ بطرفك CK : بطرفك B || ٦ عجائب C : عجايب BK || ٧ تراءت CB : تراأت K || ٨ القطعة CK : المقطوعة B (وعلى الحاشية بقلم جديد : القطعة) || وكأني B : وكاني K : وكأنّ C || ٩ حكمة ... قضاها CK : حكمة كنت أبغي رضاها فما كان انشادي لم مع معرفتي بقلة حرمتي عندهم إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها B || ١٠ ذاك K : ذلك B : ذلك C || ١١ ولكن CB : ولاكن K || ١٢ فيه : فيه ... || ١٣ عليّة : عليه ...

فاس في العشر الاوسط من جمادى : عام ٥٩٤ . (انظر خاتمة الكتاب نفسه) . وعنى هذا . تكوين هذه الابيات المودعة في الكتاب المذكور قد أنشأها الشيخ قبل تأليفه له .

١ «فوالله ! ... في حضرة عَلِيّة» ، ــ «ابو عبدالله المُرابط» : انظر ما تقدم التعليق على الفقرة ذات الرقم ٣٧ . ــ «الشيخ المُسِنّ ... جرّاح» : جرّاح ابن خميس الكتاني ، كان من سادات القوم مرابطاً بمرسى ابن عبدون بمدينة تونس ؛ ودفن فيه ويعرف الآن المرسى باسمه : مرسى جرّاح ؛ لا باسمه القديم : مرسى ابن عبدون ؛ انظر الحقيقة التاريخية للتصوف للاستاذ النيال ، ص ٢١٩ ؛ تونس ١٩٦٥) . ذكر له ابن عربي ترجمة مقتضبة في كتابه : مختصر الدرة الفاخرة : مخطوط اسعد افندي ١١١/١٧٧٧ ب ــ ١١٢ ب ؛ كما نوه به في الفتوحات المكية ١٨٦/١ (القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

(٥٠) ولم أزل بعد مفارقتي حضرة الولي — أبقاه الله ! — له ذاكرًا [ورقة ١٤ ألف] . ولأحواله شاكرًا . وبمناقبه ناطقًا . ولآدابه عاشقًا . وربما سطرت من ذلك في الكتب ما سارت به الركبان . وشُهِر في بعض البلدان . وقد وقف الولي عليه . ورأى بعض ما لديه . فقد ثبت له الود في قبل سبب يقتضيه . وغرض — عاجل أو آجل — يبتغيه في النفس ويرتضيه[1] .

(٥١) ثم كان الاجتماع بالولي — تولاه الله ! — بعد ذلك بأعوام . في محلة الأسنى . وكانت الإقامة معه تسعة أشهر دون أيام . في العيش الأرغد الأهنى . عيشَ روحٍ وشبَحٍ . وقد جاد كلٌّ واحدٍ منا بذاته

---

٢ ولأحواله C K : ولاعماله B || ناطقًا B : — ولأحواله B || ولآدابه C : ولا دابه K : وآدابه B || ٣ ذلك C K : ذلك B || ورأى C B : ورى K . || آجل C B : أجل K || ٧ ذلك C K : ذلك B .

---

١ «ولم أزل ... ويرتضيه» . — «وربما سطرت من ذلك في الكتب» : لعل الشيخ يشير بذلك الى كتابه: فضائل الشيخ عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي. انظر شرح الطيب للمقري ١ : ٤٠٤؛ وانظر بحث الاستاذ كوركيس عواد عن مؤلفات ابن عربي. منشور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . بالمجلد التاسع والعشرين والثلاثين . الذيل. رقم ١٨٣ تعليق رقم ٨ . — هنا : ولا بد لنا من التنويه في هذا المقام الى خطأ ما يذكره مؤلف كتاب «محي الدين بن عربي» من ان الشخصية التي يذكرها الشيخ الأكبر في هذا الصدد هي ملك المغرب في ذلك العصر . وان عبدالله بن الرابط هو صديق ذلك ومرشده الروحي ... (محي الدين بن عربي لطه عبد الباقي سرور ؛ ص ص ٤٦—٥٣ . القاهرة . مكتبة الخانجي بمصر) . ويعود نفس المؤلف الى تكرار هذا الخطأ في تقديمه (مع زميل له) لكتاب لطائف الاسرار لابن عربي (لطائف الأسرار. نشر أحمد زكي عطية وطه عبد الباقي سرور. ص ٢٢—٢٣ ؛ القاهرة ١٩٦١) .

٢ «ثم كان الاجتماع بالولي ... وحاله» . — «ثم كان الاجتماع بالولي ... بعد ذلك بأعوام ... وكانت الاقامة معه تسعة اشهر» : هذه الرحلة الثانية الى لقاء شيخه بتونس ومكوثه عنده في تونس مدة تسعة اشهر : لا يمكن ان تكون عام ٥٩٨ : كما يرى أسين بلاثيوس (ابن عربي ص ٥٦ من الترجمة العربية لبدوي : القاهرة ١٩٦٥) : بل قبل ذلك. ففي عام ٥٩٨ نجد آثار الشيخ في قبرقيق (قرية قريبة من مدينة رندة : جنوب الاندلس : انظر الفتوحات ١١/١٨٢) : وفي وادي آش ومدينة مرسية (الفتوحات ٢/٦٤١) : وفي مدينة سلا (عنه ٣/٦٩) : وفي الدار البيضاء (عنه ٣/١١٥) : وفي مرشانة الزيتون (عنه ٣/١٩٨)؛ وفي سبتة (عنه ٣/٣٤٣) : وفي القاهرة (روح القدس. مخطوط جامعة استنبول ٨٧٩/٥٢ ب—٥٣ ب) : وفي القدس (عنه) : وفي مكة (مقدمة ديوان ترجمان الاشواق) .

على صفيه وسميه . ولي رفيق . وله رفيق ؛ وكلاهما صديق وحديق . فرفيقه شيخ عاقل محصل ضابط . يعرف بأبي عبدالله المرابط[1]. ذو نفس أبية ، وأخلاق رضية ؛ وأعمال زكية . وخلال مرضية . يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ؛ ويذكر الله على أكثر أحيانه سراً وإعلاناً . بطل في ميدان المعاملات ؛ فهم لما يرد به صاحب المنازل والمنازلات . منعت في حاله ، مفرق بين حقه ومحاله .

(٥٢) [2]وأما رفيقي فضياء خالص ونور صرف . حبشي . اسمه عبدالله بدر . لا يلحقه خسف ! يعرف الحق لأهله فيؤديه ؛ ويوقفه عليهم ولا يعديه . قد نال درجة التمييز ؛ وتخلص عند السبك كالذهب الإبريز . كلامه حق ؛ ووعده صدق . [ورقة ١٤ ب].

فكنا الأربعة الأركان التي قام عليها شخص العالم والانسان[2].

(٥٣) فافترقنا — ونحن على هذه الحال — لانحراف قام ببعض هذه المحال . فإني كنت نويت الحج والعمرة ؛ ثم أسرع إلى الكرة . فلما وصلت أم القرى ، بعد زيارتي الخليل الذي سن القرى، وبعد صلاتي بالصخرة والأقصى ، وزيارة سيدي — سيد ولد آدم — ديوان الاحاطة والاحصا ؛ — اقام الله في خاطري أن أعرف الولي — أبقاه الله ! — يقنون

٢ بأبي CB : باق K || ٣ أبية : ابيه .ت. || رضية : رضيه .ت. || زكية : زكيه .ت. || مرضية : مرضيه .ت. || ؛ وقرآنا C : وقرانا K : وقرءانا B || = فهم CK : فهيم B || ٧ فضياء C : فضيا K : فضيآء B || ٨ فيؤديه CB : فيديه K || ٩ السبك CK : السبك B || ١٣ والعمرة : والعمره .ت. || الكرة : الكره .ت. || ١٤ القرى CB : القرا K || الخليل CK : خليل الرحمان B || القرى CB : القرا K || ١٥ بالصخرة : بصخرة المقدس B || والاقصى CB : والاقصا K || وزيارة CK : وزيارتي B || سيدي K : سيد CB || سيد K : — CB || آدم CB : ادم K || ١٦ والاحصا CK : والاحصآ C .

١ « يعرف بأبي عبدالله المرابط » : انظر ما تقدم التعليق على الفقرة ذات الرقم ٣٧ .

٢ « واما رفيقي ... والانسان » . — « واسمه عبدالله بدر » : صاحبُ الشيخ في المغرب والمشرق ؛ خصص له ترجمة في « مختصر الدرة الفاخرة » (مخطوط اسعد افندي ١٧٧٧ / ١٢٠ ألف — ١٢١ ب) . ويقول ابن عربي بان بدراً الحبشي هذا رافقه مدة ٢٣ سنة ، وتوفي بمدينة ملطية ؛ في الاناضول . وله ألف كتاب عقلة المستوفز وحلية الابدال . ومن آثار هذا الصوفي الباقية ؛ كتاب الانباه على طريق الله (انظر مخطوط ازميرلي اسماعيل حقي ، مكتبة السليمانية ؛ لاسطنبول ، رقم ٣٦٩٠ / الرسالة الثامنة ؛ ومخطوط جامعة اسطنبول ٨١٢٣) .

من المعارف حصّلتُها في غيبتي : وأهدي إليه — أكرمه الله ! — من جواهر العلم التي اقتنيتها في غربتي .

(٥٤) فتيمّدتُ له هذه الرسالة اليتيمة . التي أوجدها الحقّ لأعراق خُهر تيمة . ولكل صاحب صفيّ . ومحقّق صوفيّ : وخبيبنا الرفيّ : وحبيب الزكيّ . وولدنا الرضيّ . عبدالله بدر الحبشي اليمني . معتق بي العتائم ابن أبي الفتوح الخراني . وسميتها : رسالة الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكيّة والملكية . إذ كان الأغلب فيما أودعت هذه الرسالة . ما فتّح الله به عليّ . عند طوافي ببيته المكرّم . أو قعودي مراقباً له : بحرمه الشريف المعظّم . وجعلتها أبواباً شريفة . وأودعتها المعاني اللطيفة .

(٥٥) فإن الانسان لا تسهل عليه شدائد البداية : إلاّ إذا عرف شرف الغاية . [ورقة ١٥ الف] ولا سيما إن ذاق من ذلك عذوبة الجنى : ووقع منه بموقع المنى . فإذا حصرَ البابُ البصرَ . تردّدَ عينُ بصيرة الحكيم فنظر . فاستخرج اللآلئ والدرر . ويعطيه البابُ عند ذلك ما فيه من حكم روحانية ونكت ربانية : على قدر نفوذه وفهمه : وقوّة عزمه وهمّته . واتساع نفسه من أجل غطسه في أعماق بحار علمه !

(٥٦) لَمَّا لَزِمْتُ قَرْعَ بابِ اللهِ ... كُنْتُ ٱلْمُراقِبَ لَمْ أَكُنْ بِاللّاهي
حَتَّى بَدَتْ لِلْعَيْنِ سُبْحَةُ وَجْهِهِ ... وإِذا كَلَمْ لَمْ تَكُنْ إِلّا هي
فَأَحَطْتُ عِلْمًا بِالْوُجودِ فَما لَنا ... في قَلْبِنا عِلْمٌ بِغَيْرِ اللهِ
لَوْ يَسْأَلُ ٱلْخَلْقُ ٱلْغَريبُ مَحَجَّتي ... لَمْ يَسْأَلوكَ عَنِ ٱلْحَقائِقِ : ماهي ؟

---

١ اليه C K : له B || ٣ اليتيمة : اتيمه .ت. || ٤ تيمة : تمه .ت. || ٥ الزكي B K : الذكي C || ٦ العتائم C : العتايم B K || المكية : المكيه .ت. || ٧ والملكية : والملكيه .ت. || ٩ شريفة : شريفه .ت. || المعاني C K : معاني B || اللطيفة : اللطيفه C K : لطيفه B || ١٠ شدائد C : شدايد B K || البداية : البدايه .ت. || إلاّ اذا ... الغاية (الغايه C K) C K : إلاّ اذا وقع بصره على الغايه B (وعلى الهامش : بقلم جديد : الا اذا عرف شرف الغايه) || ١١–١٢ ولا سيما ... الجنى (المنا K) C K : ولا سيما بعد كونه عذب الجنا ان وقع منه بموقع المنى B (وعلى الهامش : بقلم جديد : ولا سيما اذ ذاق من ذلك عذوبة الجنى) || ١١ عذوبة C : عذوبه K || ١٣ اللآلئ C : اللآل B K || عند ذلك C K : إذ ذاك B || ١٤ روحانية : روحاتيه .ت. || ربانية : ربانيه .ت. || ١٥ وهمه B K : ووهمه C || ١٩ يسألوك C : يسالوك K : يسألك B || الحقائق C : الحقايق B K .

(٥٧) فَلْنُقَدِّم . قبل الشروع في الكلام على أبواب هذا الكتاب : باباً في فهرست أبوابه . ثم أتلوه بمقدمة في تمهيد ما يتضمنه هذا الكتاب من العلوم الإلهية الأسرارية . وعلى أثرها يكون الكلام على الأبواب : على حسب ترتيبها في باب الفهرست : إن شاء الله — تعالى ! — وصلّى الله على محمد وعلى آله الطاهرين ! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

انتهى الجزء الأول — والحمد لله ! — . يتلوه الجزء الثاني .

---

٢ أتلوه بمقدمة C K: تتلوه مقدمة B ‖ ٢–٣ في تمهيد ... الاسرارية C K : — B (ولكن هذه الجملة الناقصة ثابتة بتمامها على رأس السطر ، بقلم جديد) ‖ ٣ الآلهية : الالاهية C ‖ ٤–٦ ان شاء ... الجزء الثاني C K : — B ‖ ٤ شاء C : شا K ‖ تعالى C : تعل K ‖ ٥ آله C : لله K ‖ الطاهرين C K : + يلي قراءة مؤلفه (الأصل : مولفه) لاحمد العلوى K (على الهامش، بقلم جديد) ‖ ٦ الجزء C : الجز K .

الدكتور امين يوسف الخوري

١٨٥٢ – ١٩١٩

بقلم جرجي ابرهيم نصر

كان طبيباً وأديباً وشاعراً ، ولد في بكاسين في ١٠ من نيسان سنة ١٨٥٢ وهناك نشأ وترعرع مع شقيقيه شاكر وخليل ، وتلقى علومه الابتدائية فيها ثم في مدرستي البطريركية والآباء اليسوعيين في غزير .

وفي سنة ١٨٧٤ نزح الى مصر طلباً لدرس مهنة الطب في مدرسة القصر العيني على نفقة الحكومة اللبنانية وعكف على العلم عاملاً مُجداً مدة ست سنوات فأحرز شهادته الطبية ١٨٨٠ وفي ١٨٨٢ التحق بخدمة الحكومة المصرية كطبيب مركز في مديرية أسيوط ثم تنقل في وظائف شتى أهمها :

خدمة الجيش بوظيفة مدير الحركة الصحية وذلك سنة ١٨٨٣ ومكث فيها مدة سنة ونصف ثم عُيّن في مصلحة الصحة مفتشاً على المواليد ثم طبيبا لمستشفى شبين الكوم ثم طبيباً لبلدية دمياط مدة تسع سنوات : وكان في جميع الوظائف التي عُيّن فيها مثال الاخلاص في العمل والعطف على الانسانية .

وقد ألّف رحمه الله كتباً فلسفية وطبية وروائية نشر منها :

فلسفة الأشياء ، والوقاية ، ورسائل في الهواء الأصفر والطاعون وتعليم الفتيات والوافدة والعلة الأولى ورواية ريحانة النفوس في انتخاب العروس ، وتخميس قصيدة محمد بن زريق البغدادي وضعها في رثاء اخيه خليل ،

ومقالات فلسفية منها : لماذا نحن هكذا ؟ وأدبية وطبية وقصائد شعرية . وله آثار مخطوطة في مواضيع متنوعة لعبت بمعظمها أيدي الضياع . وقد ترجم جلسة بحوث ونال الوسام المجيدي والنجمة المصرية ومدالية فيكتوريا السودانية وسواها من مداليات دولية .

وأنعم عليه بالرتبة الثالثة الملكية . ثم اعتزل خدمة الحكومة المصرية وأخذ يتعاطى صناعته في مدينة المنصورة التي استقرّ فيها نهائياً . ولمّا توفيت زوجته حزن عليها حزناً شديداً ورثاها بقصائد تفيض لوعةً وأسىً ، ثم استوحش في دار غربته وهزّه الحنين الى وطنه الأول فعاد الى بكاسين ليقضي فيها بقيّة أيامه ، وامتاز رحمه الله بتقواه وإخلاصه لدينه فلقي وجه ربّه في بلدته بكاسين نهار الجمعة في ٢٣ من تشرين الأول ١٩١٩ ودُفن في مدفن العائلة الخاص بالأسف والتكريم :

وهاك مثالين من نثره : قال في تأبين رئيس مجلس الوزراء الأسبق بطرس باشا غالي : (١٩٠٨—١٩١٠) .

إنّ لمن المقرّر الثابت ، أن الشيء تعلو قيمته كلّما عزّ وجوده ، ويحرص عليه ويؤسف على ضياعه وفقده كلّما اشتدّت الحاجة اليه وتحتّم لزومه ، فاذا راعينا هذا المبدأ الطبيعي بل الحقيقة الثابتة ، ظهرت لنا جلياً عظمة فقيدنا العزيز وعلوّ منزلته ، ومكانته من القلوب ، لو شعرنا بشدة الأسف والأسى على فقده .

كان بطرس باشا غالي نابغةً من أفراد الشرق والغرب فقد اتفقت جرائدها ومجلاتها بأسرها اتفاقاً لم يسبق له مثيل ، على أن فقيدنا العزيز كان السياسيّ المحنّك . والرجل المدرب الذي تفتخر بأمثاله ، ليس الأريكة الخديوية فقط بل العثمانية بأسرها . وإن الحالة الحاضرة كانت في أشدّ الاحتياج اليه والى آرائه الصائبة وخبرته واخلاصه .

إن الصفات الحميدة والسجايا الكريمة التي وهبته اياها الطبيعة واكتسبها بالخنكة ودرّبته عليها تقلّباته في مناصب الحكومة السنين الطوال المتواصلة من أقلّها لأجلها ، وتتلمذه على ايدي أشهر السياسيين المعدودين ، مثل شريف باشا ونوبار باشا ، وتتبّعه لسياسة عصر اسماعيل مهبط اسرار السياسة وقطبها الفرد ، فضلاً عمّا أوتيه من الذكاء الوقّاد وحضور الذهن ، جعله ولا شك في مقدمة الذين يشار اليهم بالبنان .

كان فقيدنا العزيز : ذكيّ الفؤاد : انيس المعشر : ليّن العريكة . منيباً وقوراً . حليماً في الشدة : بعيداً عن الادعاء والكبر . مخلصاً لوطنه ومليكه : يتساوى عنده كل ابناء الانسانية . حريصاً على مكانته . لا يتداخل بد لا يعنيه . مخلص النصح اذا استشير . وفيّ الوعد مخلف الوعيد .

وكان أباً لأسرة فاضلة : عوّدته الحنان والرأفة : وابناً لأب كريم علّمه البرّ والاحترام . وذا قربى كرام عوّدوه المعاضدة وحبّ الخير : ذاق مرارًا استبداد الأولين : وحلاوة حرّية المتأخرين : وكان في كلا الدورين المستشار الصادق والمشير الصائب والخادم الأمين والمخدوم الكريم الحليم والوطني الغيور : عابوا عليه اشياء توهّموها عيباً : وما كان إلاّ كما تعاب الشمس لعدم ظهورها في يوم ماطر : تلبّدت غيومه . وقصفت رعوده : وعصفت ذوابعه : فسخط الغبيّ على الشمس : وجهل ان الذنب في ذلك لاضطرابات جوّه وتقلبات أهواء أرضه : وان الشمس هي هي لم تتغيّر ولم تزل عاملة كما كانت بارسال أشعّة حرارتها ونورها على تبديد تلك الغيوم وتسكين تلك الذوابع بما لها من القوّة والجهد : فلو نظر ذاك الغبيّ العائب الى كلّ فضاء جوّه بعين الباحث الخبير . لبان له تأثير تلك الشمس المحتجبة على جلاء تلك الغيوم وتبدئة تلك العواصف في الكثير من أنحاء فضاء جوّه القاتم .

ولكن لنكد الطالع كان ذاك العائب قصير النظر لا تمتدّ بصيرته الى اكثر ما يضلّل جسمه النضيل . فثار على تلك الشمس المتّقدة غيرةً على صالحه : والعاملة على خيره : وعمل على طمسها : وساعده سوء البخت على اتمام ذاك العمل الأثيم ...

ومنها :

فما كان والله ليدور في خلّد أحد أن تنتهي حياة فقيدنا العبقرية على هذه الصورة : إنّما كان ذلك لكمال سعده هو ونحن : لأنّ استئثاره على مذبح الغباوة والجهل : رفعه أضعاف أضعاف ما رفعته حنكة الخمسين سنة التي قضاها مواصلاً بكلّ أمانة واخلاص : خدمة وطنه العزيز . اذ جعله وحده الخالد الذكر والأثر : والمبكي كلّما ذُكرت مصر بمصابها : والمفتقد كلّما أظلم ليلها .

وقال يرثي صديقه المرحوم الدكتور أحمد بك شافعي وقد استهلّ رثاءه بالكلمة التالة :

ما انصفتك عيوني وهي دامية ولا وفى لك قلبي وهو يحترق

نعم ما انصفتك يا شافعي عيوني حتى تسيل من الآماق حزناً عليك؛ ولا وفى لك قلبي حتى يخرج من صدري وينضم اليك . فقد كنت للقلب سويداءه ولانسان عيني ماءه . ولي البلسم الشافي اذا جُرحتُ . والحصن المنيع اذا أبحتُ . والقوّة الواقية في العلّة . والقدم الثابتة في الذلّة . تتّقد على وفائك واصدقائك غيرةً ووفاء ؛ وتلتهبُ على جنسيتك حماساً وذكاء . وحيداً في همتك ؛ فريداً في شيمك ؛ لا يثنيك عن الحقّ لومة لائم ، ولا باليت على ضميرك الحرّ بالملوم ، بل كنتَ للحرّية العضد القويّ ، وللأخاء الخلّ الوفيّ . وللمساواة حامل العلم ، وللاحرار وافي النعم ، طيب مدقّق ، وأصولي محقّق ، يتفجّر الذكاء من نظراتك . ويتدفّق الوفاق بين سلامة قلبك وبحر كلماتك ، فكم حاول الذين في قلوبهم مرض أن يطفئوا بأفواههم نور غيرتك ، فأبى الله إلاّ أن يتمّه ، وكم افتروا عليك بالكذب ورموك بالأفك فكذّبتهم ، لك الف همّة وهمّة ؛ فالحجاز شاهد بصوابية أعمالك ؛ ومدرسة حلوان تدلّ على سموّ مقاصدك ونبل افعالك . فرحمك الله وسع حزني عليك وحسناتك ، ورضي عنك عداد نوحي عليك ومبرّاتك . وألهمني وآلك صبراً جميلاً ، وجعل كلّ نجلٍ من انجالك النجباء عنك بديلاً .

إن تله بالنفس عن سواها فنيك دون السوى منساها
فالصبّ ما سام حبّ سلمى يرتاع إن مسّه قلاها
فكم بكى الدار ذو شجون برقة فارقوا رباها
فراح دامي الفؤاد يشكو دهراً رماد بما رماها
ولو تخلّوا عن التحلّي بها لما نالهم أذاها
كيغض من يتّبعوا حمانا أعني الألى حرّموا حواها
لو كنتُ منهم لما دهاني موتٌ عليمٌ بمقتضاها
بدر توارى عن المعالي فلتبكِ من بعده سناها
قد نال سامي العلا صغيراً وقد دعته مصر فتاها
لذا أناطت به أموراً رأى ذوو الحلّ ان يراها
فأمّ أرض الحجاز يبغي بأمرها البحث عن ويباها

وأثبت الداء دون ريب وأنقذ العُرب من بلاها
من ثم نالت به وثوقاً من دول الغرب بارتضاها
وخصّه جلّيا بكتب شكرًا على ذمة رعاها
ولم يزل يرتقي بحزم يجلّ قدرًا عن أن يضاهى
وأكسب الصحةَ اعتدالاً وقد حباها بما حباها
وكان حظّ التقييد منها ان وجّهت نحوه جباها
جازته بالعزل لا لذنب جناه بل حسب مشتهاها
جيري اشتهت راتب اعجازي وخصّ من جار في قضاها
وشاع هذا وما سمعنا بأن ذا سلطة نهاها
كأن وحياً به أتاها من مصدر فوق مرتقاها
ضغط يميل القلوب وهناً حزناً على فقد مبتغاها
وهال من العدل ظلم نفس لم تثن العمر عن هداها
تلك التي قد أتت فعالاً ترضي البرايا ومن براها
منها حنانٌ على اليتامى : حلوان ، مصر به تباهى
وبسط كفٌّ بغير منّ لمصلح شأنه نداها
وهمة همّها المعالي من دونها الزهر في شذاها
وفكرة تجتلي المعاني فينجلي الحقّ بانجلاها
مضى وابقى اسىً بقلبي اذا تناهيت ما تناهى
وشبّ في القلب نارُ حزن لا يخمد الدهر من لظاها
فلتحي ذكراك يا مثيراً بموته حزن من وعاها
وليحي دامي السحاب أرضاً ضمّك يا شافعيّ ثراها

نماذج من شعره : شُغِفَ بالشعر منذ صباه ، فكان وعاءً نفيساً ، تنبض أبياته بالحبّ والوفاء ، وقد احتفظنا بصيغة هذه القصائد كما وردت في الأصل ، ولم نشأ أن ندخل عليها تحويرًا أو تصحيحاً بل اكتفينا بالاستبقاء على روح الشعر ونَفَس الشاعر :

وهذه أبيات يُعدّد بها مناقب المرحوم الكونت خليل صعب ١٨٤٢–١٩١٢ المتوفّى في مصر ويصف آثاره أصدق وصف وقد ضمّنها تاريخاً لوفاته قال :

الدكتور اديب يوسف الحوري

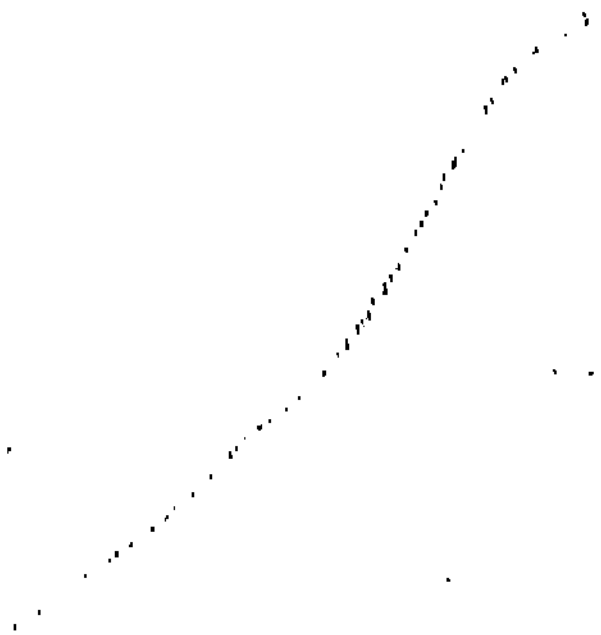

كان صعبٌ من أسهل الناس خُلقاً حـازم الرأي مالكاً أصغريـه
ليس في برّه الجزيـل اختصاصٌ كلّ ذي حاجـة سؤالٌ لديه
لا يُبـاهي إنْ سالمتْهُ الليالي ساكنُ الجأش إنْ أساءتْ إليه
مُنيرٌ بالأمور جَلْدٌ حصيفٌ خابرٌ من زمانـه حالتيه
عشْ سعيداً حجّةً لم يشنها عمـلٌ عـاد بالملام عليـه
شادّ مجـداً بالبرّ « أرّخْ » أثيـلاً أحسن اللهُ في الضريح اليـد

٥٤٢ ١١٩ ٦٦ ٩٠ ١٠٤٥ ٤٦

١٩١٢

وقال يرثي صديقه المرحوم جبران كحيل المتوفى غرقاً في بحر النيل سنة ١٩٠٣ :

لدى الفُلك تولِيها الرياحُ تهجّماً تأبّطَ نهرَ النيـل جبرانُ مرغما
تأبّطه واستطرد السيرَ مسرعاً نـالتْ آمـاتِنا على أثره دما
طفا فوق بحر الروم كالبدر طالعاً فصحّ لنا تشبيهنا البحرَ بالسما
وهابَ سناه الحوتُ في برج نوره فراح حسيراً لم ينل منه مطعما
غدةَ رآه اليمّ أكبر قيمةً من الدرّ مختاراً لـه القلبُ منجما
وأين ندى كفّيك أثرى به السوى زماناً : فلمّا غاضَ أصبحَ مُعدِما
فلا نالنا من بعده الدهرُ فـاجعٌ وجادت ثراةُ المُزن تنهلّ في الحمى

وقد أرّخ لوفاة المرحومة اميلي صعب فقال يرثيها بلسان زوجها :

أسأتَ يا دهرُ فعلاً مع خليلك في مـا قد فعلتَ بنا أودي بآمـالي
أفضيتَ إلفي عني حيث لا أملٌ في أوبة الإلف في مستقبل الحال
شمس توارت ضحىً من بعدما طلعت في أفق داري باسعـاد واقبال
ومذ ثوت في الثرى أرّختُ من أسفي يا لحدُ فيك لقد ضيّعتَ آمالي

٩٠ ١٥١ ٥٣ ١١٠ ١٣٤ ١٢٨٠ ٨٢

١٩٠٠

وقال يرثي المرحومة أمرأة عمّه مرتا زوجة شهدان ليوس الخوري المتوفاة في ٢ أيار ١٩١٣ في بلدته بكاسين عن ٨٣ سنة وقد دعاها « نفشات مصلور » :

يفاجئنا الزمانُ بكلّ خطب ... وتُفجعُنا المنونُ بكل غـال
ولسنـا بالكوارث نازلات ... بغير الموت إن فدحت نبالي
ولو غير المنون غـزا حمانا ... حمينـاه بمـا تُحمى المعالي
بآداب وإثـراء وعلـم ... وجـاه والمثقّفة العوالي
فهـل عرفت يجدوانا المعالي ... فمدّتْ نحونـا كفّ السؤال
ومـا اختارت كعادتنـا دواماً ... لسائل جودنا إلاّ اللآلي
أماثلُ من ذوينا كلّ فرد ... بعيد الذكر مفقود المثال
وكلّ مصونة خود نُوارٍ ... تنـاهتْ بالجميل وبالجمال
كمن هابتْ بها أيدي المنايا ... فكان تنسّك الخطب العضال
مضت لله تاركةً ذويهـا ... بمهيجة مُوجّعٍ وجفون سال
يجدّد حزنُها في غير بالٍ ... ومنـه ما تقـاسي غيرَ بال
لقد فجعت بنيها بالتنـائي ... وجافتْ خيرَ كنوءٍ بالزيال
وكانت خير من رأفت بوُلدٍ ... وأصدق مخلصات للبعال
فزادتْ دمع جفنٍ غيرَ راقٍ ... وهاجت وجدَ قلبٍ غيرَ سال
فأيّة درّة فقدتْ لدينـا ... بها قد كان جيدُ الصون حالي
كمال صيانة وكمالُ عقـلٍ ... وحسنُ تديّنٍ وجمالُ حـال
يتيمة عفّةٍ وخضمّ فضلٍ ... وجودةُ الأواخر والأوالي
فلو جاؤوا لهـا ارّخ بندٍّ ... لفُضّلتِ النساءُ على الرجال

٥٦ ١٣٤٠ ١٤٢ ١١٠ ٢٦٥

١٩١٣

وقال يرثي والده المتوفى سنة ١٨٨٠ بقصيدة نثبت منها الأبيات التالية :

لي بعد بُعدك لوعةُ المنكوب ... وفؤادُ مهجورٍ وذلّ غريب
وعذابُ معمودٍ ووحشةُ موحدٍ ... وحشا السليب وعفّةُ المشجوب
ودموعُ ثاكلـةٍ وحسرةُ نادمٍ ... وشجون مبعودٍ وقلبُ كئيب
ما كنت أعهد يا أبي بك قسوةً ... حتى دعوتُ وأنت غير مجيب
أسفي على تلك الفصاحة والذكا ... وعلى صباحة وجهك المحبوب
وعلى البلاغة والنباهة والندى ... وعلى علوّ مقامك المرهوب

وعلى الشجاعة والبراعة والوفا وعلى حنوّك والرضا المرغوب
إن أنسَ لا أنس اختفائي راحلاً يستي الخدود بدمعه المسكوب
وبردّدًا أبُنيّ لا تطل النوى لم يبق لي جلدٌ على التغريب
أفنيت عمري في وداع بنيّ هل من جمع شمل أو شفاء قلوب

ومنها :

يا واحداً فوق الضريح منادياً من وهو حيٌّ كان خير مجيب
ومقبّلاً قبرًا حواك وساقياً ريًّا تراهُ بدمعي المسكوب
ومخاطباً ذاك الضريحَ كمن بلي قبلي : يُفقد مُنًى وموت حبيب
فلبَيْنِهِ يا قلبُ كن متفتتاً وعليه وجداً يا حشاشةُ ذوبي

ومن قوله في رثاء المرحوم حبيب الغريّب من دير القمر المتوفى في مصر ما يلي :

هنا دُفنت آمالُ آل غريّب وضمّ الثرى الغالي رفاتَ حبيب
وفارقت الأهلَ الكرامَ وصحبَهم وشُقّت قلوبٌ قبل شقّ جيوب
يُنادونه والدمعُ يهملُ والحشا تذوبُ التياعاً وهو غيرُ مجيب
لقد خيّب الموتُ المظلوم بدائه شوافي عقاقير وعلمَ طبيب
وفاجأه والزهرُ يعقد والجنى قريبٌ، ووجه الدهر غيرُ قطوب
فيا رحمة الله اسكبي فوق قبره سلامٌ على قبرٍ يضمّ حبيبي

وقال يرثي ابن عمه المرحوم نعمان الخوري قنصل فرنسا في مغادور الغرب الذي توفاه الله في ١٥ آب ١٩١٠ بعد عودته من فضّ مشكلة مقتل الدكتور موشان الفرنسي : بين حكومتي فرنسا ومراكش :

تنابي على الغرب القصيّ وبيتما مغادورَ تنعي سيّدَ القوم والحمى
وعوجا على لبنان ثم اشخصا الى «بكاسين» حيث الحزن والغم خيّما
نشقّ على نعمان حيب قلوبنا ونبكي ونستبكي على قبره دما
ونلبس أثوابَ الحداد على فتىً فقدنا به الرشد اليقين المدعّما
فتى العزم والاقدام انّى تأخرت عن القصد احرار الرجال تقدّما
فتىً كان في مصر وعدن وتونس ودار النجاشيّ العميد المحكّما

وفي المغرب الأقصى بنى صرح عزّه ... تقاوم فيه الدهر لن يتهدّما
وبدرٌ نبيٌّ في الشرق مطلع نوره ... وفي الغرب وافاد الخلق فأظلما
وعجله من سفح لبنان رسمه ... يشاد مزارًا فاستجاب تكرّما
فشيّعه الامجاد من كل شيعة ... وكان الأسى فوق الرؤوس مخيّما
على زفرات جفّف الريق حرّها ... لذلك كان الكلّ منها على ظما
تناجوا بما فيا يتيح اصطبارهم ... وقد منعتهم بالتوالي التكلما
أنعمان مهلاً كيف تكتحل الثرى ... وما اكتحلت عيناك الاّ التنهما
وما ذاق صاباً من شرابك مؤنسٌ ... فكيف تديرُ اليوم كأسك علقما
وكنتَ سراج البيت حولك أهله ... فكيف تؤمّ القبرَ في القفر مظلما
وكيف خلعتَ الحسن غضاً لترتدي ... نسيج رميم حاكه البين أسحما
سلامٌ على ذا الحسن أودى به البلى ... وكيف نعاني الشوق أبقى التيّما
سلامٌ على المعروف وافاك في الثرى ... فلم يلق مثلي من نواك التألّما
سلامٌ على إلمام فطنتك التي ... بها كنت عن وحي القلوب مترجما
سلامٌ على صبري فما زال صرحه ... تناوشه الأكدارُ حتى تهدّما
أخي وابن عمي واعتزازي ومؤلي ... ولذّة عيشي وافتخاري وكلّما...
تمهّل يودّعك الأمينُ بنظرة ... فما أنت بالنائي فتغدو مسلّما
تفلّص عنه ظلّ انسك بغتةً ... فما أعظم البلوى قضاءً تحتّما
فلو كان في بعض اصطبار رجوتُه ... لقلب أخيّات عليك تكلّما
أخيّاتُ كنّ الأمس منك بمغنم ... فأصبحن ممّا صرت للهمّ مغرما
توجّج في احشائهنّ لواعج ... فيملأ شئى دمعٌ على الخدّ قد همى
أنعمان ما يجدي التصبّر قولهم ... فما في الأسى ما ينقض الأمر مبرما
ولا قول «بيشون» الوزير مؤبّناً ... علاك بأن كنت الخطير المعظّما
ولا عجب صبري مقولٌ ذوي التقى ... على فقدك المشؤوم انك في السما
سأبكيك ما أحيا وأرثيك موجعاً ... ويبكيك من يتلو مراثيَّ بعدما..

وكتب تحت رسمه الأبيات التالية :

هـذا أنا الخلُّ المشـ ... ـوقُ الى المواطن فارقبوهُ
ولئن يمُتْ في غربةٍ ... فابكوا عليـه واندبوهُ

أوصى الأمينُ بحبكمْ ووداده كمْ وكذا أبوهُ
فهو الأمينُ ولن يخـ ـنْ بأهله إنْ يصطبوهُ
لا تودعوه الرمس بل بين الأزاهر غيّبوهُ

وقال يهنئ صاحب العطوفة نسيب بك جنبلاط باعادته قائمقاماً على قضاء الشوف سنة ١٩٠٢

شعر

سعدُ السعود بدا في الأفق طالعهُ يهدي التهاني الى الدنيا وما فيها
والفرع أحرز ما للأصل من شرفٍ وسلّم القوسُ ربّ الكون باريها

توشيح — (مذهب)

ثغر بشرى الأنس لمّا ابتسما أوترّ الأفقَ من الصبح قسي
بدّد الأغيارَ عنا ورمى بسهام النور قلبَ الغلّس

دور

طالعُ الأسعاد بالرغد بدا وسنى راياته البيضاء ضاء
زاح عنا ليلُ بؤسٍ وبدا بسهام الفوز مأثورَ المضاء
فعفونا عن زمان عربدا حين وافى يبتغي منا الرضاء
ورفعنا للتصابي علماً أمّهُ كلّ كميٍّ كيّس
وحمدنا وغدَ عيشٍ طالما خلتنا من صفوه في عرس

دور

بكت الأزهارُ من جور الدجى بدموع الطلّ فوق الطلل
وصبا لبنانُ للروض النجي مذ رأى بالطيب يبرء العلل
حيثما الأضباحُ فيه انفرجا عن مرأى حسنه لنسقل
غرّد القمريُّ والطلُّ دمى واكتسى الروضُ وشاحاً سُندسي
وبدا للشمس في أفق الهنا منظرٌ فيه سرور الأنفس

دور

فابتهجْ يا قلبُ قد زال الألمْ ولنا راقتْ أريقاتُ العفا
وبنا كل الهنا أنساً ألمّ وبُعيدَ السُقم فزنا بالشفا
أوَلم نظفر بما تهوى ألم تحل اكوابُ التهاني مرشفا
فربى لبنان فيها قد نما فتنُ الأمن الزكيّ المغرس

وتـــلالا وتعـــالى في سمـــا مجده ؛ بدرُ الجمال المؤنس

دور

يـــا رشيق القدّ يا باهي الجمالْ يـــا غزالاً رقّ فيـــه غزلي
كلّما زدتُ جرىً زدتَ دلال قد وهى صبري وضاعتْ حيلي
إنْ تَرُمْ بالصدّ قتلي يا غزالْ مـــا احتيالي في الهوى ما عملي
فلِمَ أذرفُ الدمـــعَ دمـــا في الهوى يا فتنةَ البئس
مـــا سمعنا قطّ عن ظبي الحمى أنّ فيـــه قسوةَ المفترس

دور

عـــاذلي إنْ لم تدعني فـــاقتصدْ لم يكن حبّي طوعاً باختيارْ
فـــلامي في هواهُ لم يُفد ما قضاه الله لي في الخلق صار
أنـــا راضٍ إنّ قلبي يتّقـــد فاتّئدْ في اللوم زدتَ الكيّ نـــار
والحشا يزدادُ وقداً كلّما طافَ معسولُ اللمى بالأكؤس
لحظُهُ في القلب يرمي أسهماً صائباتٍ عن عيونٍ نعّس

دور

أجمعَ الناسُ على حبّ الجميل انّمـــا الخُلْقُ بدا فيما يَحبّ
درُّ الألفـــاظ أم طرفٌ كحيل أم لطيفُ الدلّ أم حسنُ الأدب
والفتى طبعاً لمن يهوى يميـــل ويرى مـــا فيه المذاق المستحبّ
وأنـــا الحبّ بقلبي إن تمـــا فهو عذري شريفُ المغرس
أنـــا أهوى كلّ حسنٍ إنّمـــا في السجايا عفّـــةٌ لم تدنس

دور

فاتني حُلْمي لك الروحُ فدى ما بقي من رمقي غيرَ النفسْ
قـــل ألم نشرح على كيد العدى ودعِ العـــاذلَ يقرا في عبسْ
إنّ صبري في هواكم نُفدا وعليّ الرشدُ بالغيّ التبسْ
كدتُ أشكو منّ زمان ظلما حاقداً لولا حيـــاة الأنفس
جنبـــلاطيّ سليـــلُ الكُرَمـــا هبـــةُ الرحمـــان للملتمس

دور

ألمعيٌّ كوكبُ الفخر حسيبْ مـــا من الخائف وقتّ الوجـــل
والى العليـــا بالفضل نسيب ملجأ القاصد ذو القدر العليّ
كلّ من يلقـــاه يلقى ما يَطيب من نوال الجود عذبَ المنهـــل

« قل لمن عارضه كن فهما هل ترى الدخانَ مثل النبس »
« إن الله تعالى نعما لم ينلها أحدٌ بأمرس »

دور

مذ تولّى الحكمَ لا ذاق الردى قد تجلّى العدلُ فينا وأقامْ
خشيةٌ من نشره أنْ ينقدا قد أقاموه له قايتقام
فلذا أضحى حنانا سرمدا فله منّا انحنا في ذا المقام
لم يَرُمْ فخرًا بهذا إنّما رامَ أحياء الربوع الدرّس
وبماضي حزمه إن ينفعما عروةَ الظلمَ وقلب السجّس

دور

إنْ سألتَ اليسرَ من أعوانه فإليه كلُّ ذي نعمى يشيرْ
أو سألتَ المجدَ عن أركانه فنسيبُ ابن السعيد ابن البشيرْ
مَن أقامَ العدلَ في لبنانه ورأى الحقَّ به تعمّ النصيرْ
دوحةٌ طالتْ وفرعٌ نجما روحُ عدلٍ جدُّ المجدِ كسى
ولكمْ ضأتْ قد أروى الظما من ندى بحرٍ يديه السلسِ

دور

مَنْ به كلُّ مقامٍ شرفا وبمجدِ العزِّ والمجدِ ربي
لم يزل مولىً كريماً منصفاً يهبُ السائلَ قبلَ الطلب
إنْ يقل جدّي «بشيرٌ» لكنى وسعيدُ الجنبلاطيُّ أبي
موئل العافي وأسمى من سما ذروةَ المجدِ الأثيلِ الأنفس
وفعمةً شادوا وسادوا هما ما عهدنا فيهمِ الدهرُ مسي

دور

أورثَ الحكمَ لكم ربُّ العلى عن جدودٍ رغم أنفِ المدّعي
فاذا شئتمُ أمراً في الملا قيل للدنيا أطيعي واسمعي
كلُّ فردٍ منكمُ ابنُ جلا وضعَ العُشّةَ أو لم يضع
بيتُكمْ مغرسُ روحِ العظما كعبةُ المجدِ وبيتُ المقدسِ
فعليه كلُّ خيرٍ قد همى مثل صوبِ العارضِ المنبجسِ

هذا بعضُ ما وقفنا عليه من مخلّفات هذا الطبيب الأديب اثبتناه في هذه الترجمة تخليداً للذكراه ، واظهاراً لفضله ، ودليلاً على ذيوع أدب اللبنانيين في بلاد المهجر .

الحلقة المفقودة من سلسلة أدباء لبنان :

الشباب الذاوي

بقلم جرجي ابرهيم نصر

في الحياة الغازٌ وأسرارٌ : لا يُدرك كنهها ، ولا يُسبر غورها . يحتار لها العقل فيما اذا حاول استجلاء غوامضها .

كم من حاملٍ علا اسمه ، وأشرق نجمه ، وطابت له الحياة ، وكم من نابغٍ عاش في البؤس والشقاء ، حتى كفّنه الردى .

واذا القينا نظرةً عابرةً على حياة النوابغ ، رأينا ان قافلةً كبيرةً من الملهمين ، مرّت على مسرح هذه الدنيا كالخيال ، لم تترك إلاّ آثارًا كادت تندرس ، وذكريات محزنة تبعثُ الى النفوس الحسرة والألم .

وها نحن أمام خمسة من هؤلاء الملهمين ، شقّوا للنبوغ طريقاً ، فعاكسهم القدر الغاشم ، وحطّم آمالهم ، فأفل نجمهم قبل الأوان ، ولو مدّ الله في أجلهم ، لرأينا لهم آثارًا كريمةً ، وآياتٍ خطيرة .

واظهارًا للعدل ، وبُعدًا عن سياسة الحسد والغدر والأنانية ، ننشر سير المبدعين من مواطنينا ابناء بكاسين من أيّة أسرةٍ كانوا ، والى أيّة فئة انتسبوا أو انتموا .

واننا نقدّم للقراء الكرام سير خمسة نسور منهم ، حلّقوا في سماء الأدب والفكر ، وتفوّقوا بسموّ مداركهم ، ولكنهم ما لبثوا ان غيّبت شموس نبوغهم ، وأطفئت شعل ذكائهم ، فأصبحوا خيالاً وأثراً .

ولا أكتم اني لقيت جهدًا مضنيًا في البحث عن ماضيهم وانتاجهم .

الدكتور بشاره الخوري

١٨٨٣ – ١٨٥٤

كان زهرة يانعة في بستان الذكاء : ينبعث منها النور كانبعاث أزهر من الأكمام ، والعطر من الأزهار : لكن ما لبثت ان اصفرّت أوراقها وتناثرت ، بعد ان تناولتها الأرياح ، وعبثت بها العواصف : فخلتها في المهد : ولمّا تتفتّح أكمامها بعد للنور . فتلاشى الشفق سراعاً .

هو بشاره ابن الخوري اسطفان الخوري وماريا مبارك غنطوس الخوري . وُلد في بكاسين في ٢٠ من ت٢ سنة ١٨٥٤ [1] ومات في الاستانة سنة ١٨٨٣ . بدأ دراسته في بلدته على يدّ والده ، وعلى محيّاه ملامح النجابة والذكاء . ثم أتمّها في مدرسة غزير للآباء اليسوعيين . وكان في غاية الاجتهاد والرغبة . ثم طلب المزيد من تحصيل العلوم والمعارف . فانتقل الى الاستانة وهي في أوج مجدها : وأبّهة سلطانها : ومحطّ أنظار العثمانيين ومطمح طلابهم : يقصدونها من كل حدب وصوب من أنحاء السلطنة . فأكبّ على تحصيل العلوم الطبيّة في المكتب السلطاني : واضعاً نصب عينيه اقتباس العلوم : وأن لا يدع فرصة تذهب سدىً من الوقت الثمين . فتهلل من ينبوعها غزيراً : وتفوّق بعد جهاد مستمرّ على سواد علماً وأدباً وطموحاً .

إلاّ ان بعاده عن أهله ووطنه : كان يزيده ألماً وغمّاً . فتطوف في مخيلته رسومٌ وأشباحٌ وأحلام وخواطر هذا الجبل المنيع . فتلعب القصّات في حنايا فؤاده : والذكريات في نفسه . وبعد أن اجتاز امتحاناً عسيراً : كان فيه في طليعة الطلبة المتفوّقين : قرّر ان يمضي اجازته في وطنه : فعاد اليه في صيف ١٨٧٥ حاملاً ثمار أدبه وجهوده : فكان للقاء مشهد رائع : فأقبلوا يهنئونه ويثنون عليه : ويتمنّون له طيب الإقامة في ربوع الوطن . فطاف في أنحائه مع أخيه ابرهيم — وسنأتي ترجمته — مسحوراً بجماله وتكوينه وابداعه : يروي غليله بمناظره وسحره : وانتهت اجازته . وتأهّب للعودة لإكمال علومه الطبيّة : فانقبضت القلوب : وحمّت العيون بالبكاء : وكانت ساعة الوداع مؤلمة شديدة الوطأة على جميع القلوب .

وسار على بركة الرحمان عائداً الى الاستانة حيث توطّن فيها ، وعاد الى اتمام علومه بعزيمة ماضية ، حتى نجح نجاحاً تاماً في امتحاناته الأخيرة ،

---

١) نقلاً عن سجل احصاء قضاء جزين المحفوظ المحفوظ في مديرية الآثار .

وأحرز الديبلوم في الطب ونال اعجاب اللجنة الفاحصة ، وعُيِّن استاذاً في المدرسة الطبية . ومعلماً في المدرسة الحربية . وصار له صيتٌ بعيدٌ . وأخذ يعالج الفقراء بما فُطر عنه من الرحمة والإنسانية .

قيل انه أبرأ إبنةً غنيةً وحيدةً لوالديها . عجز الطب عن شفائها . وقد تزوجها فيما بعد وهي على غير دينه . وأنجب منها أولاداً . وتوفي في ظروف غامضة وجُهِل مصير أبنائه . وقد أسف الجميع لفقده . وبكوا فيه طبيباً نابغاً . كان يُرجى منه الخير لوطنه لبنان . لما حلّى به من أدب وعلم وذكاء وخلق رفيع .

هكذا قضى الطبيب بعيداً عن الديار . وقضت معه أحلام وآمال . وخبا نوره وعراه الخسوف وهو في عمر الورود . تاركاً في قلب أهله وذويه جراحاً لا تندمل .

ولمّا تلقّى والده الخوري استفان نعيه في بكاسين في اوائل حزيران ١٨٨٣ هاله المصاب الأليم . وانخطب الجسيم . وبكى شبابه . ودماثة خلقه ، ورقّة شمائله . وفاضت عواطفه بالحزن العميق . والألم الشديد ، وقد صبغت صورة الفاجعة قلبه بطابع . حزين . كئيب . واستمرّت العوامل النفسيّة ، والفكريّة ، تتفاعل في قلبه . وفي صدره . فترة طويلة من الزمن . وتراكمت على حياته الهموم والأرزاء ، وتوالتْ عليه النكبات والمحن . وتشاءم في الحياة ، بعد أن شعر بالخيبة ، وخيبة الأمل . وعبّر عن مصابه وألمه ، بكلمة دوّنها في سجلّ الوفيات ، يصف فيها أشجانه ، ويصوّر أحزانه وهذا نصّها :

«تلقيتُ خبراً مرعباً أحرق قلبي ، وهو وفاة ولدنا الحزين بشاره في الاستانة ، يا ليت يدي تحت التراب ، قبل ان خطّتْ هذه الأحرف . وهذه مشيئة الله قد تمّت ، فليكن اسمه مباركاً للدهر» .

ثم علّق في آخر السجلّ كلمة ثانية عن حياة الفقيد الكريم جاء فيها قوله :

«وبشاره من بعد ما درس العلوم ، توجّه الى الاستانة ، وتلقّن الطبّ وأخذ الديبلوم ، وتعيّن حكيماً في (شنك) قلعة حكيم العساكر السلطانية ، ولم تطل المدة حتى توفي في الاستانة العليّة ، وكان له من العمر نحو سبع وعشرين سنة» .

وقد وقفنا على رسالة للطيب كتبها وكتب معها وصف رحلته الى الاستانة ١٨٧٦ بخطّه ؛ بعث بها الى نسيب له في بكاسين تطفحان بالغيرة والمحبة والشوق . وفيها يبدي حزنه وأسفه لمفارقة الأهل والأوطان . ويظهر خوفه وقلقه من هذه الرحلة . ويصفها بقوله « ولعلّ تلك الساعة تكون الأخيرة » لذلك أشبع نفسه من مناظر وطنه الخلابة . وتمتّع بمحاسنه الغزيرة قبل رحلته الأخيرة منه .

وقد رغب اليّ المأسوف على علمه وأدبه المرحوم ابرهيم ابو شقرا غانم (١٨٦٦–١٩٤٢) نشر الرحلة في احدى المجلات الأدبيّة والتعليق عليها ؛ لكن المنيّة عاجلته ؛ فظلّت مطويّة وهذه هي : :

خرجتُ من البيت نهار الأحد الساعة الخامسة من النهار اول كانون الثاني ١٨٧٦ قاصداً الإستانة فكانت ساعة انشقاق مصيبة لا تُطاق ولا يضرب لها بالإملاق . مفارقة الأهل والخلان والأحباب والاقران ؛ والبعد عن الأوطان ؛ فكنتُ حزين الفؤاد مجروح الكبد مفتكراً بسفر طويل وبعد شاسع يخوض الأبحار ومقاسات الأخطار بالأهوال والمشقّات والمصائب والبلوّات ؛ فكان يخطر لبالي بأنه ربما تلك الساعة تكون الأخيرة والنظرة الوحيدة التي بها يمكنني ان ارى وطني وأهلي وأحبابي ؛ فامتلئي ايتها العين من رؤية الحبيب فلينطبع شخصه أمامك لكي دائماً تروي غليلك برؤياه ولو عن بُعد ، ولكن الطرف سحّ بهطل الدمع وغاب عن نظره الحبيب ، فأصبحت مثلّ مَن فقدَ وحيده ؛ منشغل البال قاطع الآمال ؛ فودّعتُ الجميع بحزن لا يوصف وغمّ لا يُقدّر وما كنت اسمع بجانبي سوى صوت النحيب والتنهّدات والبكاء والحسرات التي كانت تمزّق أحشائي فحينئذ ندبتُ عيشة تعسة مملوءة من الأحزان والأخطار والهموم والأكدار وتأسفتُ على غربة طويلة وبالخصوص على طبيعة الانسان البشرية ، فاتكلت على الله وعلوتُ ظهر الجواد وبدأتُ بالمسير جسماً لا عقلاً فبعض الأصحاب واخي من فرط حبّهم ذهبوا معي مسافة طويلة فتودّعنا ايضاً بذرف الدموع متحسّرين على زمان الاجتماع . فبدينا نقطع الفيافي والقفار متأسين من حرّ النهار وانشغال الأفكار حتى وصلتُ الى المحل الموجود به انسي وحشاشة كبدي فحينما قرّت عيني برؤياه تسلّيت نوعاً ومكثت عنده تلك الليلة حتى اصبح الصباح ونور الشمس سطع ولاح نهضت من رقادي مودعاً أخي واين عمي بقلب كئيب وحزن مذيب ، فنحبتُ حينئذ غربتي وندبتُ

حظّي وبدأتُ بالمسير قاطعاً تلك السهول والسواحل البحرية . مقاسياً عذاب الحرّ في تلك الجهات القليل ماعدا حتى وصلنا الى محل يسمّى رأس العين فكان امنى المسافرون ان نمكث هناك تلك الليلة . فسألت عن حجرة لكي أنام بها فما وجدت محلاً مناسباً نظراً لنحرّ والأوساخ الموجودة في تلك النواحي فذهبتُ الى مرجة خضراء محاطة من المياه العذبة التي تشرح البصر وتبهج النظر . تزيل الهموم وتجلي الغموم . فما خطر لذهني سوى رؤية المحبوب والاجتماع به في ذلك المحل لأنه لا يعجبني منظراً جميلاً الاّ لأنه هو أجمل منه وكل شيء من الجمال أجد فيه ذللاً من بعد التبصّر به سوى هو وحده فريد بدون خلل وذلل . فمضيتُ كم ساعة من الليل على هذا الحال وأسرعتُ الى المسير عند انبثاق الفجر حتى وصلتُ الساعة الخامسة من النهار الى عكا لدار سيدي العم ابرهيم[1] فمكثتُ هناك اربعة ايام ونهار السبت مساءً توجّهت الى حيفا لأجل ان أركب في الثابور النمساوي الذي يحضر ليلاً فمكثتُ هناك تلك الليلة عند اولاد عمي[2] وليلة الاثنين ركبتُ في الثابور ماراً ببيروت ومنها الى الاستانة . فنهار الاثنين صباحاً وصلنا الى بيروت فخرجتُ مسرعاً من الثابور الى المدينة لكي أنظر رفاقي هناك حسب المفارقة ولكن منظر بيروت ما كان الاّ لعذابي مخطراً بافكاري اوقات الفرح والسرور والطرب والحبور زمان الاجتماع بهجة الفؤاد وحشاشة الكبد ذلك الوقت السعيد الذي طرفته بها حين حضوري من الاستانة . فبدأتُ أجول بها حتى اجتمعتُ بأرفاقي جميعاً حينئذ خطرت ليالي الإستانة وزمان المدرسة . فبدينا جميعاً نجول في شوارع بيروت حتى أنه أمسى المساء وبتنا تلك الليلة هناك بخط وانشراح واستماع الاصوات العذبة والآلات المطربة . وكان ذلك النهار كامل نظراً لبُعد الحبيب ومفارقة الأهل والخلان . فنهار الثلاثاء مساء ركبنا صحبة الثابور النمساوي المتوجّه الى الاستانة . وكنا قبل نزولنا في الثابور سألنا عن « الكرنتينا » فأخبرونا انها خمسة أيام بالقرب من أزمير قبل وصولنا الى الاستانة بيومين . فبدينا نقطع الفيافي والقفار خابضين مياه البحار . مقاسيين من الأخطار والأكدار ما لا يُقدّر حتى وصلنا الى جزيرة صغيرة تسمّى جزيرة الانكليز . فرأينا هناك أبنية جديدة في تلك الجزيرة التي تبعد عن أزمير مسافة ساعتين في البحر . فرمى الثابور هناك وخرجت جميع الركاب الذين كانوا في الثابور الى البرّ فكنا نرى بعض

(١) ابرهيم نصرالله الخوري .
(٢) سليم نصرالله الخوري وشقيقه ابرهيم .

أناس في تلك الجزيرة الذين كانوا يفرّوا هاربين من قدومنا إليهم كأننا أتينا لمبارزتهم أم كأننا حاملين الموت بين ايدينا وكأنّ الهواء الأصفر هو موجود معنا حتى أنهم اذا اقتربوا منا أم لمسونا يُصابين بأذى ، فذهبنا نعند مدير «الكرنتينة» وأمر لنا بمحل مخصوص بنا . فسألناه مدة اقامتنا هنا أجاب سبعة أيام فاخليتُ في محل بتلك الجزيرة ناشدًا هذه الأبيات :

فارقتُ أهلي واحباباً بهم شُغفتْ ... نفسي الكئيبة فازداد العنا وجلا
فيا مواطن كم ابكيك وا أسفي ... بأدمعٍ أخذت في لوعتي مثلا
لو أنها لبحار الماء قد نزلتْ ... لأغرقتْ مركباً فيه اذا نزلا
تركتُ في ربعك المسعود طالعُه ... شمساً لنظرها نجمُ العلى خجلاً
غيداء مذ لمعتْ أمسيتُ مشتعلاً ... شهباء مذ سطعتْ أصبحتُ منشغلا
رقيّ لحال فتىً خاض البحار وقد ... رماه عشقٌ لتلك الشمس فانذهلا
وبعلما حلّ بي حلّت ركائبنا ... بقرب (أزمير) ارضاً تقطع الأملا
أرض (الكرنتينة) المجهولُ ناظرُها ... أظنّه أحمقاً لم يفهم الجملا
يرومُ يبلعنا يا ليتها بلعتْ ... عيناه من ألمٍ من قبل ان نصلا
ومعه قومٌ من الأتراك تحرسُنا ... تأبى ما كل إلاّ البازَ والحجلا
عورٌ وصمٌ وخرسانٌ قد اجتمعتْ ... فاعجب لربعٍ غريب الجنس قد شملا
كنّا بأرض هي النقراء إن لمستْ ... راحاتُنا أحداً من أهلها جفلا
كأنّنا الجنّ جئنا كي نبارزهم ... ونأخذ الروح أو نقضي لهم أجلا
فخمسة نحن لكن جاء شركتنا ... ملازم فرّ للمصروف مذ ثقُلا
والكلّ لم يُنسني ناراً قد اضطرمتْ ... وسط الفؤاد ، فأمسى الجسم مشتعلا
أصبو إلى وطني المحبوب ما صدحتْ ... بلابلٌ وهلالٌ في السماء علا
وليعلم الناسُ أني عاشقٌ وَلِهٌ ... أبكي بأحمر دمعٍ جارحٍ هطلا
وانني سيّدُ العشاق كلّهم ... ويعرفُ الأمرَ مَن عن صبوتي سألا
أنا المغرّبُ عن ربعٍ به بقيتْ ... روحي ، فأصبحتُ جسماً صار منهزلا
فلمعتي تحرقُ الأحجارَ لو نزلتْ ... أمامها ، وغرامي يُرجفُ الجبلا
فيا إلهي اذا طالَ الفراقُ فهل ... من مؤنسٍ خلقه قد جاوز العلا؟
ولا أدومُ بعشقٍ زائدٍ وعنىً ... وصبوةٍ وغرامٍ ليس محتملا

لكنَّ رجائي العلياء تُرجعني لبقعة في حماها الحسنُ قد كملا
وأنت تغفرُ إثمي والذنوبَ ومـا هذا الفقيرُ من الذلاّت قد فعلا

٥

ففي يوم ما ونحن في «الكرنتينة» نبضنا صباحاً من رقادنا فوجدنا ضجّة قويّة بين الأهالي الموجودين هناك فسألنا عن سبب ذلك فأخبرونا أن رجلاً من الركاب صابر له جريان ولا يعلمون من هو بل وجدوا بعض الملابس مطروحة عند باب الأدب . فحالاً أعطوا خبر الى حكيم الكرنتينة الذي حضر سريعاً وأخرج جميع الناس خارجاً لأجل الفحص عن المريض فأخبرناه انه يوجد بعض العساكر الآتية من اليمن المصابة بأمراض وبائية فأخرجهم حالاً وفحصهم مدقّقاً وأمر بأخذهم الى محل فحوص معيّن للمرضى ؛ فبعد التوقيف اخيراً من الحكيم رأى بأن الملابس الملوّثة تخص رجل أرمني طاعن في السنّ فأمر ايضاً بارساله الى الاستخانة ؛ فكنتُ في ذلك الوقت انظر الى الجميع ما أرى سوى وجوه مصفرّة والحزن والرعبة في قلوب الجميع ؛ لأن خوف الموت لا يشبه خلاف شيء وكل انسان يموت مرة واحدة ؛ فحينئذ كنتُ اتصوّر بفكري بأنه اذا مات أحد باطوا الأصفر في الكرنتينة حسب النظام ملزومين بأن تمكث هناك اربعين يوماً واذا بعد النهار الأربعين أصيبَ أحد يقتضي ان تمكث اربعين يوماً آخر وهكذا الى آخره ؛ هذا خلا عن الخوف الذي يحيق بنا وربما لا سمح الله يُصاب أحد منا ؛ فكيف يكون العمل مع عذاب المعيشة في تلك الجزيرة الصغيرة ؛ فكل هذه الافكار كانت تحاربني جالبة عليّ الهموم والغموم ؛ حينئذ رفعتُ عيناي الى السماء قائلاً : إلهي الى كم من المصائب والبلوات اعرضتني ؛ والى كم من المتاعب والمشقّات طرحتني ؛ فرقة الأهل والخلان والأحباب والاقران ؛ والابتعاد عن الأوطان ؛ سفر الابحار ومقاسات الأخطار واحتمال البلايا والأكدار والتعرّض الى الامراض الوبائية والاسقام المعدية التي لا شفاء منها ؛ فكم هي جسامة عقل الانسان لاحتمال هذه الداهية الدهياء والبلوة العظماء ؛ فما الحيلة والتدبير ؛ والعمل والتيسير ، فلتكمل ارادته تعالى ، فما لي سوى الصبر حيلة ؛ وما لي سوى الاحتمال بصبره ، هطل الدمع من عيناي وتمزّقت احشائي قائلاً :

تبّاً لـوقت أتى بالهمّ والكرَب وبعداً لدهر مضى بالرغـد والطرب
مضى زمـانُ الصفا والتعسُ جاورنا وحان وقتٌ به البلوى مع العطب

فمكثنا على هذا الحال حتى انه مضت مدة الكرنتينة اي السبعة أيام التي كانت تخال لذهننا كأنها سبعة أعوام على سلامة ؛ فقبل ان نركب الى الفابور حضر ناظر الكرنتينة لأجل قبض الدراهم المفروضة على كل شخص ؛ فنحن حسب النظام العسكري ما له حق بأن يأخذ منا ولا بارة واحدة ولكن حسب نظام الناظر يريد يأخذ منا مثل باقي الاشخاص . فأظهرنا له العصيان وبعد معاجة عظيمة دفعنا له ثلث القيمة ورجعنا الى الفابور من بعد توديع ذلك المنظر المكرب وذلك المنفى الحقير واللعنات على ذلك المحل وعلى تلك الأرض بالاجمال . وشكرنا الباري على خلاصنا بالسلامة ؛ وبعد مضي ساعتين من قيام الفابور وصلنا الى « أزمير » تلك البلد الشهيرة المتقنة الأبنية والعمارات وتلك المباني الجميلة الجديدة المنظر والأبنية ؛ فكانت حينئذ الساعة العاشرة من النهار . فكنا نرى الناس تأتي بازدحام الى شاطئ البحر فكان الهواء جيد والجميع خارجون من اشغالهم والبعض في بيوتهم لأجل التنزه والانشراح وعند تلك المباني يوجد قهاوي عديدة ومحلات للملاهي والملاعب ؛ فكان ذلك المنظر يبهج النظر ويشرح البصر ؛ فخرجنا الى البلد لنشتري بعض أشياء ضرورية مأكولات وغيرها ورجعنا مساء للفابور وبتنا تلك حتاك ؛ فبينما نحن غارقون بأبحر النوم لأجل راحة جسمنا من بعد تلك العذابات . والا باحد أرفاقنا نبض من غفلته ناظرًا الى العلاء فوجد بان الغيوم تراكمت وتغيّر الهواء فأيقظنا جميعاً وذهبنا الى محل لا يحكمه المطر ؛ وجلسنا هناك مدة من الزمن ؛ فتكاثفت الغيوم وبدا المطر ينهمر بغزارة من الجهة الشمالية مع نسمات باردة ؛ فكنا نسمع الصراخ من كل جهة وناحية ، نحيب وعويل الأطفال . ضجيج وولولة الوالدين ؛ الرجل يسرع هائماً من كل جهة لأجل تدبير محل لأمرأته ؛ فصارت الناس تزدحم في محل صغير غير محكم للمطر ؛ فمضت تلك الليلة فصارت على هذا الحال بعذاب أليم ؛ فعند الصباح ذهبنا الى عند أحد قباطين الفابور ودفعنا له مقدارًا من الدراهم واخذنا حجرة بها احتمينا من المطر حتى وصلنا الى دار السعادة ؛ وكان قدومنا اليها ثاني يوم من عيد رمضان ؛ فحين رسى الفابور رأينا البعض من ارفاقنا أتوا لمقابلتنا وكان ذلك بفرح وسرور وطرب وحبور شاكرين حامدين الباري تعالى على وصولنا بالسلامة الى وطننا الحالي الذي هو الاستانة ، فذهبنا لرؤية الأحباب والأصحاب وقد مضينا تلك الليلة في الملاهي والملاعب واستماع الاصوات العذبة والآلات المطربة وبعد ذلك دخلنا المدرسة بفرح وسرور وقابلنا الناظر الذي سألنا

عن سبب تأخرنا فأخبرناه بما جرى لنا . مقدّمين له الورقة التي أخذناها من بيروت من قومندان العساكر . شهادة بان القابورات ما كانت تأخذنا في مدة المرض . فتأسف على ما جرى لنا من العذاب وأمر لنا بالانصراف . فبدينا نكدّ مجتهدين في اكتساب العلوم ، متكلين على عزّته تعالى غير مبالين بما جرى . ياعدين من ذهننا كل هذا . مفتكرين بما هو آئل لنفعنا الخصوصي وهو اكتساب العلوم الرياضية والفنون الطبّية .

ابرهيم الخوري

١٨٦٨ — ١٨٩٧

كالزهرة اليانعة التي تنبتُ في الحقل ، وتعطّر ما حولها بأريجها العطار ، هكذا نبت ابرهيم في تربة ذكيّة خصيبة . وتلألأ الذكاء في نفسه ، وتفجّر جداولاً من ينابيع المعرفة والعلم ، وكانت ترتسم على محيّاه علامات الذكاء . ومخايل النجابة ، فتوسّموا به خيرًا .

أبصر النور في بكاسين في ١٨ من ت ٢ ١٨٦٨ وتلقّى مبادئ العلوم على والده الخوري اسطفان فأظهر ميلاً شديدًا للعلوم والآداب على غرار شقيقه الدكتور بشاره — الذي تقدمت ترجمته — ثم أدخل دير الكريم للمرسلين اللبنانيين ، فبقي فيه ثماني سنوات ، فنال شهاداته بتفوّق واعجاب في العربية والفرنسية والسريانية ، وانتقل الى مدرسة مار عبدا هرهريا ، فدرس علم اللاهوت الأدبي والنظري والفلسفة ، ثم عُيّن معلّماً في مدرسة عين طورة . فوقف جهده على تربية الناشئة وصقل أخلاقهم ، ونظراً لاجتهاده ومواظبته على العمل ، ساءت صحّته . فنصح له الأطباء بالراحة والاستجمام في بلدته بكاسين ، فسار اليها مستجمعاً زهاء أربعة أشهر ، وتحسّن تحسّنا ملموساً ، ولكنه لم ينقطع عن المطالعة ، وتحبير المقالات ، ونظم القصائد ، والتنقيب ، والمراجعة . ولمّا أبلّ من مرضه رجع الى تلاميذه ، فازدهرت المدرسة في عصره ازدهارًا كبيرًا .

واشتهر رحمه الله بحدة الذكاء ، وعمق التفكير ، وصحّة الرأي ، ووفرة الاطلاع ، والخبرة الواسعة في التعليم . وخطّ في الأدب مقالات أدبية وفلسفية ، وخواطر شعرية رصينة ، كأنها موجات من الأثير ، تطفو على أدب رفيع ، تدعمها القوّة والبلاغة ، في الخلق والتصوير والتفكير ، منها

ما كان يرسله على صفحات الجرائد كالموج الصاخب : يدعوه الى حبّ الوطن ، وبناء دعائمه ، على أسس متينة ، ونبذ الأحقاد ، والبُعد عن الانتقام والتفرقة .

أغرته الهجرة وحبّ التغرّب والبحث واكتشاف بلاد يستطلع المجهول من اخبارها ومقاتنها . ملتحقاً بمواطنين سبقوه اليها : فهاجر ١٨٩٦ الى البرازيل فجدّ هناك وكدّ لكن صحّته هزلت وانحطت قواه وانتابته العلل والامراض فزرح تحت وطأتها فقفل عائداً الى بلاده وما كان حظّه في الحياة بأجمل من حظ أخيه الدكتور بشاره وما كاد يشعّ نوره حتى اخترمته المنية في مرسيليا وهو في طريق عودته الى وطنه لبنان في العشرين من تشرين الأول ١٨٩٧ ولم يمهله الموت ان يكحّل عينيه برؤى وطنه وينعم بالراحة تحت ثراه فقضى غريباً كئيباً ، وفقدت معه آثاره وخواطره : فخسر الأدب بموته نوراً من انواره وانغلقت الأكمام على زهرة ندية ضوّعت الاسحار باريجها الفوّاح .

وقد عثرنا على صورة خطاب القاه في مدرسة عين ورقة الشهيرة وهو دون العشرين اثناء تمثيل رواية ، نزين به مفرق هذه المجلة الزاهرة : أحببنا أن ننشره مثالا لما كان عليه نسق الكتابة والانشاء في عصره .

ايها السادة الكرام

لا بدع ان ما يوفّر مادة العقل ويهذّب السيرة والسريرة ويؤدّب في الأحوال المعاشية انما هو المعارف والعلوم الأدبية التي منها يتطرّق الى انسانية . كيف واننا نرى ان كلّ أمة نجحت أو تسلّقت الى ذروة المدنية من حياة الخشونة والتنزّل كان أمرها موكولاً الى تقدمها ونجاحها ونموّها في المعارف والعلوم سواء أكان مادياً أم أدبياً . فالعلم زينة بها يتحلّى العقل ويتجمّل ويزهو ، وحلية يتفجّر في النفس ينابيع حكم ، بها تتدبر في كلما يطرأ عليها من الكوارث والبلايا ، وتنظر في عواقب الأمور ، وتتبصّر بها بتحكّم الجاهل ، فيرعوي التهقرى مرشداً ، وطريق منية القرار بها . يتّضح العامة الباطل وجنوح الصبح الذي يجني ولا بد .

وان المعارف والعلوم هي أحد الأمور التي تؤدي الى فلاح العمران ، لا بل هي جوهرٌ له مناعة الإلفة البشرية ، وأحد الأعمدة التي عليها يستند وبها يعتضد ، انما لا واذا ما خلا الإنسان منها عاد أشبه بالهوينا ، وعوائله

وشقائقه الانسانية والذوق . فضائل يوقّر احداً لا جسداً منذ لا يميّز بين العالم والجاهل . فكان لديه الحكيم والبهيم . وحال الناس أجمع شرعاً واحداً . فامتهن هذا من ازدرى ذاك على السواء . ذا علم كان أو غارقاً في حنادس الجهالة ام تائهاً في فيافي الخشونة . ولعمري انه لا شيء يضاهي العالم قيمةً وثمناً . فهو أرفع من ان يوصف . وأعلى من ان يسمت . وبدونه تتوه القيم . ما يشتدّ في النفس لا تستطيع حراكاً . اذ ليس ما يفتات به او هي اعتزّت بما للرجال الناطق من الأمور الحسّية البدنية فقط . وأمست لا تستقرّ الا بها . فاتخذت مواقيع سمجة تشتغل بها دون غيرها . واتخذتها ديناً في كلما عملته . وعلى سائر الأحوال . فقد ضلّت عن مصدر غايتها وانحرفت عنه كل الانحراف . وليس العلم حقيقاً بأن يعتبر اذا لم يكن أسّه المبادئ الصحيحة الفاصلة بين الحقّ والبهتان والصدق والبطلان المرشدة الى الحكم السديد المنزّه عن السفه والتنديد . فكم من عالم علاّمة وجهبذ فهّامة قد مال عن جادة الحقّ الصريح اذ اعتنق المبادئ الفاسدة وتتبّع منها الآثار . فكان علمه ضرراً جسيماً قد أتى بالنفوس الأبيّة وقادها الى وهاد الضلال والهوان . فكم من فلاسفة عظام تحوّلت حكمتهم خزعبلات صبيانية لا تقف عن حدّ البتة . قد جرّهم اليها فاسد برهان غيرهم من الفلاسفة ممّن زاغ علمهم عن صحيح المبادئ وحقيقتها . فزجوا الحق بالباطل . وحبست حكمتهم جهلاً بحتاً وأمسوا على شفا ساقطين من أعين كل ذي علم صحيح . وكم غيره قد جاء بعظمة الإرادة ووافر العادة لكلّ مطالع لمصنّفاته . نجيبٌ أو سامعٌ . دُرَرُ اقواله العسجدية . فكان لكلامه وقع عظيم في القلوب . ممّا ان نال بين القلوب الحنّة وشيء الملفّقة بساطع البرهان الواضح . ظهور البدر في كبد الأفق . وكم يرينا شرف العلم وضرورته معاً وقوّة اعتبار الشرقيين قاطبة لذويه في كل عصر . قُل لنا ما الذي جعل اوغسطس قيصر يجلس فيرجيليوس سائق الظعن على مائدته فيموته بمعزل عن سائر عظماء بلاطه . سوى انه كان شاعراً مبدعاً . وما الذي حمل «نيرون» الملك على ان يستدعي رجلاً ذا اخلاق فيهذّبه ويدرّبه في أحكامه . الاّ لاعتباره علمه وحكمته . أو ما ان نيرون الدني الحسب والزريّ النسب رفعته فصاحته الطبيعية مقرونة بالصناعية . وأعلته على من سواه حتى فوّضت اليه زمام القنصلية وناصيتها . حتى انه ملّص الدولة الرومانية وخلّصها من براثن الدمار . بأن كان ينبّه في أمر تنبه في كل وادٍ وناد . ويجمع الأحزاب ليصلي ضدها نار الحرب

العوان : أترى بالسيف أم باللسان أخرجه من المدينة العظمى : وعمرك بسداد البرهان وفصاحة اللسان : فتبًّا لعصر فيه شمس زهرة مشرقنا في العلوم ذبول : وشابها خمول : فاسترقّيها الغربيون وكنّ عنها متقاربين غافلون . دويٌّ لآونة مقرونة فيها اشتعرت نار الهيجاء . فأثارت الفتن والحروب وأحرقت مكاتبنا الشرقية الغنيّة بسائر الفنون . وما نحن الاّ الخاسرون : فجرى انه بعد ان كنا في بحبوحة الدفاتر والمحابر . أمسينا صفر اليدين . نضرب أيدينا حسرةً وندماً . ولات ساعة مندم : فكان بعد أمد طويل ان من يد اجنبية . بل بالأحرى غربية : عدنا نلتقط بعضاً من شوارد مصنّفاتهم . لمّا ان وطئت أرجلهم بلادنا السورية وارضنا اللبنانية أو ما يغني عن الخبر العيان وينبئ عن النار الدخان معاً : كل كتاب علم تاريخياً كان أم جغرافياً أو منطقياً او فلسفياً او كيماوياً الى غير ذلك من الفنون كان أم منقولاً عن لغاتهم الغربية منها الى العربية أو بعده لم يبرح غير منقول عنها : فألجأتنا الضرورة الى مكابدة عرق القربة وبذل الدم : ناهيك عن اخال في اقتباسها عنهم : ويا ليته يتسنّى لنا احرازها كما يجب لتأتي بني وطننا بفائدة كاملة منها : وعلى سائر الأحوال فنحن هم من الشاكرين كيف لا وهم جمعوا شملها بعد ان كادت تذهب فريسة الاهمال والنسيان وتحاك عليها عناكب الامتهان : سيما ولأنهم ولجوا في هذه الأعصار المتأخرة بلادنا : وأنشأوا في لبناننا المدارس وأحيوا فيه العلوم والفنون بعد ان كانت ماتتة ؟ : بل أحيوا لغتنا العربية بالمعارف والعلوم : فلهم منا مزيد الشكر سيما ولأنهم حرّكوا اريحية بعض أهل الوطن وأغرَوهم بالمثل على تشييد المدارس في كل نادٍ وصقع : فازدهرت والحمد لله في لبناننا أدواح العلوم وهي على ساق النجاح وقدم الفلاح : فنبغ منها جهابذة فطاحل وعلماء أفاضل قد بعُدَ صيتهم كضوء القمر وشمل فضلهم البدو والحضر .

ولمّا كان سيادة الحبر النبيل والجهبذ الأثيل الشهم المقدام وعلم الأعلام الفرد الهمام راعينا الجليل السيد بطرس البستاني الفائق الشرف لا يفتأ ناظراً لكل عمل ميزور بعين الاعتبار : مدّعياً وهو مجبول منذ فطرته بالمبرّة والصلاح وسداد الرأي والحزم في العزم والثبات : واليأس في اليأس : والاقدام على الأخصام : كيف لا وهو الذي لا تروعه الأهوال لو أنها من الأغوال : ولا يرضى الهوان : ولو جاء بالخيل والخيلان : ولا بدّ وانني لو كتبت في وصف صفاته الغرّاء طالباً أمدّ الإسهاب : او قلتُ في مدحه مديحاً أطناب الأطناب : لما كنتُ بعد الاجتهاد الاّ سائلاً في جنب

التقصير ؛ او ذهبتُ بنفسي عن ان أهدي للشمس نوراً وأزيد في البستان زهوراً ؛ فأكون كجالب المسك الى أرض الترك والعنبر الى البحر الأخضر . والعود الى بلاد الهند ، متّعنا الميمن ببقاء ذاته الكريمة ما توالت الأيام وتناءت الأعوام .

دعا بأفضل الأساتذة علماً وأدباً وتقىً ليقوم باعباء هذه المدرسة[1] الكريمة المشيّدة من المثلث الرحمات المرحوم والضربي السيد يوسف رزق رزقنا الله شفاعته في الدارين آمين . فجاء إناء مصطفى قد تناهت المدرسة في ايامه نجاحاً وفلاحاً وعظمت فائدتها للطلبة النجباء باعتناء ذاك الغوار الهمام من لا يفتأ اناء الليل واطراف النهار باذلاً معظم الهمّة والجدّ في اغراء الطلبة وحضّهم على اقتباس العلوم واللغات وارضاعهم اياها ممزوجة بعلم الآداب والتربية المسيحية الحقّة . ولعمري ان الاطناب في مدحه لضربٌ من العتب هو حضرة الأب يوسف الخطيب ؛ وليس الخبر كالعيان ؛ كفانا مؤونة البرهان على براعته ونجابة الطلبة تلامذته ما أجاد به في هذه الرواية من فنون الفصاحة الغربية واساليبها العجيبة . وما فجّرت من ينابيع الأدب والنكت والتحبّب ، ممّا استحقّ ان يكتب بذوب الذهب ؛ ولا غروّ ما ابداه الطلبة من التمثيل الحسن والتشخيص الكامل بسائر الحركات المطلوبة والأسلوب الظريف بسرد الأقوال كل بمقامه كنظامه ؛ تدأب التلميذ وقدره ان يكون مثل معلّمه . فليهنِ بحضرة استاذهم ومؤازريه مزيد الشكر وانماء فيّاض هذه المدرسة ونجحها رحماً رحماً ؛ ولا زالت مضربة على غاية الهمّة والعزيمة في سبيل نجاح الطلبة ؛ وهم له من الخافقين آمين .

اللهمّ حمداً نسديك ايها المنّان وشكراً نهديك ايها الحنّان على ما اولينا من إلاء نعمك المدرارة التي سبغتها علينا بايهابك ايّانا ، يا أفضل الملوك عزّاً واقتداراً وارفعهم مجداً وفخاراً خاقان البرّين وسلطان البحرين من ازدهرت في ايام جلالته ايّده الله ؛ العلوم والفنون في ارجائنا السورية ؛ مليك الورى وليّ نعمتنا بدر امتنان السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان أيّد الله سلطته ما نأى انقارظان وتوالى الفرقدان وتتابع الجلوان ؛ ثم حمداً نسديه لتلك الحضرة الشاهانية والذات الخاقانية على ما نفحت به لبناننا بمن هو أشهر من نار على عَلَم في العدالة واستقامة الرأي والأحكام ، ذي

(١) مدرسة عين ورقة الشهيرة .

الدولة متصرّفنا واصه[1] باشا المعظّم أدام الله دولته مدى الدوران : ولي الذات الكريمة الفخيمة . مزيد الشكر الأوفر على ما أوليته من المنن بما أسعدنا الله بسعده الشهم الهمام والنضل المقدام عزتلو الامير سعد الشهابي[2] الأفخم ادامه الله العليّ في يمن السعد والاقبال هو وسائر ارباب الحكومة الكرام .

الشمّاس فتح الله الخوري

١٨٧٤ – ١٨٩٧

شعاعٌ منيرٌ : وضياءٌ وهّاج انطلق في سماء النبوغ : فأحاط العبقرية بهالة من ذكائه : وتدفّق وحيه قبسات وضّاءة : ولكن الموت الغاشم أطفأه مبكرًا وحرّمَ وطنه من ذاخر بيانه : ورائع جنانه .

وُلد في بكاسين في ١٦ من حزيران ١٨٧٤ من والدين كريمين هما داود فتح الله الخوري[3] من بكاسين ومريم حبيب جبر اني عتلم من مشمّوشه : ونشأ وترعرع على حبّ التقوى والنضيلة . ودرج في أسرة بينها وبين الأدب لواء معقود : ووتر مشدود : وانتقل كالطير المغرّد من غصن الى غصن : ومن مدرسة الى أخرى ، تظهر على وجهه ألوان الذكاء والنبوغ ثم الى ان تلقّى علومه العالية في مدرسة عين طورة : فأظهر فيها نبوغاً كبيراً . وبدا كالكوكب عند انبثاق الفجر .

ومن سمات ذكائه : وهو لما يبلغ الثالثة عشرة من عمره انه أخذ ينشد أبياتاً شعرية من نظمه : تدلّ على ما ينطوي عليه صدره من نبوغ مختزن : واخذ يتدرّج في تحصيل العلوم : واكتساب المعارف : والأيام تزيده حكمةً وبلاغةً : حتى أصبح له أدب عالي المنار ، واتّصل أمره بالسعيد الذكر المطران بطرس البستاني فقدمه من جملة الطلبة الذين سيتلقّون علومهم العالية في مدرسة رومة العظمى ، هذه المدرسة العظيمة التي أخرجت للطائفة والبلاد باقة من العلماء الأعلام تفتخر بهم على مرّ العصور ، خدموا الدين والوطن وتميّزوا بالمعارف والمدارك والنضيلة .

---

(١) حكم من ١٨٨٣–١٨٩٢ .
(٢) قائمقام البترون في سنة ١٨٨٣–١٨٨٦
(٣) توفي والده سنة ١٩٠٧ وجده سنة ١٨٦٥ ووالدته سنة ١٩٠٩

ان المدرسة المارونية في رومة أنشأها الطيّب الأثر البطريرك ميخائيل الرزّي (١٥٧٢—١٥٨٥) بمساعدة البابا غريغوريوس الـ١٣ فازدهرت ازدهارًا كبيرًا ؛ وأنجبت علماء وبطاركة ومطارنة ونسّاك . ملأوا بلادنا نورًا وشعاعًا . بتآليفهم وترجماتهم وآثارهم التي ما برحت مرآة يستنار بها .

وفي سنة ١٨٩٣ جدّد تلك المدرسة الثالث الرحمات المطران الياس الحويّك ١٨٤٣—١٩٣١ (البطريرك فيما بعد) واختار لها التلاميذ الأذكياء لإعادة مجد الطائفة وازدهارها . وكان بين المنتقين الشماس فتح الله داود الخوري . فسافر مع الفوج الأول ؛ ولقوا مشقّات وشدائد في البحر . وحظوا بمقابلة السعيد الذكر البابا لاون الـ١٣ الشهير وهم بالزيّ الشرقي .

وفي ١٧ من ت ٢ من تلك السنة دخل كلّية البروباغندا وهو يجهل اللغات اليونانية واللاتينية والايطالية . أساس العلوم فيها ؛ فاثبرى باجتهاد عظيم عنيف الى درسها . ليلاً ونهارًا حتى أدرك مبتغاه ؛ وأصبح يشار اليه بالبنان . فأعاد بذكائه ؛ ذكرى الاقدمين من مواطنيه العباقرة الذين سبقوه الى مدرسة رومة كالسماعنة والخاقلاني والصهيوني .

واخذ يغرف العلوم والمعارف ؛ حتى فرّق المتقدمين . وبلغ القمّة ؛ ولكن السهر المتواصل . والحرّ اللافح . ورطوبة المكان ؛ أثّرت في صحّته النحيفة . فانحطّت قواه . وذبل جسمه . فأشار الأطباء عليه بالراحة . وما كان ليتحمّل تلك الصدمات . فزرح تحت عبئها وهو في طريقه الى بلوغ القمّة .

وكانت السنة الثانية لغربته ؛ وفي أواخرها بدأ المرض الوبيل يدبّ في جسمه ، فاهتمّ لأمره المطران الياس الحويك ؛ بحنانه وعطفه ؛ ووضعه في المستشفى ؛ . ورأى الأطباء أن ينتقل الى بلدة بحرية ؛ لعلّ تغيير الهواء يفيد صحّته ؛ فأرسله الى (بورتودنسيو) فتقضى فيها ردحاً من الزمن ؛ ظلّ يواصل فيه دروسه ؛ ويصرف وقتاً غير يسير في الكتابة ؛ لكن تغيير الهواء لم يأت بنتيجة ؛ بل زاد الداء استعصاء ؛ فأعيد الى رومة ومنها الى لبنان ؛ وأصيب في الطريق بنوبات أليمة ؛ فأخذ يضرع الله الى أن ينعم عليه بالوصول الى بلدته العزيزة بكاسين ؛ فرفق المولى بشبابه وأوصله الى أهله ؛ فنتحوا صدورهم للعائد الغالي ؛ وأحاطوه بكل عناية ؛ لكن الداء كان قد نخر عظمه ؛ ولم يلبث ان لقي وجه ربّه في ٢٩ من ايلول سنة ١٨٩٧ فعُقدت له مناحة عزّ نظيرها .

وكان أول تلميذ لاقى منيّته من تلامذة المدرسة المارونية بعد تجديدها ؛ واختطف المطران حويك بالذبيحة عن نفسه ؛ وأقامت له أسرته ضريحاً فخماً من الرخام الأبيض . ونُقشت على قاعدته بلاطته الأبيات التالية :

يدُ الردى من رياض العلم قد هصرت غصناً تبدّل بالأثمار أملودا
وقد جلا عن ديار الهمّ مرتقياً جنّة الخلد مغبوطاً وحسودا
وعينُ أهليه والتاريخ ساكبةٌ تبكي على قبر فتح الله داودا

١٨٩٧

ويطيب لنا ان نثبت رسالة شائقة عنه كتبها الينا زميله في الدراسة في رومية المرحوم العلامة الخوراسقف بولس قرألي تنمّ عن تقديره واعجابه بمواهبه الفياضة الغزيرة وهذا نصها بالحرف :

« حضرة الفاضل المحترم

تسلّمت كتابكم الحامل تاريخ ٥ ايار الجاري وأنا على أهبة السفر من مصر الجديدة ؛ فلم اتمكّن من تلبية سؤالكم حالاً . فأشكر لكم حسن ظنكم بي وسأنشر قريباً ردّي على التيكونت طرازي في كرّاس على حدة .

امّا عن المرحوم فتح الله الخوري البكاسيني رفيقنا في مدرسة رومية المارونية فاقول : انه كان على جانب كبير من الذكاء والاجتهاد حتى انه برز على جميع اقرانه في السنتين اللتين قضاهما في رومية وكنا نتلقى الدروس في كلية البروباغنده مع جمهور غفير من شتّى الملل والبلدان .

ولمّا كان رحمه الله يعرف قليلاً من اللغة اللاتينية ؛ ادخل صف الفصاحة فاجتهد حتى فاز بالجائزة الأولى في هذه اللغة مع انه سابقاً لم يكن يعرف منها الاّ النزر القليل .

ولما كانت مسابقات السنة الأولى من الفلسفة فاز بالجوائز الثلاث المعيّنة لصفّه وهو أمرٌ لم يسبق له مثيل في الكلّية منذ خمسين سنة ؛ ويُكافأ الفائز بثلاث مداليات ذهبية تُضرب باسمه ويحضر حفلة تسليم هذه الثياشين جميع كرادلة المجمع مع رؤساء وتلاميذ جميع المدارس التابعة للكلّية ثم يستقبله الحبر الأعظم في جلسة خاصة ؛ ولمّا كان في إعداد هذه الحفلة مشقّة ؛ رأى رئيس الكلّية ان يضع معه في احدى الجوائز التلميذ الذي جاء بعده في المسابقة وان يعطي المذكور المدالية الثالثة ، وقد انتابه في السنة الثانية

مرض ابنك المستعجل وكان يبصق دماً بكثرة عند النوبات . فأعيد ان بكاسين حيث توفي متأسفاً على شبابه ونبوغه . هذا واختم بالدعاء خصوصكم بسوء نصحة والتوفيق .

تذكري في ٢٤ ايار سنة ١٩٤٩

اخوكم اسقف بولس قرألي ع ا د

على ربية من روابي لبنان يضجع هذا الفتى النابغة . يطربه تغاريد الحسون . وزقزقة العصافير : وينعش رميمه نفحات عاطرة من اريج الصنوبر والشيح والزيتون .

يوسف خيرالله نصر

١٨٤٩ — ١٨٨٣

هو يوسف بن خيرالله بن غطاس مسعد سمعان ابو رعد نصر ولد في بكاسين سنة ١٨٤٩ وتوفي فيها في ٣ تموز سنة ١٨٨٣ كان كاتباً مجيداً وشاعراً مطبوعاً . نبغ الأدب صغيراً وما إن قسى عوده قليلاً حتى صار قبلة الأنظار . فألحّ عليه المعجبون بأدبه بفتح مدرسة في قريته لتعليم الاحداث . فجاراهم في رغبتهم وفتح آفاقاً جديدة للطلاب . فطار لمدرسته صيتٌ عاطر في الأنحاء المجاورة حتى أينعت وأزهرت في ذلك العهد المظلم.

وقد ترعرع فقيدنا في جوّ عابق بشذى العلم اذ تثقف على والده ١٨٠٠—١٨٧٢ ثقافةً مكّنته من معالجة الأدب والتقريض . فأفاض في ذكر محاسن الطبيعة : وتغنّى بمجد لبنان : وقبل أن يتمّ نوره : عراه الأفول وهو في عمر البدر : وانحجب رمسه عن العيون وهو في طريقه الى أوج مجده : فعبث الموت بتلك النفحات العابقة بروح الوطنية .

هكذا تهوي النسور من عل قبل أن يتمّ تحليقها : وينطفئ نور العباقرة قبل أن يكملوا رسالتهم . ومن شعره قوله في وصف الظالم :

سألتُ من الظلم الوبيل جروحي ... وجزعتُ ممّا قد ألمّ بروحي
يا ظالماً نشرّ الوباء على الورى ... من خبث قلبٍ مبتلىً بقروح
وانقضّ يفتك بالبريء ووجهه ... ينـدي بكل وقاحةٍ وقبيح

التمثال الحجري لفتح الله بواب الحجري

كالعلّ يكمنُ في ثنيّات الثرى ... ويدبّ بين شوامخ وصروح
تتنسّمُ رياحك بالأنوف وأفسدتْ ... نفحات شيحٍ في ربىً وشيح
ذئب بمظهر آدميّ خاطف ... متدرّعٍ بصفاقةٍ وطموح
أين النصيرُ؟ وأين منك صوابه؟ ... قد طار منك على بساط الريح
يا فاتحاً باب التعدّي للورى ... الظلم حلّ ببابك المفتوح
العدل قسطاس البريّة كلّها ... والظلمُ أقبح من أشلّ كسيح
حُطمت عروش الناجحين. وبعدهم ... قد زال كالأحلام بعد فتوح
لم يرهب التيجان إصليتُ الردى ... والموتُ يفتحُ بابَ كلّ ضريح
لا شيء في هذا الوجود مخلّدٌ ... غير الفضيلة أو ثناء الروح
تتمرّغ الجهّال في آثامها ... وتتيه عُجباً من سماح مديح
والزاهدون يذلّلون جسومهم ... بالصوم مع سهرٍ ولبس مسوح
والعاقل النطن اللبيبُ من اتّقى ... الرحمانَ في حمدٍ وفي. تسبيح

الدكتور بديع غانم

١٨٩٣ – ١٩٢٥

كان صبيّاً نابغاً واديباً عالي الثقافة غزير الأدب وافر المروءة ؛ ذوى غصنه الرطيب يانعاً وهو في طريق جهاده ، فخسرت به الانسانيّة عضواً عاملاً نافعاً كان يُرجى منه الخير لأمته وبلاده ، فالتاعت عليه القلوب وتفجرت المقل وشقت الجيوب .

وُلد في حيفا صباح الاثنين في ٦ آذار ١٨٩٣ [1] وكان والده اذ ذاك مأموراً لإدارة حصر التبغ والتنباك العثماني . وجاء وطنه صغيراً فاستنشق من نسماته البليلة ، عبير الصنوبر التواح فترعرع في ظلاله وسحر بتكوينه وابداعه ، وجعل طابعه وساماً في قلبه ، ودرج من حضن الفضل والتقوى فنشأ ذكياً مولعاً بالعلوم والآداب ودخل المدارس الابتدائية فكان من الناجحين بدروسه وقدوةً أترابه في سلوكه . عرف به خاله المرحوم حبيب بك غانم المحامي الشهير بمصر ، انه على قدر كبير من الذكاء ، فتوسّم فيه خيراً ، وأخذه

(١) راجع للشرق – ٥٨ ؛ ١٩٦٤ ، ص ١٣٥ ، الجزء الثاني ، آذار – نيسان ؛ ورسالة نلب يسوع سنة ١٩٢٦ ، ص ٢١٩–٢٢٥

تعيّنه الى مصر حيث ادخله مدرسة الفرير في القاهرة فاجتاز فيها تسع سنين باجتهاده وتفوّقه على اقرانه علماً وادباً . ولمّا حاز على الشهادات العالية اختار ان يتعلّم مهنة الطب الشريفة . فجاء لبنان ودخل مدرسة الآباء اليسوعيين في بيروت ١٩١٢ ولم تكد تمرّ عليه السنة الأولى والثانية حتى تعكّر جوّ السياسة العالمية فاستدعي الى مصر لكنه طلب ان يسافر الى باريس ليواصل فيها دروسه الطبية . فمنعه أقرباؤه . وقد كان البحر غير آمن لكثرة الألغام أوانئذ : على انه بقي مصرًّا على فكرته . حتى تمكّن من الذهاب الى باريس . وهناك أكبّ على الدروس الطبية بعزم ثابت وايمان كبير حتى برع في الطبّ ، وتخصّص في الأمراض الداخلية والسكّري ، وعيّن معاوناً في مستشفى لجرحى الحرب الكبرى ، ثم مستشفى « لابروس » ثم تنقّل في مستشفيات ليون وبوردو يعالج الانسانية المتألمة ويساعد الجرّاحين في عمليات جراحية دقيقة اكسبته خبرة ومهارة ، واطّلع على احدث الاكتشافات والاختراعات والتجارب الطبيّة . وقد قدّرت الحكومة الفرنسية خدماته الانسانية فمنحته ثلاثة اوسمة وهي : وسام صليب الحرب ، ووسام الاستحقاق الفرنسي ، ووسام ذكرى اليتيم لمساهمته في بناء هذه المؤسسة وتحويل كامل راتبه لمساعدة الأيتام .

ولمّا وضعت الحرب الكبرى اوزارها في اواخر ١٩١٨ عاد الى بيروت على متن طراد حربي فرنسي عن طريق حيفا فهنّأه الشاعر شكري غانم ، وقد كان بينهما رسائل ودّية ، وتقدّم لفحص البعثة الطبية الفرنسية فنال شهادة دكتور بتفوّق معتبر ، وخرج تملأ نفسه الآمال ، وتوّج اعماله بعيادته المرضى مجاناً بعد ان فتح له خاله في مصر عيادةً جهّزها بأحدث المعدات والآلات الطبية . ولم ينعم طويلاً بعطف خاله الذي ما لبث ان انتابه مرض القلب حينذاك . فلازمه بديع مدة اربعة اشهر ، باذلاً كل معارفه ومواهبه في خدمته ، لكن تلك العناية الجهيدة لم تكن لتقوى على الداء فتنفع المريض العزيز ، فان العلّة كانت قاضية ، وهكذا قضى ذلك المحسن الكبير ، فبكاه بديع البكاء المرير وحفظ له طول حياته الذكر الجميل .

وكان اثناء اقامته في باريس قد جمعته مع بعض ادبائها صلات ودّ وأدب ، ظلّوا يراسلونه الى نهاية أيامه كما له مقالات ومحاضرات وابحاث طبّية كان ينوي نشرها في كتاب ، تعميماً للفائدة ، حالت ظروف مرضه دون قصده ، وقد فقدت بعد مماته .

وكان رحمه الله يقصد وطنه بكاسين صيفاً انتجاعاً للعافية : وقد ثابر على خطته في معالجة الفقراء والمساكين وتقديم الدواء لهم مجاناً . مهتماً بشؤونهم كل الاهتمام : فخفف كثيراً من آلامهم واوجاعهم : الى أن أصيب هو بداء السرطان في معدته : ولكن عبثاً يعالج الطبيب نفسه : فأعجزه المرض العضال وقطعه مكرهاً عن مزاولة الطب لنفسه وللغير : والتجأ الى الله الطبيب الأعظم . فزار الأراضي المقدسة : ثم قصد الى باريس فعالجه الاختصاصيون وأجروا له عملية جراحية عسيرة تحمل اوجاعها مدة ستة أشهر لم يستفد منها شيئاً : فأشار عليه الأطباء بالرجوع الى لبنان لعل طيب الهواء والماء يطيلان حياته ولو قليلاً : فترك باريس وفي قلبه حرقة : وفي عينه دمعة : وعرج بطريقه على سيدة لورد العجائبية ملتمساً منها الشفاء بإيمان كبير : وواصل سفره الى بكاسين : ولكن ما لبث ان اشتد عليه الداء : فدخل مستشفى راهبات المحبة في بيروت : وكان بتبتله وصبره يثير اعجاب الراهبات القائمات بخدمته : وكان لا يدع يوماً يمر دون ان يتناول القربان الاقدس . وبعد مدة قضاها في المستشفى متقلباً على سرير الآلام : أيقن أنّ لا حيلة بشرية لشفائه : فعاد الى بكاسين محمولاً على سريره ومرضه يتثاقل : وهو يتحمل اوجاعه العائلة بصبر القديسين : وكان يقضي اوقاته في غاية الصبر : كناسك متعبّد ترك العالم وانجاده : مصغياً الى خرير المياه في الأودية وزقزقة العصافير في الحقول : متمنياً لو أنّ القدر المشؤوم يفسح له في الأجل ليستكفي من ذلك : قبل ان يقذفه الموت الى لجة الفناء والزوال .

وقبل موته استقدم أحد اصدقائه وأملى عليه وصيته وهي بان يقدّم خمسين ليرة مصرية : نفقات مراحل درب الصليب لكنيسة القديسة تقلا في وطنه بكاسين والمال الذي اقتصده انفاقه على الفقراء والمعوزين .

أسكت الموت ذلك القلب الكبير وهو في ريعان الشباب وزهو الحياة يوم السبت في ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٥ وأقيم له مأتم عزّ نظيره : ودفن الى جانب خاله حبيب بك غانم مأسوفاً عليه كل الأسف .

وقد تلقّت عائلته الكثير من رسائل التعزية والمراثي التي تعرب عن أسفها العميق ومشاركتها في المصاب الأليم : نذكر منها المرثاة التي أرسلها لوالدته من البرازيل المواطن اسكندر خليل قزحيا مطر (١٨٦٨–١٩٣٩) دعاها رثاء البديع وهذه هي :

خليليَّ مرّا بي على خلّ دوحة ... صباحاً . وقولا والدموعُ سجام
فواحرَّ قلبي يُبصر الغصن يانعاً ... ويُخسف ذاك البدرُ وهو تمام
ويُشرق في نيل المقابر بينا ... مكانُهُ في الدنيا أسيٌّ وظلام
اسعك من دنياك أن كرامها ... قليل . وبعض نحرّ فيها مقام
مررتَ بنا فيلمّ وعدتَ كأنما ... ألمَّ بنا طيفٌ ونحن نيام
وسرتَ طلوع الفجر مضجع الخُطى ... بقفر بدا الموت فيه ذمام
كأني بذاك النعش والناسُ حولَهُ ... عريسٌ الى الاكليل قام فقاموا
أبعدك في الدنيا عزّا (لفريدة) ... غدتْ هدفَ الأقدار وهي سُهام
تمرّ ليالي الدهر سوداً كأنما ... عليَّ مسرّاتُ الحياة حرام
بماذا أعزّيكم وقد جلّ خطبكم ... وقصّر فيه منطقٌ وكلام
أبيتُ ولي حزنٌ نديمٌ مسامرٌ ... دموعُ الأسى راحي وكفّيَ جام
ومَن كان مثل (اسكندر) صادق الوفا ... اذا جنّ حزناً ما عليه ملام

١٩٢٥

ZÉNOBIE DE PALMYRE

ÉTUDE CRITIQUE

PAR

CARLOS CHAD, S. J.

Introduction.

Un demi-siècle d'effort patient des archéologues et des historiens a renouvelé notre connaissance de Palmyre. La cité caravanière du désert syrien a bénéficié de deux avantages: une fouille étendue, systématique et sans cesse reprise, comme celle de Leptis Magna; la publication des principaux monuments et textes épigraphiques grecs, palmyréniens et bilingues par l'abbé Chabot et J. Cantineau a suscité les études parues principalement dans la revue *Syria*. Citons notamment celles de MM. Seyrig, Ingholt, Starcky, Schlumberger, Michalowski, Collart, Will; elles éclairent les historiens sur les cultes et les dieux, le commerce, les institutions civiles et militaires de Palmyre. Aujourd'hui encore, des missions de fouille suisse, polonaise, française ou syrienne poursuivent une exploration qui se révèle pleine de promesses.

Ce qui reste cependant mal élucidé, c'est l'histoire politique de la ville, ses relations avec les deux grands empires limitrophes, Rome et la Perse; ce ne sont pas les hypothèses qui ont manqué dans ce domaine, mais qu'il s'agisse, par exemple, de déterminer la date et le mode de l'annexion de Palmyre à l'empire romain, ou le comportement de Zénobie envers les empereurs illyriens, les théories échafaudées divergent sur plus d'un point. L'histoire progresse souvent par ces prises de position contradictoires où un problème controversé apparaît sous un angle nouveau.

Dans la restitution de l'histoire politique de Palmyre, certains historiens ont été égarés par des préjugés dûs à la xénophobie; d'autres ont suivi avec une fidélité trop aveugle des données incertaines de l'Histoire Auguste. Il appert aujourd'hui que ces sources offrent des pistes volontairement brouillées. Le biographe d'Aurélien l'a

raillé d'avoir triomphé d'une femme, comme si l'affrontement avait eu lieu dans un champ clos, comme au temps des tournois de chevalerie. L'enjeu du débat, c'est ce que représentaient les deux antagonistes: derrière Aurélien, c'est l'armée du Danube qui, depuis l'assassinat de Philippe l'Arabe, entendait définitivement barrer la route à tout prétendant à l'empire venant d'Orient. Aigris par vingt ans de défaites devant le déferlement des Goths, les Illyriens considéraient l'empire comme l'apanage de leurs généraux éphémères. L'armée romaine d'Orient, voyant depuis la capture de Valérien par les Perses, Rome incapable d'intervenir à l'Est, se considérait comme la seule force capable de protéger l'empire contre Sapor. La compétition entre les deux armées remontait loin: on la voit prendre corps à l'avènement de Vespasien, rebondir à la mort de Commode, s'affirmer sous Philippe et Dèce. Si Zénobie fut finalement vaincue par Aurélien, c'est que les Illyriens étaient mieux équipés pour la guerre. Une cause juste, défendue avec courage, peut être perdue sur les champs de bataille. Le rôle de l'historien n'est pas d'accabler les vaincus, mais d'expliquer les faits tels qu'ils s'imposent à lui, dans sa recherche de la vérité. Tel est l'objectif que cette étude se propose.

PORTRAIT DE ZÉNOBIE

Procès de Zénobie.

Un historien récent a fait le procès de Zénobie: M. J.G. Février, esquissant le portrait de la reine, estime « qu'un trait domine tout le caractère de Zénobie: une ambition féroce, insatiable; un désir effréné du pouvoir était le seul ressort qui maintenait cette âme tendue; du jour où elle sentit la partie perdue pour elle, son effondrement fut lamentable » (1).

Quand ensuite, du caractère de Zénobie, M. Février passe à sa politique, il n'est pas moins catégorique: « Il semble que Zénobie, dès le premier jour, ait pris le contrepied exact de la politique d'Odeinath. Ce dernier s'était efforcé de rester en bons termes avec les Romains. Zénobie, à peine installée au pouvoir, les brave ouvertement. Odeinath avait laissé fonctionner à peu près correctement les institutions démocratiques, ou soit-disant telles, de la cité palmyrénienne. Sous Zénobie, on n'en entend plus parler » (2).

(1) J.G. Février, *Histoire politique et économique de Palmyre*, 1931, p. 103.
(2) *Ibid.*, p. 103.

Cette façon cavalière de prendre ses distances envers Rome ne va-t-elle pas pousser Zénobie vers la trahison? M. Février ne craint pas de l'affirmer: « Après la mort d'Odeinath, Rome voulut profiter de l'occasion pour mettre à la tête des légions d'Orient un vrai Romain: ce fut à Héraclianus, préfet du Prétoire, qu'échut ce périlleux honneur. Autant qu'on puisse en juger, les troupes palmyréniennes refusèrent d'obéir au nouveau Dux et, lorsque ce dernier se fut engagé à fond contre les Perses, elles tombèrent sur ses arrières et lui infligèrent une sévère défaite. Si cette action fut, du point de vue stratégique, un brillant succès pour l'état-major palmyrénien, au point de vue politique, ce fut une sottise, car les légions romaines rentrèrent en Occident et les troupes de Palmyre restèrent seules maîtresses en Orient » (1).

Je montrerai plus loin, en examinant la situation des armées en présence, combien ce jugement manque de nuances. L'hostilité de M. Février à l'encontre de Zénobie ne connaît d'ailleurs pas de mesure. Racontant son procès, il prononce ce verdict: « Cette souveraine, jadis si fière, se conduisit avec la lâcheté la plus répugnante. Elle ne songea qu'à sauver sa vie, en accusant ses amis » (2).

Défense de Zénobie.

Opposons à ce réquisitoire la défense que fit de Zénobie son propre adversaire, Aurélien. Écrivant au Sénat pour rendre compte de sa campagne contre Palmyre, l'empereur s'écrie: « On me reproche d'avoir triomphé d'une femme. Mes détracteurs ne parleraient pas ainsi s'ils savaient de quelle femme ils parlaient: s'ils connaissaient sa prudence dans les conseils, sa persévérence dans les décisions, sa fermeté envers les soldats, sa libéralité lorsque l'occasion le demande. Je puis dire qu'Odeinath a dû à sa femme de pouvoir vaincre les Perses, d'avoir mis Sapor en fuite et d'être parvenu jusqu'à Ctésiphon » (3).

Une telle femme était assurément digne de régner et sa culture ne fut pas moindre que son sens politique: elle avait l'esprit ouvert, parlait couramment le grec, le palmyrénien, l'égyptien, comprenait le latin. Elle avait attiré à sa cour le philosophe Longin et l'évêque d'Antioche, Paul de Samosate. Elle aimait l'histoire, avait lu en grec l'histoire de Rome (sans doute dans Dion Cassius), avait fait pour son usage un résumé de celle de l'Orient et de l'Égypte,

(1) J.G. Février, *Histoire politique et économique de Palmyre*, 1931, p. 104.
(2) *Ibid.*, p. 136.
(3) S.H.A., *Vie d'Aurélien.*

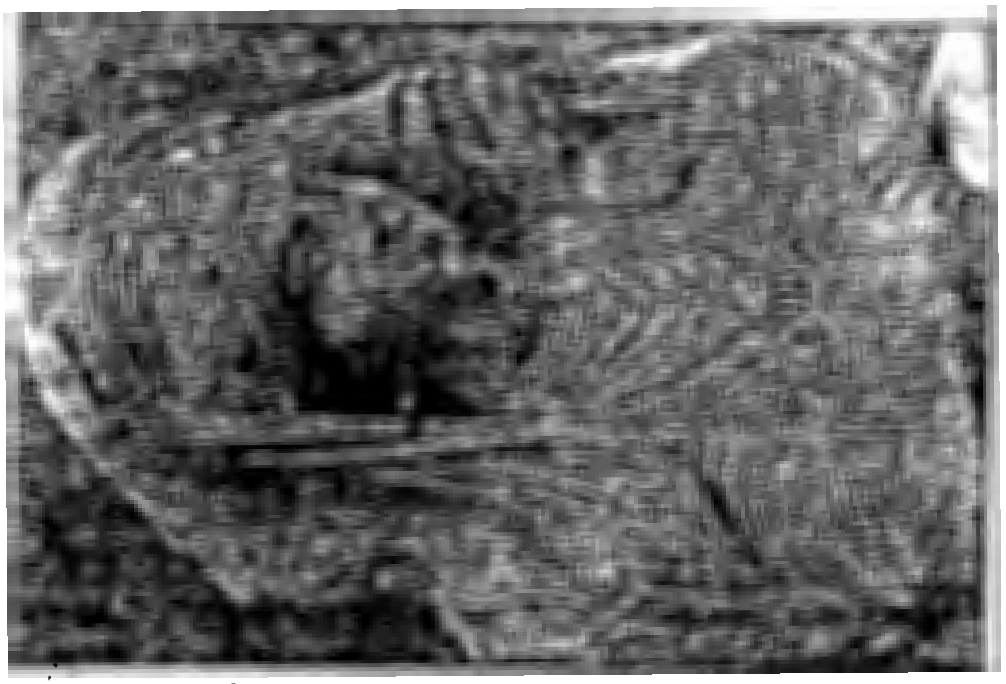

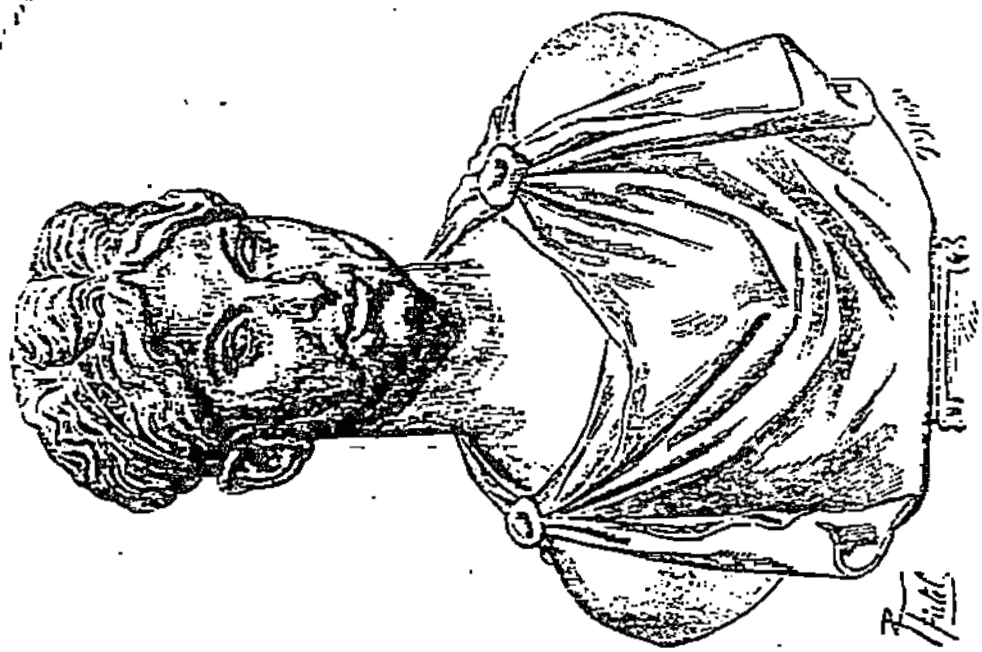

et à l'exemple des reines prestigieuses de l'Orient, Sémiramis, Cléopâtre et des princesses syriennes de la dynastie des Sévères, elle pouvait rêver, elle aussi, de marquer son époque.

Du reste, même douée de qualités supérieures, cette femme n'en resta pas moins toute sa vie une fille du désert. Voici comment la dépeignent ses biographes anciens: « Elle avait le teint brunâtre, les yeux noirs et d'un éclat merveilleux, les dents d'une telle blancheur qu'on les eut prises pour des perles. Elle parlait d'une voix sonore et mâle et haranguait ses troupes le casque sur la tête. Elle se faisait porter sur un char, rarement sur une litière, mais on la voyait surtout à cheval. On dit qu'elle faisait souvent 3 ou 4 milles (1) à pied avec les soldats. Elle supportait le soleil et la poussière. Elle chassait avec Odeinath dans les forêts et les montagnes. C'était la plus noble femme d'Orient et la plus belle » (2).

Elle savait frapper les imaginations par le faste de sa cour: « Elle se faisait rendre l'espèce de culte imaginé par les rois de Perse, imitait dans ses banquets le cérémonial usité à la table des empereurs, servait ses convives dans de la vaisselle ayant appartenu à Cléopâtre. Elle portait des robes royales bordées de pourpre et de pierreries: d'une chasteté proverbiale, elle était habituellement sobre. Mais elle buvait lorsqu'il le fallait avec ses généraux, et elle l'emporta, dans ces sortes de compétition, sur les Perses et les Arméniens. La crainte qu'elle inspirait à ses peuples, en Orient et en Égypte, fut cause que ni les Arabes, ni les Saracènes ni les Arméniens ne connurent de conflits tant qu'elle régna » (3). Aurélien ajoute: « Je ne l'aurais pas laissée vivre si je n'étais convaincu qu'elle a rendu d'importants services à la république, même en se saisissant de l'empire d'Orient pour elle et pour son fils » (4).

Nous ne possédons de Zénobie qu'un buste du Vatican, conservé au Musée Chiarmonti (5) et des monnaies d'un type assez conventionnel (6) où la reine apparaît, portant le stéphané, selon la coutume des impératrices romaines. Rien ne ressemble moins aux portraits des riches matrones, que nous ont livrés les tombeaux palmyréniens, (à la tête voilée et couverte de chaînes et de pierreries,) que le buste de Zénobie, en tunique unie et sans bijoux, coiffée à la grecque de courts cheveux bouclés.

(1) Un mille romain valait 1481 mètres. La marche était donc de 4 à 5 km.

(2) S.H.A., *Les trente tyrans, Zénobie.*

(3) S.H.A., *Aurélien.*

(4) S.H.A., *Aurélien.*

(5) N° 263.

(6) Th. Rhode, *Catalogue des monnaies des princes de Palmyre*, pp. 299-302.

PALMYRE ET LES PERSES.

Zénobie a toujours penché vers la civilisation gréco-romaine. Après la capture de Valérien en 260, les Perses constituèrent une menace redoutable contre Palmyre et la province de Syrie. Odeinath, au témoignage d'Aurélien, attaqua Sapor sur les conseils de sa femme, mena contre le roi des rois deux autres campagnes en 262 et 266: il put reconquérir la Mésopotamie, peut-être aussi l'Arménie, plantant ses flèches sur les portes de Ctésiphon. Il envoya à Gallien des satrapes et l'empereur put ajouter à ses titres celui de Persicus Maximus. L'empire recouvrait grâce aux Palmyréniens, ses frontières, telles qu'elles s'étaient constituées, après la campagne de Septime Sévère.

Après ces défaites, Sapor, dut accepter ces frontières et il est probable qu'un traité avec Palmyre scella cet accord, puisque plus tard, Zénobie songea aller chercher secours chez les Perses, lorsqu'Aurélien assiégeait sa ville. Gallien avait récompensé Odeinath, déjà roi des rois (titre qui le mettait, diplomatiquement au moins, à égalité avec Sapor), en le nommant consulaire, « Dux Romanorum », c'est-à-dire généralissime des légions romaines de Syrie et, en 262, Imperator (1), titre viager, transmissible après sa mort, à son fils Hiéroclès. Sur le plan civil, Odeinath fut « Corrector Totius Orientis »; Odeinath devenait ainsi une sorte de superpréfet, coiffant les gouverneurs ordinaires de Syrie, Palestine, Arabie et Cilicie. Les rapports entre Rome et Palmyre sont donc de totale collaboration. Mais à la fin de 266 ou au commencement de 267, le roi et son fils sont assassinés par Maeonius, un parent jaloux qui se proclame roi des rois à Palmyre. Mais ce dernier est rapidement éliminé par Zénobie qui entendait garder pour elle et son fils Wahballât la succession de son mari.

Wahballât était mineur. En demandant à Gallien de reporter sur son fils les titres accordés à Odeinath, Zénobie cherchait à être confirmée dans sa situation de Régente. L'entourage illyrien de Gallien crut le moment favorable pour confisquer à son profit le prestige de l'Orientale. Le préfet du Prétoire Héraclianus (2) arriva en Orient à la tête d'une armée illyrienne, et sous prétexte de marcher contre les Perses pour délivrer Valérien, pénétra sur le territoire des Palmyréniens. Une attaque contre les Perses rompait l'accord entre Odeinath et Sapor en 266 et rouvrait une crise qui menaçait en premier lieu Palmyre. Zénobie était trop fine pour ne pas comprendre l'enjeu de cette expédition. Elle repoussa donc

(1) S.H.A., *Trente. Tyr.*, XV, 5; *Gallien*, XII, 1.
(2) S.H.A., *Gallien*, XIII, 4-5.

Héraclianus et Gallien n'insista pas: mais en sacrifiant son préfet du Prétoire, l'empereur devait s'en faire un ennemi redoutable, puisqu'on trouve Héraclianus en compagnie d'Aurélien, dans le complot qui coûta la vie à Gallien en 268 (1).

Ce nuage passé, Zénobie et Gallien revinrent au statu quo antérieur. Sur les monnaies d'Antioche qui dépendent de Palmyre, figurera jusqu'à sa mort, l'effigie de Gallien, symbole de la suzeraineté romaine. Wahballât ne frappe pas encore monnaie, et s'il assume tous les titres de son père (2), Zénobie, elle, se contente du titre de reine, mère du roi des rois (3).

L'ARMÉE ROMAINE D'ORIENT.

M. J.G. Février, on s'en souvient, avait qualifié de « sottise politique » l'opposition des Palmyréniens à l'action d'Héraclianus, cette attitude ayant entraîné le départ des légions romaines vers l'Europe. Sur ce point, M. Février a été égaré par Léon Homo, auteur d'une vie d'Aurélien (4). Nous croyons utile de résumer son argument en ce sens: « Les officiers romains, mécontents déjà d'Odeinath, ne pouvaient rester au service de Vahballât; ils durent rallier l'armée d'Héraclianus » (5). Nous ne voyons nulle part que les officiers romains aient été mécontents sous Odeinath (en tout cas M. Homo n'en cite aucun). De plus, le transfert des légions et des officiers ne se faisait pas, dans l'empire romain, par décision des légats légionnaires, ou du préfet du Prétoire, mais par ordre de l'Empereur. Or Gallien n'a pas soutenu Héraclianus après sa défaite. Tout au contraire, il a renouvelé son alliance avec Zénobie, et la charge de Dux Romanorum reconnue à Wahballât suppose qu'il fut généralissime des légions romaines de l'armée d'Orient. A supposer que certains officiers de ces légions aient pris le parti d'Héraclianus, Gallien avait tout intérêt à les remplacer sans retard pour s'assurer du loyalisme de l'armée d'Orient.

M. Homo croit avoir trouvé un indice du déplacement de certaines légions de Syrie, dans l'examen des monnaies légionnaires frappées sous Victorinus (6). Ces monnaies mentionnent, en effet, onze légions, parmi lesquelles figurent la IIa Trajana, la IIIa

(1) S.H.A., *Gallien*, 14; AUR. VICT., *Caes.*, 33, 21; EUTR., IX, 11; ZOZIME, I, 14.

(2) CLERMONT-GANNEAU, *Revue Biblique*, XXIX, 1920, p. 401.

(3) WADDINGTON, 2628.

(4) L. HOMO, *Essai sur le règne de l'empereur Aurélien* (Paris, 1904).

(5) L. HOMO, *Essai sur le règne de l'empereur Aurélien*, p. 49, note 2.

(6) *Revue Numismatique*, 1884, pp. 293-298.

Gallica et la Xa Fretensis cantonnées auparavant en Syrie. Mais M. Homo ne tient pas compte de la chronologie. Ces monnaies ont été frappées en 266-267, et à cette date, l'entente entre Odeinath et Gallien était parfaite. La défaite d'Héraclianus date de 268. Enfin, si ces légions avaient suivi le préfet du Prétoire, elles seraient allé grossir les effectifs de l'armée du Danube, aux prises avec les Goths, et en aucun cas n'auraient été affectées à l'armée de Victorinus, qui en 268, s'était séparée de Gallien.

Le dernier argument invoqué par M. Homo pour défendre sa thèse n'est pas plus solide que les précédents: « Ce qui est certain, dit-il, c'est qu'en 269, l'armée qui partit à la conquête de l'Égypte, et en 272, au moment de la bataille d'Émèse, l'armée de Zénobie, est entièrement orientale, surtout syrienne et palmyrénienne. Commandée par le général palmyrénien Zabdas, elle était composée de grosse cavalerie (clibanarii) et d'archers (sagittarii) (1) : il n'est pas question de troupes légionnaires » (2).

M. Homo sait très bien que depuis le IIe siècle, l'armée d'Orient se recrute sur place, parmi les fils des vétérans installés par les empereurs dans les colonies romaines, les légions sont seulement encadrées par des officiers venus des provinces occidentales de l'empire. Bien avant l'époque qui nous intéresse, les Palmyréniens y entraient en grand nombre (3). Après la défaite d'Héraclianus, la force combattive de l'armée d'Orient est si peu diminuée qu'elle remporte en Égypte et en Asie Mineure des victoires foudroyantes.

La situation dut être fort différente en 272: Lorsqu'Aurélien eut rompu avec Zénobie, il est probable que certains corps légionnaires, et sûrement de nombreux officiers ont raillié l'armée de l'empereur. Cet affaiblissement des cadres supérieurs est l'une des raisons qui expliquent la défaite de Zénobie.

Claude II le Gothique (268-270) et Palmyre.

Gallien avait difficilement gouverné contre son entourage illyrien; son successeur, Claude II, par sa naissance et sa carrière appartient à l'armée du Danube. Comme l'indique son surnom « le Gothique », c'était le premier Romain, qui après vingt années de défaites, avait réussi à triompher des Goths, à Nish (actuelle Yougoslavie). Mais cette victoire date de 269. Au début de son

(1) *Rufus Festus*, 23.
(2) L. Homo, *ibid.*, p. 49, note 2.
(3) *C.I.L.*, III, 6583; Zosime, I, 44; I, 55.

règne, il avait maintenu le statu quo avec Palmyre (une inscription d'Afrique, lui donne le titre inexplicable de Parthicus Maximus) (1).

C'est sous son règne que se place la conquête de l'Égypte par les Palmyréniens. Cette campagne, présentée par les historiens malveillants comme une menace contre Rome, s'explique selon nous par des raisons toutes différentes.

Dans la situation embarrassée où se trouvait l'empereur, du fait de la menace des Goths, Rome ne pouvait défendre l'Égypte contre les incursions des pirates. Probus (ou Probatus) patrouillait bien en Méditerranée, mais il disposait de très maigres effectifs et à tout moment, l'Égypte pouvait échapper à Rome, la privant ainsi du ravitaillement indispensable en céréales. L'armée d'Orient après avoir réussi à conjurer le péril perse, se trouvait parfaitement en mesure de sauver l'Égypte. Elle avait un effectif de 70.000 hommes. A Alexandrie, un fort parti palmyrénien, lié à Zénobie par des intérêts commerciaux, insistait auprès de la reine, pour recevoir la protection de ses troupes. En décidant cette expédition, Zénobie agissait au mieux des intérêts du commerce palmyrénien, mais elle pouvait parfaitement estimer que l'Égypte rentrait dans les attributions du *Dux Romanorum* de l'armée d'Orient.

L'expédition en Asie Mineure s'explique par les mêmes soucis de protéger l'Orient contre les Goths qui avaient réussi un moment à prendre pied sur la rive asiatique de la Propontide. Les troupes de Zabdas les en délogèrent promptement.

Claude II, malgré ses sympathies affichées pour l'armée du Danube, ne s'insurgea pas contre ces deux campagnes; en prolongeant le statu quo conclu sous Gallien, il reconnut implicitement les raisons que lui fournit Zénobie pour expliquer ces opérations.

Quoi qu'il en soit, les Palmyréniens furent accueillis, en Égypte et en Asie Mineure, comme les libérateurs. A la population grecque d'Alexandrie, Zénobie se présenta comme une descendante des Lagides: elle ne venait pas comme une étrangère, mais comme une nouvelle Cléopâtre, ayant à cœur la grandeur de l'Égypte. Cette affiliation à Cléopâtre n'est pas plus étonnante que celle de l'africain Septime Sévère qui, à son avènement, se donna à Rome pour le descendant de l'espagnol Trajan.

Il est évident que l'extension du territoire palmyrénien ne pouvait qu'augmenter la jalousie de l'armée du Danube vis à vis de leurs concurrents orientaux. Claude II allait succomber bientôt à la peste, en 270. Son successeur Quintillus, choisi par le Sénat, souleva l'opposition de l'armée. M. A. Alföldi, en soulignant

(1) *C.I.L.*, VIII, 4876.

que Palmyre ne reconnut pas Quintillius (1), conclut un peu hâtivement que, ce faisant, Palmyre accomplissait un premier acte d'insubordination envers Rome. Wahbailât, au contraire, en se rangeant à l'avis de l'armée du Danube, répondait à sa rancœur par un geste d'apaisement, en adoptant sa prétention à désigner elle-même le successeur de Claude.

L'œuvre culturelle de Zénobie.

A la mort de Claude, le royaume de Palmyre s'étend sur tout l'Orient, du Nil au Pont-Euxin. Avant de poursuivre le déroulement des événements qui l'ont conduit à sa ruine, il nous faut examiner l'œuvre culturelle de Zénobie.

Deux motifs ont poussé la reine de Palmyre à exercer une telle action: son goût naturel et les impératifs de sa politique. Nous l'avons vu, Zénobie était personnellement polyglotte; sa culture était surtout historique (2). Et l'exemple des grandes Orientales qu'elle voulait imiter, Cléopâtre, Julia Domna et les impératrices de la dynastie des Sévères, l'incita à rassembler un salon littéraire, où le philosophe Longin voisinait avec le théologien Paulde Samosate.

Mais la curiosité intellectuelle n'explique pas tout. Il y avait les impératifs de la politique: la conquête de tant de contrées, ethniquement et linguistiquement si différentes, imposait l'unification de ces éléments hétérogènes, pour les attacher à Zénobie et à sa dynastie. L'antagonisme le plus apparent était celui qui opposait l'élément arabe du désert à la population grecque des villes. Les Arabes constituaient une pépinière inépuisable de combattants, parfaitement adaptés aux opérations de la steppe, archers, cavaliers, méharistes, que Rome avait utilisés sur les frontières de l'Afrique et en Germanie. L'élément hellénisé des villes tenait, par le commerce et l'industrie, toute la vie économique du royaume. Si les sympathies de la reine la poussaient vers les Arabes, son sens du gouvernement l'engageait à ne pas négliger les populations urbaines, plus adonnées aux choses de l'esprit. Pour rallier ces Grecs à sa politique, le choix de la reine se porta sur le rhéteur Longin. Dionysius Cassius Longinus, comme Plotin, s'était formé à l'École d'Alexandrie. Il avait par la suite enseigné la philosophie à Athènes et composé de nombreux ouvrages dont il ne nous est resté que les titres et de courts fragments. On lui attribue, à tort semble-t-il (3), *Le traité du sublime*, ingénieuse et élégante analyse

(1) A. Alföldi, *Berytus*, V, p. 88 et *C.A.H.*, XII, p. 179.
(2) S.H.A., *Trente tyrans, Zénobie.*
(3) Vaucher, *Etudes critiques sur le Traité du Sublime*, 1854.

des éléments du sublime poétique et oratoire. Tout le monde sait, en Orient surtout, l'importance et la magie de la parole pour électriser les foules. Par ses liens avec Alexandrie et Athènes, Longin devenait, aux yeux des populations hellénisées de Syrie, comme le représentant de la culture grecque qui fleurissait dans ces deux capitales de l'esprit.

Avec le rhéteur Longin, Zénobie s'adjoignit Paul de Samosate. Comme Julia Domna avait mis à la mode Apollonius de Tyane (1), comme Julia Mammaea avait eu des entretiens théologiques avec Origène, Zénobie trouva à Antioche un théologien suffisamment célèbre, mais merveilleusement souple, pour se plier à ses tentatives religieuses d'unification syncrétiste.

Paul de Samosate.

M. Gustave Bardy a consacré à Paul de Samosate une étude historique remarquable (2) qui éclaire d'une vive lumière les relations de ce personnage avec Zénobie.

Il semble assuré aujourd'hui que Paul ait été redevable à Zénobie de sa double promotion ecclésiastique et civile. L'évêque d'Antioche, Démétrianus, avait été emmené en captivité par Sapor, en 258. Après avoir vaincu les Perses, les Palmyréniens étaient devenus, à la suite de la captivité de Valérien, les vrais maîtres d'Antioche. Zénobie avait profité de la situation où se trouvait l'Église de cette ville, désemparée par l'exil de son évêque, pour le remplacer non point par un Antiochien hellénisé, mais par un Commagénien venu des régions orientales de la Province, « un représentant des pures traditions syriennes ». Pour accroître son autorité et son influence, Zénobie avait élevé le nouvel évêque à une haute charge civile. En devenant ducenaire, Paul exerça la fonction d'intendant des finances, et fut, auprès des Antiochiens, comme le représentant personnel des rois de Palmyre (3).

Si Paul mécontenta les théologiens orthodoxes par son enseignement christologique, ses fidèles, en revanche, en étaient fort enthousiastes. « Il groupait aussi autour de sa personne le clergé et les évêques des campagnes peu influencés par la culture hellénique et fidèles au vieil esprit araméen... On était fier de voir à la tête d'Antioche un homme du pays, qui avait été élevé selon les usages locaux, qui parlait familièrement la langue syrienne: sans

(1) Son culte était encore puissant du temps de Zénobie. S.H.A., *Aurélien*.

(2) Gustave Bardy, *Paul de Samosate* (édit. refondue), 1929.

(3) *Ibid.*, p. 257-258. Mgr Battifol prononce même le mot de vice-roi, qui est peut-être impropre.

doute faut-il voir là une des raisons les plus puissantes de la popularité du Samosatéen. Les évêques des campagnes, les *chorepiscopoi*, étaient particulièrement nombreux et influents en Coilé-Syrie. Pour Paul, c'était une force d'avoir pour soi les chefs du Christianisme local » (1).

En ce qui concerne Zénobie, cette popularité de l'évêque fonctionnaire d'Antioche servait bien ses desseins, sur le double plan politique et religieux: comme fonctionnaire civil, Paul était chargé de faire reconnaître par les Antiochiens le régime de Palmyre et même de le rendre aimable. Mais l'enseignement doctrinal de Paul n'était-il pas, en partie du moins, conditionné par sa tâche politique? « En insistant sur le dogme de la monarchie divine, et en accordant au Christ une place fort inférieure à celle que lui reconnaissait la foi traditionnelle, le Samosatéen ne se laissait-il pas guider par le désir de plaire aux... païens cultivés dont Zénobie aimait s'entourer? Le synchronisme est frappant de l'enseignement de Plotin à Rome et celui de Paul de Samosate à Antioche » (2).

On peut pousser l'analyse plus loin. Zénobie pouvait penser qu'entre le christianisme de Paul et la religion de Palmyre, il existait des points communs pouvant favoriser sa tentative syncrétiste de rapprochement entre les peuples de son royaume.

Au III^e^ siècle, les deux grands dieux de Palmyre, Bel et Baalshamin tendent à s'unifier. « Si Bel est avant tout le maître des sphères célestes et des destinées humaines qui en dépendent, Baalshamin est, comme le Hadad phénicien, le dieu de l'orage et des pluies bienfaisantes. Son culte est moins abstrait que celui de Bel, et on le qualifie de « dieu bon et rémunérateur » (3). Cependant, il est aussi le « maître du monde » (4). Cette dernière expression pourrait tout aussi bien se traduire « maître de l'éternité ». Les inscriptions grecques et palmyréniennes qui accompagnent parfois la dédicace parlent de « Zeus » (5), de « Zeus très grand » (6) ou de « Très Haut » (7). On le voit, pour un palmyrénien cultivé, Baalshamin et Bel n'étaient guère que deux aspects de la divinité suprême que le monde hellénistique nommait Zeus, terme alors synonyme de « Dieu » (8).

---

(1) Gustave BARDY, *Paul de Samosate*, p. 274.

(2) BATTIFOL, *Le christianisme et le monde antique* (cité par G. BARDY, *Paul de Samosate*, édit. refondue, 1929, p. 275, note 2).

(3) *C.I.S.*, II, 3983 et 3988.

(4) *C.I.S.*, II, 3986.

(5) *C.I.S.*, II, 3959.

(6) *C.I.S.*, I, 3912.

(7) *Exuperantissimus*. Cf. CANTINEAU, *Revue d'Assyriologie*, 1930, p. 35.

(8) J. STARCKY, art. *Palmyre*, in *Supplément du Dictionnaire de la Bible*, col. 1097.

Or, selon M. F. Cumont, c'est en Commagène — et Samosate est la capitale de cette région — qu'aurait pris naissance, dans la deuxième moitié du second siècle, l'épithète de « Exsuperantissimus » appliquée d'abord au Zeus de Doliché, dont le nom et le culte répandu par les légionnaires dans tout l'empire, « devint naturellement une des formes de ce dieu unique auquel allaient toutes les aspirations du syncrétisme païen, non seulement dans les cercles cultivés mais jusque dans les milieux populaires » (1). « Si les erreurs théologiques de Paul de Samosate proviennent en grande partie d'un souci très vif de sauvegarder l'unité divine, et si d'autre part, sa formation chrétienne est restée assez superficielle, on pourra supposer qu'il a essayé de faire entrer le monothéisme de la Bible et de l'Évangile dans les cadres plus larges d'un syncrétisme dont le culte de Jupiter *summus exsuperantissimus* lui aurait donné l'idée » (2).

Aurélien et Palmyre

La nouvelle de la l'avènement d'Aurélien ne devait parvenir à Palmyre que vers l'automne 270: le nouvel empereur tenait son investiture de l'armée du Danube. Il ne manquait certes pas de titres pour succéder à Claude II. Mais les armées d'Italie et du Rhin le craignaient pour sa sévérité. Sa rudesse et sa violence lui auraient valu, alors qu'il était tribun militaire, le sobriquet de Manu ad Ferrum. Aurélien qui, malgré les instructions de Claude avait fait exécuter Auréolus, pensant ainsi éliminer tout concurrent, avait vu ses calculs déjoués par le Sénat qui avait désigné Quintillus pour succéder à son frère. Mais, cette fois-ci, l'état-major illyrien ne craint pas de défier ouvertement le Sénat en désignant son propre candidat Aurélien. Celui-ci, de parti pris, est opposé à Palmyre. Il attend cependant un an avant de prendre l'initiative d'une rupture ouverte avec Zénobie.

Pour M. L. Homo, panégyriste d'Aurélien, l'empereur, constatant qu'il ne pouvait se libérer immédiatement pour une campagne en Orient, aurait conclu avec Palmyre une « convention » qui réservait en droit la souveraineté romaine, mais reconnaissait en fait à Palmyre la possession de tout l'Orient. A la suite de M. Homo, plusieurs historiens ont admis l'existence d'une pareille convention: M. Besnier (3), J.G. Février (4), Vogt (5). Mais

(1) F. Cumont, *Jupiter Summus Exsuperantissimus*, in *Archiv für Religionswissenschaft*, IX, 1906, 323-336.
(2) G. Bardy, *loc. cit.*, 252.
(3) M. Besnier, *Histoire romaine* (coll. Glotz), t. IV, I, p. 216.
(4) J.G. Février, *op. cit.*, p. 116.
(5) Vogt, *Alexandrin. Kaisermünzen*, I, p. 214.

adoptant les analyses plus précises de H. Mattingly (1) et de M. A. Alföldi (2), M. Daniel Schlumberger a mis cet accord en doute: « Zénobie, tout en contraire, aurait mis Aurélien devant une situation de fait, en lui proposant un compromis qu'il aurait repoussé. Ce compromis se traduit par les émissions monétaires de Palmyre, en Syrie et en Égypte: sur ces monnaies, l'avers porte l'effigie de Wahballàt avec tous les titres habituels d'un empereur romain » (3).

Qu'Aurélien ait repoussé ce compromis qui reconnaissait toutes les conquêtes de Palmyre sous Claude II, cela cadre mieux avec son caractère et sa politique. Encore général, Aurélien, rappelons-le, avait été impliqué en même temps qu'Héraclianus dans le complot qui avait abouti à l'assassinat de Gallien, et Aurélien en voulait aux Palmyréniens d'avoir si piteusement défait son associé (juillet-août 268). Porte-parole de l'hostilité des Illyriens, comment Aurélien aurait-il entériné l'ascension de Palmyre?

L'ARMÉE DU DANUBE.

M. L. Homo, dans un parallèle trop facile entre « la mollesse » de l'armée d'Orient et la ténacité de l'armée du Danube, ne craint pas d'écrire que cette armée représentait « avec le Sénat, les deux foyers du patriotisme romain » (4). Il n'est pas besoin de démontrer combien cette appréciation est surprenante en ce qui concerne le Sénat. Ce corps, jadis vénérable et tout puissant, n'était plus depuis Septime Sévère, que l'exécuteur docile des volontés de l'empereur. Lorsque commence la période d'anarchie militaire, les empereurs sont nommés par les armées: Gallien élimine les sénateurs des commandements militaires et des gouvernements provinciaux. Le Sénat entérine les décisions des militaires ou plie devant leur opposition, sans formuler la moindre protestation. Quel « patriotisme » peut-on déceler dans cette passivité?

En ce qui touche l'armée du Danube, M. Homo fait preuve de plus d'imagination que d'exactitude (5). Depuis 235, cette armée

(1) H. MATTINGLY, *Numismatic Chronicle*, 1936, p. 102.

(2) A. ALFÖLDI, *C.d.H.*, XII, 301 et *Berytus*, V, p. 88.

(3) D. SCHLUMBERGER, *L'inscription d'Hérodien*, in *Bull. d'Etudes Orientales*, t. IX, 1942-1943, p. 44.

(4) L. HOMO, *op. cit.*, p. 55.

(5) Ce parti pris contre l'armée d'Orient est une idée fixe de M. Homo. Dans son ouvrage consacré à Vespasien, paru en 1949, cet historien institue un parallèle très malheureux entre l'armée d'Orient et celle d'Italie. S'appuyant sur Tacite, il reprend son leit-motiv sur la « mollesse » de l'armée d'Orient; mais Tacite se réfère à la situation où se trouvait cette armée sous Néron. Ses insuccès d'ailleurs sont dus à la mésentente entre Pison et Corbulon. L'armée

n'avait subi que des revers humiliants. Incapable de s'opposer à l'invasion des Goths, elle avait dû leur abandonner Istropolis en 238, Philippopolis en Macédoine en 250, la Dobroudja roumaine sous Trébonnien Galle. Dèce les combattit sur le plateau de Pleven, mais au cours de cet engagement il perdit son fils et périt lui-même à Abritus (fin janvier 251). Sous Gallien, l'armée du Danube dut évacuer le territoire romain de Dacie.

Un quart de siècle de défaites répétées avait exaspéré les Illyriens. Comment n'aurait-ils pas éprouvé une amère jalousie devant les succès ininterrompus de l'armée d'Orient depuis la captivité de Valérien? La victoire des Palmyréniens sur Sapor en 250, l'élimination des usurpateurs Quiétus et Ballista à Émèse en 261, les campagnes contre les Perses en 261, 262 et 266 qui avaient valu à Gallien le titre de Persicus Maximus, et maintenant ces conquêtes foudroyantes de l'Égypte et de l'Asie Mineure. Aux yeux des Illyriens, Palmyre constituait une sérieuse menace: l'empire, gouverné par les Illyriens depuis la mort de Philippe l'Arabe, risquait de passer à nouveau aux mains de l'armée d'Orient.

Il fallait donc à tout prix bloquer l'expansion territoriale de Palmyre et empêcher que ne se reconstituât un empire romain d'Orient. Par sa victoire sur les Goths, Aurélien était l'homme qui avait renversé le courant fatidique en faveur des Illyriens. Zénobie était virtuellement condamnée au lendemain de la victoire de Nish.

M. Homo est donc mal fondé à parler d'une convention entre Rome et Palmyre au début du règne d'Aurélien. Mais peut-être l'hypothèse d'un tel accord n'a-t-elle été avancée que pour rejeter sur Zénobie l'odieux de l'avoir dénoncé. La rupture vint de Rome et constitua une volte-face complète par rapport à la politique de Gallien. Les rois palmyréniens n'avaient d'autre choix que de passer dans l'opposition et se déclarer Augustes.

Rupture avec Rome.

Le 29 août 271, des monnaies sont frappées dans les ateliers de Syrie et d'Alexandrie: l'effigie d'Aurélien en est disparue. Wahballât y est représenté avec la couronne radiée et la qualité d'Auguste. La couronne radiée est la règle générale pour les effigies d'empereurs sur les Antoniniani. Elle remplace ici la couronne laurée et le diadème qui figurent sur les monnaies émises avant la rupture

---

de Vespasien montra ses qualités combatives au cours de la guerre contre les Juifs et la campagne de Commagène. M. Homo ne dit pas un mot de l'état des armées d'Italie et du Rhin, telles que les dépeint Suétone dans les vies de Galba, d'Othon et de Vitellius.

La titulature du nouvel empereur est la suivante: IMP(erator) C(aesar) VABALLATUS AUG(ustus). Les légendes du revers sont celles des empereurs de la dynastie sévérienne: Aequitas Aug(usti), Aeternitas Aug(usti), Victoria Aug(usta). Cette dernière légende appartient à Claude. D'autres légendes font allusion à la jeunesse de l'empereur: Iuventus Aug(usti). D'autres annoncent Dioclétien: Iovi Sator.

M. Seyrig qui a étudié ces monnaies de VHABALLATUS AUGUSTUS (1) remarque avec raison que le nom du nouvel empereur est orthographié par l'atelier d'Antioche moins exactement que ne le fait l'atelier d'Émèse qui lui donne le nom de Vhabalatus.

L'atelier d'Alexandrie donne la traduction de Vhaballath en grec: Aut(ocrator) K(aisar) OYBALLATOS ATHENO(doros) SEB(astos). Le revers représente le buste du Soleil ou la Providence, debout. Les monnaies sont rares car le règne fut court; les pièces pèsent 9 gr. 06 et 6 gr. 60 (2).

La reine-mère porte également sur des monnaies syriennes et égyptiennes le titre d'Augusta ou de Sebasté. Ses monnaies de frappe latine portent à l'avers: S(eptimia) Zenobia Aug(usta). Elle porte le diadème surmonté d'un croissant. Au revers figure la légende de Juno Regina: Junon debout, avec, à ses pieds, un paon.

A Alexandrie, ses monnaies grecques la désignent comme Sept(imia) Zenobia Seb(asté), buste diadémé à g. ou à dr. Les représentations du revers sont diverses: la Providence debout, ou le buste de Diane. Ces pièces sont datées de la 5e année du règne de son fils (3).

Première campagne d'Aurélien contre Palmyre.

Pour réduire Palmyre, Aurélien doit entreprendre deux campagnes successives. Notre informateur sur ces événements est Zozime, historien grec qui écrit au début du VIe siècle. De valeur assez inégale, il est assez bien renseigné sur les événements d'Orient; très favorable à Aurélien, il passe sous silence certains faits accablants, et d'après la tradition des historiens grecs, il est plein de préjugés contre les Syriens.

(1) H. Seyrig, *Vhaballatus Augustus*, dans *Mélanges offerts à K. Michalowski*, 1966, pp. 659-662.

(2) A. von Sallet, *Die fürsten von Palmyra*, 13-17; Th. Rhode, *op. cit.*, cat. 21-22.

(3) Th. Rhode, *op. cit.*, nº 27-30.

M. L. Homo a suivi d'assez près Zozime, sans peut-être le critiquer suffisamment.

La première campagne eut lieu entre le mois de Janvier et l'été de 272. Aurélien attaqua les Palmyréniens par l'Asie Mineure et par l'Égypte. Une armée, sous le commandement du futur empereur Probus, réussit d'autant plus facilement à prendre pied à Alexandrie, que Zabdas avait pratiquement retiré toutes ses forces de la Vallée du Nil. Après avoir réduit à l'impuissance les partisans de Palmyre, cette armée avait l'ordre de remonter par l'Arabie et la Palestine à la rencontre des légions qu'Aurélien commandait lui-même. En Asie Mineure, Aurélien savait qu'il pouvait compter sur le soutien inconditionnel de la Bithynie et de la Galatie.

Tyane, la cité du thaumaturge Apollonius, tenta une résistance éphémère (1): les Palmyréniens ne voulaient livrer leur premier combat que devant Antioche. Leur cavalerie lourde se révéla peu efficace devant l'infanterie illyrienne. Bien que l'armée de Zabdas comptât près de 70.000 hommes, il est fort probable qu'elle avait dû perdre une partie notable de ses cadres romains qui avaient préféré rallier l'empereur. Pour appuyer cette hypothèse nous avons le témoignage indirect du ralliement des cadres de la III legio Cyrenaica qui s'étaient engagés dans l'armée de Probus, à son passage à Bosra. Aurélien les en récompensa en leur permettant de piller le temple de Bel (2).

Affaiblie par ces abandons, l'armée de Zabdas ne put sauver Antioche; elle se replia en bon ordre sur Émèse, poursuivie par Aurélien. C'est sans doute à Émèse que Probus fit sa jonction avec l'empereur. Le combat fut acharné et un moment, les Palmyréniens furent sur le point de l'emporter (3). Aurélien ne triompha qu'au prix de pertes très sévères: les Illyriens trouvèrent à Émèse un butin considérable. Mais ils ne purent s'attarder dans cette ville, car les Palmyréniens s'étaient mis en route pour Palmyre où ils espéraient tenir assez longtemps pour que les contingents que leur avaient promis les Perses et les Arméniens puissent prendre à revers l'armée d'Aurélien. Mais les Perses n'avaient plus leur combattivité du temps de la capture de Valérien: leur roi Sapor était âgé de près de 70 ans, et allait mourir quelques mois plus tard. Quant aux Arméniens, alliés des Perses, ils attendirent de Ctésiphon des ordres qui ne vinrent jamais.

(1) Continuateur de Dion (frag. *Hist. Graec.*, édit. Müller, n° 10), fr. 4.
(2) H. Seyrig, *Antiquités syriennes*, III, p. 127.
(3) Zozime, I, 53.

Durant ce siège, il y eut un échange de messages entre Aurélien et Zénobie qui mérité d'être rapporté, même si la forme où ils nous sont parvenus semble apocryphe: Aurélien aurait écrit en ces termes à Zénobie: « L'empereur du monde romain, le vainqueur de l'Orient, Aurélien, à Zénobie et à tous ses alliés. Vous auriez dû faire spontanément ce dont ma lettre actuelle vous donne l'ordre. Car je vous conseille de vous rendre, vous offrant la vie sauve, à la condition, Zénobie, que tu ailles vivre avec les tiens dans la résidence que je t'indiquerai, sur l'avis du très noble Sénat. Versez au trésor de Rome pierreries, or, argent, soie, chevaux et chameaux. Les Palmyréniens conserveront leurs lois. » A cette lettre pleine de hauteur et d'insolence, Zénobie répondit: « Zénobie, reine d'Orient, à Aurélien Auguste. Personne avant toi n'a demandé par lettre ce que tu réclames. A la guerre, tout doit se régler par le courage. Tu me demandes de me rendre: ne sais-tu pas que Cléopâtre a mieux aimé mourir, étant reine, que vivre avec n'importe quel titre? Nous avons pour nous les renforts de la Perse que nous attendons incessamment. Les brigands de Syrie, Aurélien, ont vaincu ton armée. Alors? Quand arriveront les renforts que j'attends de toutes parts, tu mettras certainement fin à ton arrogance et cesseras de m'ordonner de me rendre comme si tu était partout vainqueur » (1).

Cependant le siège se prolongeait et les Palmyréniens commençaient à souffrir de la famine. Zénobie pensa qu'une entrevue personnelle avec Sapor lui obtiendrait les renforts tant espérés. Mais elle fut capturée alors qu'elle s'apprêtait à traverser l'Euphrate (2).

Lorsque les Palmyréniens apprirent le sort de la reine, ils se rendirent. Aurélien ne permit pas que la ville fût pillée, et les monuments publics furent respectés. Mais le butin capturé fut immense. Après avoir laissé à Palmyre une garnison de 600 archers Aurélien rentra à Émèse où eut lieu le procès de Zénobie. Comme il s'écriait, quand on eut amené la reine devant lui: « Alors, Zénobie, tu as osé insulter les empereurs romains? », celle-ci lui aurait fait cette fière réponse: « Empereurs? Toi, qui sais vaincre, je te reconnais pour tel. Mais Gallien, Auréolus, et tous les autres princes n'en ont jamais été pour moi » (3). L'allusion à la défaite des Illyriens devant les Goths était mordante. Il faut tout le parti pris de M. Février pour voir dans cette attitude « une lâcheté

(1) *Vita Aurel.*
(2) Zosime, I, 55.
(3) S.H.A., *Trente tyrans, Zénobie.*

répugnance ». Impressionné, Aurélien épargna Zénobie, la réservant pour son triomphe; en revanche, il mit à mort ses conseillers, au premier rang desquels se trouvait Longin.

Mais Aurélien ne pouvait s'attarder à Émèse. Une invasion des Carpes venait de lui être annoncée et il lui fallait se rendre sur le Bas-Danube. Avant de se mettre en route, Aurélien constitua en Orient un grand commandement militaire au profit d'un homme qui lui était particulièrement attaché, Marcellinus, qui fut nommé préfet de Mésopotamie (non encore reconquise) et chargé de l'administration de l'Orient tout entier (1). Une inscription donne à ce personnage, d'ordre équestre, le titre de Vir perfectissimus et Dux ducenarius (2). Marcellinus cumulait donc les fonctions militaires de Wahballât et l'intendance des finances exercée à Antioche par Paul de Samosate, lui aussi disparu dans la tourmente.

Deuxième campagne contre Palmyre.

M. L. Homo écrit très justement: « Le préfet de Mésopotamie était seul en mesure de faire face aux complications qui pouvaient se produire en Orient: un double danger était à craindre: une révolte des Palmyréniens, une intervention des Perses, et surtout, Aurélien s'en était aperçu au cours de sa campagne, une coopération possible des uns et des autres. Marcellinus, posté sur l'Euphrate, pouvait arrêter les Perses, s'ils tentaient de franchir le fleuve. Prise à revers, et coupée de la Perse, attaquée de front par l'armée revenue d'Europe, Palmyre devait être facilement réduite à l'impuissance. La concentration du pouvoir en une seule main et le choix de Marcellinus étaient deux mesures d'habile prévoyance, que la suite des événements n'allait pas tarder à justifier » (3).

La capture de Zénobie ne mit pas fin au royaume de Palmyre. Le soulèvement de la ville qui eut lieu en 273 ne s'explique pas seulement par « le regret de la grandeur perdue et la rancune des vaincus ». En Syrie et à Alexandrie les partisans de la reine restaient nombreux. Ils n'auraient probablement pas agi aussi rapidement, si une terrible nouvelle n'était venue les bouleverser: au cours de la traversée de la Propontide, un prétendu naufrage aurait noyé tout l'entourage de Zénobie et les principaux chefs de la résistance palmyrénienne. Cet « accident » ressemblait trop à un complot, et les Palmyréniens auraient eu tort d'en accuser Aurélien, si ce lâche

(1) Zosime, I, 60.
(2) *C.I.L.*, V, 3329.
(3) L. Homo, *Essai sur le règne de l'empereur Aurélien*, p. 107.

comportement ne cadrait pas parfaitement avec ses habitudes passées: au mépris de la parole donnée, Aurélien se débarrassait des Palmyréniens comme il avait jadis assassiné Auréolus, à qui Claude II avait promis la vie sauve.

A Palmyre le mouvement de révolte fut dirigé par un certain Apsaeus qu'une inscription de cette ville donne pour l'un des principaux personnages de la cité (1). Zozime nous apprend qu'Apsaeus fut l'un des chefs du parti de l'indépendance lors du siège de Palmyre (2): or, dans le prétendu accident de la traversée de la Propontide, ce ne furent pas seulement des enfants et des parents de la reine qui avaient péri, mais les principaux chefs du parti national: la révolte d'Apsaeus s'explique donc autant par loyalisme pour Zénobie que par l'indignation devant le sort réservé à ses compagnons de lutte. Apsaeus massacra la garnison romaine et le gouverneur militaire laissé par Aurélien.

L'Égypte réagit avec la même rapidité. La conquête de la vallée du Nil par Probus avait gravement compromis les intérêts de toute une classe sociale qui vivait du commerce de Palmyre. Comment ces riches commerçants auraient-ils accepté de voir l'Égypte redevenir domaine impérial exploité au seul profit de Rome?

L'empire romain d'Orient se ressoudait; il ne lui manquait plus qu'un chef. Apsaeus sonda le préfet de Mésopotamie Marcellinus, cherchant à le détacher d'Aurélien, lui proposant de le reconnaître pour Auguste.

L'attitude de Marcellinus fit échouer les plans des Palmyréniens: sous prétexte de consulter les commandants des unités légionnaires, le préfet fit prévenir secrètement Aurélien. Devant cette attitude dilatoire, Apsaeus fit proclamer comme roi de Palmyre un certain Antiochus qui se rattachait à la dynastie légitime d'Odeinath (3).

L'Égypte se hâta de reconnaître Antiochus. Le préfet Firmus, grec de Séleucie établi à Alexandrie, gouverna le pays au nom de Palmyre. Les approvisionnements de Rome furent arrêtés et la capitale fut menacée de famine (4).

Le danger était extrêmement grave: Aurélien, toutes affaires cessantes, marcha sur Palmyre, avant que la concentration des

(1) WADDINGTON, 2582.
(2) ZOZIME, I, 60.
(3) WADDINGTON, 2629.
(4) *Vita Firmi*, V, 4.